ضوء جديد على أوقاف المستنصرية

ناجي معروف

لقد وقف المسلمون الوقوف الكثيرة على أماكن التدريس المختلفة كالمساجد ، والمدارس ، ودور القرآن ، ودور الحديث ، والربط ، والمشاهد[١] والترب ، وخزانات الكتب . وقد حبس المحسنون والواقفون الاحباس لادامتها ، والانفاق على أربابها حفظا للدين ، ورعاية للعلم وأهله ، من الطلبة ، والمدرسين ، والشيوخ . ومساعدة للزهاد ، والمنقطعين الى الله تعالى ، والمقبلين على شأنهم . ومعونة للفقراء والمحتاجين .

ولم تقتصر وقوف المسلمين على الانسان ، والمنشآت الخيرية بل وقفوا جانبا من أموالهم على الحيوانات ، والطيور وحتى على الديكة فقد ذكر الصفدي : ان علم الدين الدوادار المتوفى في سنة ٦٩٩ هـ الملقب بالسنتوري وأول من سار بكسوة البيت بعد أخذ بغداد ، رتبه السلطان « لاجين » في شد[٢] عمارة جامع ابن طولون ، وفوض أمره اليه ، وعمر وقوفه ، وقرر فيه دروس الفقه والحديث والطب . وجعل من جملة ذلك وقفا يختص بالديكة التي تكون في سطح الجامع في مكان مخصوص بها . وزعم ان الديكة تعين الموقتين ، وتوقظ المؤذنين في السحر . وضمن ذلك كتاب الوقف . فلما قرىء على السلطان اعجب ما اعتمده في ذلك فلما انتهى الى ذكر الديكة أنكر ذلك وقال : ابطلوا هذا لا يضحك الناس علينا[٣] .

وكان للنساء والرجال في جميع انحاء العالم الاسلامي أوقاف كثيرة جدا على المدارس ، والربط ، والفقراء ، والصوفية وذوي التقى ، والعبادة ، والعفاف من الرجال والنساء ، والمنقطعات والارامل[٤] وغير ذلك من القربات كالوقف على الاسرى[٥] وعلى العتقاء والمرضى ، والمجاورين وغيرهم[٦] حتى لنجد بين العالمات المسلمات عددا كبيرا ممن كن يؤسسن المدارس ، ويتولين ادارة الربط ، أو يعظن ، ويفتين ، ويمنحن الاجازات العلمية ، ويوقفن الوقوف . كما نجد بين الرجال عددا كبيرا من العلماء الذين وقفوا كتبهم في الجوامع ، وخزانات المدارس .

واذا كانت مكتبات الاشخاص قد اشتملت على مئات ألوف من الكتب[٧] . فما ظنك بمكتبات العواصم الكبرى ، والمدارس الجامعة التي

انشأها الخلفاء ، والملوك والامراء ، ووقفوا لادارتها ، وادامتها ، وتنميتها الاموال الوفيرة ، وحبسوا عليها القرى ، والعقارات الكثيرة - فقد ذكر الخزرجي ان ما انفق على المستنصرية من المال يعجز عنه الحصر وقال : ان المستنصر « وقف عليها وقفا جليلا »(٨) ٠

وقد سرد الذهبي(٩) وغيره أوقاف المستنصرية من القرى ، والضياع والرباع والحوانيت ٠ وذكر غير واحد من المؤرخين ان قيمة ما وقف عليها يساوي مليون دينار ، وان وارداتها بلغت نيفا وسبعين الف مثقال من الذهب في السنة(١٠) ٠

وقد ظلت المستنصرية بعلمائها ورجالها الذين كانوا نحو (٥٠٠) انسان ينعمون بواردات الاوقاف المنوه بها طيلة حكم الخليفتين العباسيين : المستنصر والمستعصم ٠ ويظهر ان هذه الواردات أخذت في التناقص بعد سقوط الخلافة العباسية وتكالب الاجانب على حكم العراق فساءت الاحوال الاقتصادية بنتيجة تخريب مستغلات المدرسة التي أوقفت عليها أو انتابها من قبل المتنفذين وأهل الجاهات ٠ ومما يؤيد ذلك ما ذكره ابن شهبة في منتقى معجم الذهبي(١١) عن واردات المستنصرية قال : بلغ ارتفاع وقف المستنصرية في بعض الاعوام نيفا وسبعين الف مثقال وثلاثمئة في الكثير ٠ وقال : ومن جملة القرى الموقوفة على المدرسة المستنصرية ما مساحته الف الف جريب سوى الخانات والرباع ، وغير ذلك ٠ ثم قال : لكن اليوم ما يدخل المستنصرية عشر ذلك بل أقل بكثير ٠ وهذا من دون شك هو السبب الذي دفع المسؤولين ببغداد يومئذ ان يقولوا لفقهاء المستنصرية في سنة ٦٨٣هـ : « من يرضى بالخبز وحده والا فما عندنا غيره » كما ذكر ذلك ابن شاكر الكتبي(١٢) ٠ وكان ذلك سبب ثورة فقهاء المستنصرية على « صدر الوقوف » جمال الدين الدستجردي أو الدستجرداني فقد جاء في الكتاب المظنون انه « الحوادث الجامعة » في حوادث سنة ٦٨٣ هـ ان فقهاء المستنصرية اجتمعوا على جمال الدين الدستجردي صدر الوقوف ، ونالوا منه ، وأسمعوه قبيح الكلام ، فحماه منهم الشيخ ظهير الدين البخاري المدرس بالمستنصرية وخلصه من أيديهم » ٠

وقد اشار الى هذه الحادثة شاعر معاصر هو علي بن عبدالعزيز بن علي بن جابر الشاعر الفقيه الظريف تقي الدين ابن المغربي البغدادي المتوفى ببغداد سنة ٦٨٤ هـ ، قال يصف المستنصرية وفقهاءها(١٣) :

حاشا لست المدارس ومن يضرب بها المثل
تهون من بعد ذاك التعظيم والتشريف

مستنصرية سبيكة قد كنت في عصر الصبا
واليوم قد صرت بهرج مزيفة تزييف

ما زال نخلك يرجم حتى فنى الرطب الجني
وما بقي في قراحك غير الكرب والليف

ذكرت بيتا ظريفا من كان وكان البغاددة
وكل معنى يبدو من الظريف ظريف

أي ست ما أكثر زبونك ما احلى فراشك من العشي
ذي زحمة الباقلاني وكلهم برغيف

ان معلوماتنا عن أوقاف المستنصرية ظلت مقتصرة على ما ذكرناه في أعلى هذا الكلام الى ان تمكنا من جلب مخطوطة « تاريخ الاسلام » للذهبي فعثرنا فيها على معلومات مفصلة عن هذه الاوقاف منها : ان ارباب الوقف في المستنصرية كانوا (٥٠٠) نفر من المدرسين فمن دونهم ، وان الواردات من تبن اوقافها كانت تكفى الجماعة وتبقى غلات القرى والرباع فضلة . كما استطعنا ان نحصي نحو (١٥٠) الف جريب من مليون الاجربة التي ذكرها المؤرخون ندونها فيما يأتي نقلا عن مخطوطة تاريخ الاسلام ونثبت بعدها صورتها في صفحتين من المخطوطة المذكورة .

ذكر الذهبي[١٤] في حوادث سنة ٦٣١ هـ نقلا عن ابن الساعي قال : وفيها تكامل بناء المدرسة المستنصرية ببغداد . ونقل اليها الكتب وهي مئة وستون حملا . وعدة فقهائها مئتان وثمانية واربعون فقيها من المذاهب الاربعة ، واربعة مدرسين ، وشيخ حديث ، وشيخ نحو ، وشيخ قراء . فرتب شيخ الحديث أبو الحسن ابن القطيعي . ورتب فيها الخبز ، والطبيخ والحلاوة والفاكهة . فأنبأني محفوظ ابن البزوري قال ، تكامل بناء المستنصرية ، وجاءت في غاية الحسن ونهايته . وخلع على استاذ الدار العزيزة متولي عمارتها ، وعلى أخيه علم الدين أبي جعفر ابن العلقمي ، وعلى حاجبه، وعلى المعمار، وعلى مقدم الصناع. ونقل الى خزانة الكتب الكثير من الكتب النفيسة فبلغني انه حمل اليها ما نقله مئة وستون حمالا سوى ما نقل اليها فيما بعد ، واوقفت . وجعل الشيخ عبدالعزيز شيخ الصوفية برباط الحريم وخازن كتب دار الخلافة هو وولده ضياء الدين أحمد ينظران في ترتيبها . فرتبا الكتب أحسن ترتيب . وفي بعض الايام اتفق حضور أمير المؤمنين عندهما لينظرا (؟) فسلم عليه عبدالعزيز وتلا قوله تعالى : «تبارك الذي ان شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجري من تحتها الانهار ، ويجعل لك قصورا » فخشع المستنصر بالله أمير المؤمنين ورد عليه السلام ، وكلمه ، وجبر قلبه .

وشرط لكل مدرس اربعة معيدين واثنان وستون فقيها ، وان يكون بالدار المتصلة بالمدرسة ثلاثون يتيما يتلقنون .

[illegible]

[illegible]

قلت : ثم رأيت نسخة كتاب وقفها في خمسة كراريس • والوقف عليها عدة رباع ، وحوانيت ببغداد ، وعدة قرى كبار وصغار ما قيمتــه تسعمئة ألف دينار فيما يخال الي • ولا أعلم وقفا في الدنيا يقارب وقفها أصلا سوى أوقاف جامع دمشق • وقد يكون وقفها أوسع •

٣٧٠٠ فمن وقفها بمعاملة دجيل قصر سميكة(١٥) وهي ثلاثة آلاف وسبعمئة جريب •

٦٤٠٠ والجمد(١٦) وضياعه كلها ومساحته ستة آلاف واربعمئــة جريب •

٥٠٥٠ والأجمة(١٧) كلها وهي خمسة آلاف جريب وخمسون •

٥٥٠٠ ومن نهر الملك برفطا(١٨) كلها وهي خمسة آلاف وخمسمئة جريب •

٣٩٩٠ وناحية الدور(١٩) وهي ثلاثة آلاف وتسعمئة وتسعون جريبــا •

٣٠٠٠ وقوسنينا(٢٠) وهي ثلاثة آلاف جريب ونيف •

٤١٨٠ وقرية مربد(٢١) كلها وهي أربعة آلاف جريب ومئة وثمانون جريبا •

٨١٠٠ ومن ذلك ناحية طسنى ومساحتها ثمانية آلاف ومئة جريب •

٣١٠٠ ومن ذلك ششتا وهي ثلاثة آلاف جريب ومئة •

٤٠٠٠ وناحية الارحا(٢٢) وهي أربعة آلاف جريب •

٤٠٠٠ ومن ذلك ناحية البسطامية وهي أربعة آلاف جريب •

١٠٠٠ والفراشة(٢٣) ألف جريب •

١٢٠٠ وقرية حد النهرين وهي ألف جريب ومئتا جريب •

٤٨٠٠ والخطابية(٢٤) وهي أربعة آلاف وثمانمئة جريب •

٦٥٠٠ وناحية بزندى وهي ستة آلاف وخمسمئة جريب •

٢٠٢٥٠ ومن ذلك السدادية ومبلغهــا عشرون ألف جريب ومئتان وخمسون جريبا •

٤٨٠٠ وحمزبقيه ؟ وهو أربعة آلاف جريب وثمانمئة •

٦٠٠٠ ومن ذلك قرباطيا ستة آلاف جريب •

٥٩٠٠ ومن ذلك حمــز خراســان(٢٥) وهي خمســة آلاف جــريب وتسعمئة جريب •

٧٢٠٠ وما أضيف الى ذلك وهو سبعة آلاف جريب ومئتا جريب •

٢٦٠٠ ومن أعمال نهر عيسى قرية الجديدة وهي ألفا جريب وستمئة جريب •

٦٤٠٠ والقطنية وهي ستة آلاف واربعمئة جريب •

٥٥٠٠ وقرية المنسل وهي خمسة آلاف وخمسمئة جريب •
٢٥٠٠ ومتن(٢٦) وهي الفان وخمسمئة جريب •
٤٦٠٠ وقرية الدينارية وهي أربعة آلاف وستمئة جريب •
١٩٠٠٠ والناصرية(٢٧) كلها وهي تسعة عشر الف جريب •

فالمرتزقة من أوقاف هذه المدرسة على ما بلغني نحو من خمسمئة نفر « المدرسون فمن دونهم • وبلغني ان تبن الوقف يكفي الجماعة ويبقى مغل هذه القرى مع كرى الرباع فضلة فكذا فليكن البر والا فلا ، وحدثني الثقة ان ارتفاع وقفها بلغ في بعض السنين وجاء نيفا وسبعين ألف مثقال ذهبا •

---

(١) الوافي بالوفيات للصفدي ج ٢ ص ١٢٥ – ١٣٦ و ج ٣ ص ٣٢١ ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزي ج ٨ قسم ٢ والمشتبه للذهبي ج ٢ ص ٤٣٥ •

(٢) الشغل : الادارة •

(٣) الوافي ج٨ الورقة ١٩٣

(٤) شفاء الغرام للتقي الفاسي المكي ، والدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني والمشتبه للذهبي •

(٥) ذيل مرآة الزمان لليونيني ج١ ص٣٠

(٦) اليونيني ج٤ ص٢٧٥

(٧) الوافي ج ١٢ الورقة ٤٤ •

(٨) العسجد المسبوك • الورقة : ١٤٨ •

(٩) راجع كتاب الاعلام باعلام بيت الله الحرام للقطبي ص ١٥٧ •

(١٠) دول الاسلام ج ٢ ص ١٠٣ وتاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٣٠٦ وابن شهبة في منتقى

(١١) الورقة ١٨٣ •

(١٢) فوات الوفيات ج ٢ ص ١١٣ •

(١٣) فوات الوفيات ج ٢ ص ١١٣ •

(١٤) تاريخ الاسلام • الجزء الاخير من النسخة الخطية ص ٣٦١ و ٣٦٢ •

(١٥) سميكة : هي بلدة دجيل في اسفل نهر دجيل وتسمى اليوم : سميكة ايضا •

(١٦) الجمد : قرية كبيرة كثيرة البساتين والشجر والمياه من أعمال بغداد من ناحية دجيل قرب أوانا : راجع ياقوت •

(١٧) في القاموس اجمة برس • قال البلاذري في كتاب الفتوح : يقال ان علية (ر) الزم أهل اجمة برس أربعة آلاف درهم وكتب لهم بذلك كتاباً من قطعة أدم • واجمة برس بحضرة الصرح •• ياقوت • ولا يزال جانب من الصرح ماثلا حتى اليوم في منطقة زراعية مهمسة من أراضي الحلة •

(١٨) برقطا : على نهر الملك ينسب اليها البرقطي الانصاري وكانت له خزانة كتب ببغداد • وقد جاءت في النسخة الخطية « بن قطا » وهي خطأ سببه جهل الناسخ بهذه المواقع العراقيـة •

(١٩) تقرأ البدو ولعلها الدور وهي سبعة مواضع بأرض العراق من نواحي بغداد أحدها دور تكريت وهو بين سامراء وتكريت والثاني بين سامراء وتكريت ايضا يعرف بدور عربايا • وفي عمل الدجيل قرية تعرف بدور بني أوقر وهي المعروفة بدور الوزير عون

الدين يحيى بن هبيرة وفيها جامع ومنبر ٠ وبنو أوقر كانوا مشايخها وأرباب ثروتها ٠ وبنى الوزير بها جامعاً ومنارة ٠ وآثار الوزير حسنة ٠ وبينها وبين بغداد خمسة فراسخ ٠٠ والدور أيضاً قرية أخرى تسمى دور حبيب من عمل دجيل أيضاً ٠ وفي طرف بغداد قرب دير الروم محلة يقال لها الدور خربت الآن ٠ وهذا الموضع كما يصفه ياقوت لا يبعد كثيرا عن مشهد ابي حنيفة وكان جعفر البرمكي قد شرع في انشاء قصر له فيه ولكن لم تمكنه الظروف من قضاء بقية ايامه فيه ٠ ياقوت ٠

(٢٠) قوسنينا : ليس في القاموس مثل هذا الاسم وانما توجد كلمة قوسنيا وهي كورة من كور مصر وليست هي المقصود ٠ وربما كانت الكلمة محرفة عن قوسان وهي كورة كبيرة ونهر عليه مدن وقرى بين النعمانية وواسط وتهره الذي يسقي زروعه يقال له الزاب الاعلى ٠ ياقوت ٠

(٢١) اقرب الكلمات لها من حيث الرسم برث وهي كما في القاموس بليدة في سواد بغداد قريبة من المزرفة ينسب اليها جماعة من أهل العلم ٠

(٢٢) الارحاء : اسم قرية قرب واسط العراق ٠ ياقوت ٠

(٢٣) قراشا قرية مشهورة في سواد بغداد ينزلها الحاج : ياقوت ٠

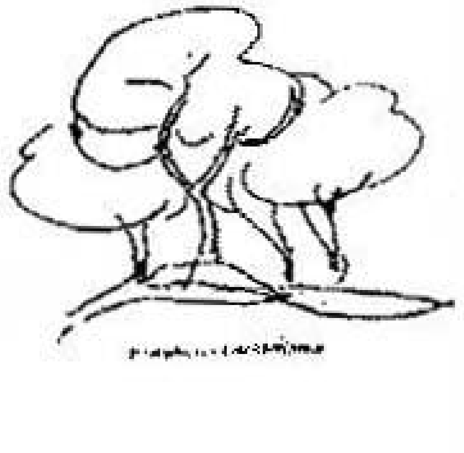
(٢٤) الخطابية : لعلها القرية التي ذكر المؤرخون انها كانت الى جانب باب الشام في الشمال الغربي من المدينة المدورة تقع على باب درب النورة الى درب الاقفاص ٠ وكانت الخطابية في العصر العباسي الاول لقوم من الدهاقين يقال لهم بنو فروة وبنو قنورا ٠

(٢٥) حمز خراسان : لعلها من خراسان بعقوباء أو طريق خراسان ٠

(٢٦) لعله قبين وهو اسم لنهر وولاية في العراق ذكره ياقوت قال ٠٠٠ فلما عبر على جسر سوراء نزل بقرية يقال لها قبين ٠ ياقوت ٤ : ٣٠٩ ٠

وفي ياقوت ج٣ ص٢٧٨ ٠ سوراء : موضع يقال هو الى جنب بغداد وقيل هو بغداد نفسها ٠

(٢٧) الناصرية : بين المحمودية والحلة اليوم خان يعرف بخان الناصرية ولعل الناصرية موضع هناك ولعلها منسوبة الى الناصر لدين الله العباسي ٠ وقد ذكر ياقوت : النصرية وهي محلة بالجانب الغربي من بغداد في طرف البرية متصلة بدار القز ـ باقية الى الان منسوبة الى أحد اصحاب المنصور يقال له : نصر ٠ معجم البلدان ج ٢ ص ٢٨٧ ٠



القضية العمانية العربية

مؤيد حسين مجيد

« ... لماذا تتردد حكومتنا في الاعتراف بأن العمليات الحربية في عمان ذات صلة وثيقة بالزيت ؟... ان كل شيء في الجزيرة العربية متصل بالزيت ... ولا ريب في أن عملياتنا العسكرية الدائرة هناك ليست الا بسبب الزيت ... »

فيليب نويل بيكر
عضو مجلس العموم البريطاني

« ... يثير نزاع عمان مخاوف بريطانيا على الزيت »

النيويورك تايمس البريطانية
٢٣ـ٧ـ١٩٥٧

لقد كنت أرى من الواجب علينا نحن أصحاب الاقلام المتواضعة الذين يشعرون بواقع الحقيقة المرة ... حقيقة شعب مجاهد قد كبلته القيود الاستعمارية بحجة الحماية لمصالحها ... وكنت أرى لزاما علي وعلى غيري ممن يعلمون حقيقة جهاد شعبنا هو كشف حقيقة شعب يريد ثورة مصيره بنفسه ومؤازرته من قبل الدول المناصرة للحرية ، وذلك بنشر الحقائق الساطعة وفضح الاساليب الاستعمارية ... اذن مهمة الدعاية هذه لا تقع على أبناء الشعب العماني وحدهم بل تقع على كل فرد يشعر بأن عليه واجب المناصرة بشتى المجالات الحيوية التي يرى من المناسب توضيحها ليكون الجاهل على علم .

ولعل هذه القضية التي اسطرها بموضعها المتواضع البسيط الذي يناسبني .. كان لابد لي أن أسطرها بداخل هذه الوريقات لأؤدي بعض الخدمة لهذه القضية التي تعتبر جملة من قضايانا العربية في وقتنا الحاضر .. الملتهب بثورات الحرية .. الثورات التي خلقت الانسان الثائر الحر ودفعته لتحمل مسؤوليات الثورة الحقيقية .. بالسلاح .. بالجهاد .. بالقلم .. بالادب .. لانه أحس بالمرارات وبمشاعر اليأس وبخيبة أمل فاندفع الى الثورة .. ليجاهد ويعمل .. ولو تأملنا خريطة العالم اليوم

تكاد نرى نيران الثورة تندلع في كل مكان ·· لتتخلص من ميول الاستعمار وأهدافه ··!!

نبذة تاريخية حول القضية

تقع عمان المجاهدة في الجناح الجنوبي الشرقي لشبه الجزيرة العربية ويحدها من الشرق الخليج العربي ومن الغرب المملكة العربية السعودية ومن الشمال الخليج العربي فالمحيط الهندي ·

وعمان كانت قد لعبت بارزا في تاريخ الحضارة العربية وقد كانت المهد الاصلي للشعوب العربية وحضاراتهم الاولى حيث ذهب معظم العلماء البحاثين الى أن شبه الجزيرة العربية هي المهد الاول وايدوا نظريتهم هذه بأدلة كثيرة منها تاريخية وجغرافية ولغوية ودينية ، ويقول الاستاذ هانري ماسي أحد هؤلاء الباحثين عن عمان (أما عمان الواقعة في الجنوب الشرقي من شبه الجزيرة العربية فهي أيضا بلاد جبلية وخصبة جدا ، وان شاطئها مملوء بالمرافيء ، ومن هذه المرافيء خرج العرب الذين خلدوا آثارهم في تاريخ الملاحة)(١)

ويرجع عهد الامامة فيها الى عهد القرامطة وذلك في مطلع القرن الثامن الميلادي وكان الامام في العرف الاسلامي يجمع بيديه السلطتين الدينية والزمنية ويكون انتخابه حرا على أساس الشورى وعند ذلك تصبح كافة المرافق الحساسة للدولة بيد الامام ، وهكذا ظلت هذه السلالة (سلالة حكم الامامة) في عمان أكثر من ألف عام دون انقطاع وكان آخرها الامام غالب بن علي الذي انتخب عام ١٩٥٤ ·

وتقول المصادر الغربية ان امامة عمان كانت في اواسط القرن الثامن عشر أقوى دولة في الجزيرة العربية وتسيطر على جزء من ساحل افريقيا الشرقي ، وعلى زنجبار وبعض سواحل فارس وبلوخستان ، ولكن سرعان ما تعرضت لخطر الاستعمار البريطاني الذي بلغ آنذاك ذروة عنفوانه وقوته ، عندما شعر ما لعمان من أهمية استراتيجية لمواصلاتها مع الهند وتمكن من تقسيم ساحلها الى عدد من المشيخات والامارات · وحاول فصل مسقط عن عمان ليتسنى له خلق المشاكل والمؤامرات ضد الشعب العماني الذي فرضه الانكليز سلطانا لمسقط وعمان(٢) ·

ولعل تصريح وزير خارجية بريطانية المستر بالمرستون الذى أدلى به في مستهل عام ١٨٣٨م تعليقا على الحركات التي قامت بها القوات التركية في منطقة الخليج تعطينا الفكرة الصحيحة لنوايا بريطانية من احداث الخليج العربي · يقول الوزير :ــ

(ان مهمتنا في الخليج هي وضعه تحت سيطرتنا البحرية بعيدا عن نفوذ أية دولة أخرى تستطيع منازعتنا هذه السيطرة ولكن بشرط ألا تكلفنا

هذه السياسة نفقات باهضة) .

وهكذا أخذت تحور هذه الاتفاقيات وتجدد كلما طرأ حادث جديد في أفق السياسة البريطانية في منطقة الخليج وكان اتفاق السلام الدائم الذي وقع في مايس ١٨٥٣ صكا لاسس العلاقات البريطانية حتى يومنا هذا(٣) .

ونحن نرى اليوم ان شعب الجنوب العربي لم يخلد في كل تاريخه الى الرضوخ والاستسلام .. كما لم يتوقف لحظة عن القيام بالكفاح والنضال .. فقام بسلسلة من أعمال المقاومة السلبية والايجابية والانتفاضات الشعبية كما قامت جماعات لترد العدوان المسلح بقوة السلاح ... وكانت سلطات الاستعمار تلجأ دوما الى قواتها العسكرية ، وبما لها من تفوق عظيم عمدت الى اخضاع المقاومة وضرب الحكومة بقسوة ووحشية يساعدها في عملياتها هذه ذلك الحشد من الحكام المأجورين والمأسورين ومن يلتف حولهم من المرتزقة ، كما أعانها غفلة العالم الحر وانشغال العالم العربي بمعاركه القطرية ضد الاستعمار ، وقاوم الشعب بسلسلة من الاضرابات وكل صور المقاومة السلبية السلمية اعرابا عن ارادته في رفض الاستعمار ورفض كل مشاريعه .

ولكن السلطات الاستعمارية البريطانية قابلت هذه الحركات السلمية بالقوة العسكرية .. بالقسوة والوحشية ... بالنفي والطرد والابعاد ... بالاغواء والاغراء والاضطهاد .. كما عمدت أيضا الى مصادرة الحريات الفردية .. والحريات السياسية العامة .. صادرتها من كل الاحرار الشرفاء .. بينما اطلقتها واغدقتها على نفر يسهم في عملية الحصار ضد حركة التحرير والتشكيك في أهدافها والنيل من قيادتها .. وان كل ما ادعت به بريطانيا بتوحيد امارات الجنوب العربي في اتحاد رسمي ليس الا تركيزا لسلطاتها في أيدي اسراها وعبيدها ... انه اتحاد للسلاطين الاسرى ... اتحاد عديم الشخصية .. عديم الارادة .. عديم الاهلية .. وبالتالي منعدم السيادة(٤) .

ولست أشك في أن كفاحنا الواحد يمكن أن يعود علينا وعلى شعوبنا بكل الذي نريد ونتمناه ، ولنترك هنا الرئيس جمال عبدالناصر يحلل معنى الكفاح ومدى قوته الذي يمتاز به في كتابه المشهور فلسفة الثورة فيقول :ـ

(ولست اريد بذلك أن أهون من أمر العقبات التي تحول بيننا وبين توحيد الكفاح فلا شك أن بعضها معقد تمتد أصوله الى طبيعة البيئة وظروف شعوبها التاريخية والجغرافية ، ولكن المؤكد أنه يمكن مع الشيء من المرونة القائمة على بعد النظر ، لا على التفريط ، ايجاد الخط الذي يستطيع الجميع ان يقفوا فيه ، بلا تحرج ، وبلا عنت ، لمواجهة الكفاح الواحد ...

ويستمر صاحب الكتاب فيقول :

ولسوف أظل دائما أقول اننا اقوياء ولكن الكارثة الكبرى ، اننا

لا ندرك مدى قوتنا ٠٠!!

اننا نخطيء في تعريف القوة ، فليست القوة أن نصرخ بصوت عال ، انما القوة ان تتعرف ايجابيا بكل ما تملك من مقوماتها ٠٠

وحين أحاول أن أحلل عناصر قوتنا لا أجد مفرا من أن أضع ثلاثة مصادر بارزة من مصادرها يجب أن تكون أول ما يدخل في الحساب ٠

أول هذه المصادر اننا مجموعة من الشعوب المتجاورة المترابطة بكل رباط مادي ومعنوي يمكن أن يربط مجموعة من الشعوب ، وان لشعوبنا خصائص ومقومات وحضارة انبعثت من جوها الاديان السماوية الثلاثة المقدسة ، ولا يمكن قط اغفالها في محاولة بناء عالم مستقر يسوده السلام ٠

أما المصدر الثاني : فهو ارضنا نفسها ومكانها على خريطة العالم ٠ ذلك الموقع الاستراتيجي الهام الذى يعتبر بحق ملتقى طرق العالم ومعبر تجارته ، وممر جيوشه ٠

يبقى المصدر الثالث : وهو البترول الذي يعتبر عصب الحضارة المادية ، والذى بدونه تستحيل كل ادواتها ـ المصانع الهائلة الكبيرة لكافة انواع الانتاج ، وسائل المواصلات في البر والبحر والجو ، أسلحة الحرب سواء في ذلك الطائرات المحلقة فوق الضباب أو الغواصة المتسترة تحت أطباق الموج ـ تستحيل كلها قطعا من الحديد يعلوها الصدأ لا تبعث منها حركة ٠٠ أو حياة ٠

ويقارن صاحب الكتاب امكانيات ما نملكه من قوة هائلة بالنسبة لغيرنا من الدول فيقول :

وبودي لو وقفت قليلا عند البترول ، فلعل وجوده كحقيقة مادية تقررها الاحصائيات والارقام يصلح ليكون نموذجا للمناقشة في أهمية مصادر القوة في بلادنا ٠٠ ولقد قرأت أخيرا رسالة نشرتها وطبعتها جامعة شيكاغو عن ظروف البترول ، وبودي لو كان لكل فرد من افراد شعوبنا أن يقرأها ويتدبر معانيها ويسرح بفكره في المعنى الكبير الكامن وراء ارقامها واحصائياتها ٠

تقرر هذه الرسالة مثلا ان العمل لاستخراج بترول البلاد العربية لا يكلف كثيرا من المال ٠

« لقد صرفت شركات البترول ٦٠ مليونا من الدولارات في كولومبيا ابتداء من سنة ١٩١٦ ولم تعثر على قطرة زيت الا في سنة ١٩٣٦ ٠٠٠

وصرفت هذه الشركات ٤٤ مليونا من الدولارات في فنزويلا ولم تحصل على قطرة من الزيت الا بعد مرور ١٠ سنوات ٠٠٠

وصرفت هذه الشركات ٣٩ مليونا من الدولارات في جزر الهند الهولندية وأخيرا عثرت على الزيت ٠ » ٠٠٠

وكانت النتيجة الاخيرة التي قررتها هذه الرسالة في هذا الموضوع :ـ

« ان رأس المال المطلوب لاستخراج برميل من الزيت في امريكا هو ٧٨ سنتا ٠

وان رأس المال المطلوب لاستخراج برميل من الزيت في امريكا الجنوبية هو ٤٣ سنتا ٠

وان رأس المال المطلوب لاستخراج برميل من الزيت في البلاد العربية هو ١٠ سنتات » ٠

ان عاصمة انتاج البترول في العالم قد انتقلت من الولايات المتحدة التي استنزفت آبارها وارتفع سعر الارض فيها وزادت اجور الايدي العاملة لأبنائها ، الى المنطقة العربية التي ما زالت آبارها بكرا ، والتي ما زالت اراضيها الشاسعة بلا ثمن ، والتي ما زالت يدها العاملة تقبل مادون الكفاف ٠

ولقد ثبت أن النصف الاحتياطي المحقق من البترول في العالم يرقد تحت أرض المنطقة العربية ، والنصف الباقي موزع بين الولايات المتحدة وروسيا ومنطقة الكاريبي وغيرها من بلاد العالم وثبت ايضا ان متوسط انتاج البئر الواحدة في اليوم من الزيت هو :ـ

١١ برميلا في الولايات المتحدة ٠

٢٣٠ برميلا في فنزويلا ٠

٤٠٠ برميلا في المنطقة العربية ٠

هل اوضحت مدى اهمية هذا العنصر من عناصر القوة ؟ ارجو ان اكون قد وفقت ٠٠

واذن فنحن اقوياء ٠٠ اقوياء ليس في علو صوتنا حين نولول ٠٠ ولا حين نصرخ ٠٠ ولا حين نستغيث ٠٠ انما اقوياء حين نهدأ ٠٠ او حين نحسب بالارقام مدى قدرتنا على العمل ٠٠ وفهمنا الحقيقي لقوة الرابطة بيننا ٠٠ هذه الرابطة التي تجعل من ارضنا منطقة واحدة لايمكن عزل جزء منها عن كلها ٠٠٠ ولا يمكن حماية مكان منها بوصفه جزيرة لاتربطها بغيرها رابطة ٠٠)(٥)

اذن نحن من هنا كشفنا مدى اهمية مطامع الاستعمار للدول الضعيفة تجاه النفط والتي تتحكم فيها وخصوصا في الجنوب العربي ٠٠ وبذلك ظهر الاستعمار البريطاني على حقيقته المتناقضة فهو يفرض السيادة على مالاحق بالسيادة عليه (ينهب الخيرات ويمتص الثروات ومن اهمها البترول) ومعه القوى الاستعمارية العالمية وبيده الاسلحة الحديثة الفتاكة ٠٠ اذن فنحن نريد ونحتاج لنهضة وطنية تساعد وتنبه القضايا العربية في هذه المرحلة الحاسمة لحل مشاكلنا فلنترك الاستاذ العقاد يتكلم عن هذا الموضوع فيقول في كتابه :ـ

(هذه النهضات الوطنية كانت ولا ريب اهم العوامل التي ضعضعت

قوى الاستعمار فيما مضى ولاتزال تجهز عليه في دور النزع والاحتضار ٠٠ فلولا هذه النهضات الوطنية لما كانت سائر العوامل العالمية كافية لاخراج المستعمرين من مستعمراتهم في هذه الفترة الوجيزة بالقياس الى اعمال الشعوب ٠٠ ومهما يكن من كثرة المصاعب حول المستعمرات فالحاكم المطمئن الى داخل مستعمرته خليق ان يصبر على المصاعب الخارجية وان يطاولها فترة واخرى موكلا الى مشيئته بعد ذلك في البقاء او الخروج ٠٠)(٦)

تطور القضية العمانية

تأسست دولة عمان في مطلع القرن الثامن الميلادي وقد حافظت على وضعها اكثر من ١٠٠٠ عام وكان لها الحقوق السيادية ولها الجيوش البرية واساطيلها البحرية حتى اصبح مجموعها في اواسط القرن التاسع عشر الميلادى اكثر من ٣٠٠ سفينة حربية تامة الاعداد والتجهيز ، ولقد تعرضت السواحل العمانية للغزوات البرتغالية عام ١٥٠٨ ـ ١٦٦٠م واستمرت هذه الحرب الضروس مدة ثمانين سنة تمكن الشعب العماني بالنهاية من صدها وذلك بقيادة الامام اليعربي ، كما تمكن الاسطول العماني القوي في مطلع القرن الثامن عشر ١٨٠٦م من القضاء على أى نفوذ اجنبي(٧) ٠

ويذكر المؤرخ جان جاك بيربي الفرنسي الجنسية المشهور بسياسة الشرق الاوسط :

(ان البريطانيين نجحوا في سنة ١٧٩٧م من عقد معاهدة صداقة مع سلطان مسقط حولوها سنة ١٧٩٨م الى معاهدة موجهة ضد فرنسة بصورة خاصة ٠ وفي عام ١٨٠٠م سمح لاول مرة ممثل بريطاني سياسى حتى قبل معركة واترلو كأنه كان يسبق الحوادث ويعلم بهزيمة نابليون ليبقى فيما بعد الحليف الدائم للامبراطورية البريطانية)(٨)

(وفي عام ١٨٣٩ اخذت بريطانية تغرى سلاطين المنطقة المجاورة لعدن بالمال والهدايا حتى تسلبهم توقيعاتهم او بصماتهم على سندات (التكريم والترحيب) وهي في الحقيقة تعهدات ومبيعات لكل ما يملكون لحكومة الملكة فكتوريا) (٩)

وبعد موت الممثل البريطاني السياسى قسمت السلطنة عام ١٨٥٦ الى قسمين : قسم عربي في اسيا وقسم افريقي في افريقيا وظلت بريطانية الصديقة الحامية في كلا القسمين ٠

(ولقد عمدت بريطانية الى السيطرة على هذه المنطقة وذلك بتطويقها بسلسلة من المعاهدات والاتفاقيات ولاسيما المعاهدة التي عقدتها مع سلطان مسقط والتي ادت الى الثورة عام ١٨٠٨ ٠ الا ان بريطانية استطاعت

بأساليبها البربرية اخماد تلك الثورة وان تسيطر سيطرة تامة على المنطقة بأسرها) (١٠)

(وفي سنة ١٨٧٢ تقدمت القوات التركية في الجنوب اليمني لتلبية استغاثة بعض السلاطين وأخذت بريطانية ترسل قوات من الهند لتهديد السلاطين الثائرين واستمر الصراع حتى سنة ١٨٧٨ والذي استغرق (٦) سنوات . وعلى اثرها تم شراء الاراضى المشرفة على عدن وتأمينها .

وفي سنة ١٨٨٢ تم توقيع عقد بيع هذه المناطق وذلك لاغراض وتوسيع الرقعة الاستعمارية) (١١)

ثم بعد ذلك جددت الثورة عام ١٩١٣ ـ ١٩١٦ م ودامت ثلاثة اعوام وذلك لازدياد تدخل الانكليز بشوءون عدن والعمل على تجزئتها حيث كانت قوات الامام مسيطرة تمام السيطرة على الموقف ، كما استولى الامام عام ١٩١٦م على (الترستاف) المجاورة لساحل خليج عمان وبذلك ضم لنفسه قاعدة توطد سلطنته على مرتفعات الجبل وبعدها جرت عدة مفاوضات وذلك في الفترة الواقعة بين ١٩١٦ ـ ١٩٢٠م ولم تصب اى نجاح وبعد ذلك عقدت معاهدة السيب التى تعد نصرا للشعب ولقضيته العمانية (١٢)

معاهدة السيب واثرها للثورة العمانية

عقدت معاهدة السيب عام ١٩٢٠م وسميت هذه المعاهدة بمعاهدة السيب نسبة الى مدينة السيب ، وقد مثل هذه الاتفاقية من الجانب البريطانى والذى لعب دور الوساطة المستر وينفنيت وكانت هذه المعاهدة معقودة بين حكومة سلطان مسقط السلطان تيمور بن فيصل ، والشيخ عيسى بن صالح بن علي بالنيابة عن امامة عمان واصدرت عدة بنود بين عمان ومسقط وذلك بصورة تحريرية منها :ـ

« بسم الله الرحمن الرحيم » هذا صلح وعهد اتفق عليه بين حكومة السلطان وبين امامة عمان وتنص على اربعة شروط هي :ـ

١ ـ لا تتقاضى حكومة مسقط اكثر من ٥٠٪ من أي شخص مهماكان حبه يأتي من عمان الى مسقط او مطرح او صور او بقية مدن الساحل .

٢ ـ يتمتع جميع اهل عمان بالامن والحرية في مدن الساحل .

٣ ـ ترفع جميع القيود المفروضة على كل من يدخل الى مسقط ومطرح وغيرها من المدن الساحلية .

٤ ـ تمتنع حكومة مسقط عن منح الامان لاي مجرم فار من عدالة اهل عمان ، وتتعهد بارجاعه اذا طلب اليها اهل عمان بذلك ولا تتدخل مطلقا في شؤونهم الداخلية .

أما الشروط التي نصت عليها المعاهدة بالنسبة الى حكومة مسقط فهي التالية :ـ

١ ـ يتعهد جميع الشيوخ والقبائل بمسالمة السلطان ، فلا يهاجمون مدن الساحل ولا يتدخلون في شؤون حكومته ٠

٢ ـ يتمتع جميع الذين يسافرون الى عمان في اعمال مشروعة او قضايا تجارية بالحرية ولا يفرض عليهم اهل عمان أي قيود ، ويتمتعون بالامن والطمأنينة ٠

٣ ـ يتعهد اهل عمان بطرد كل مسيء لحكومة مسقط ، وعدم منحه الامان واخراج كل مجرم يلجأ اليهم ٠

٤ ـ يسمع الى شكاوى التجار وغيرهم ضد اهل عمان وتقرر على اساس الشريعة الاسلامية ٠ (١٣)

ويقول الاستاذ خيري حماد (٠٠٠ فقد عقدت معاهدة السيب لوضع نهاية للحرب التي وضعت آنذاك بين شعب عمان وبين حاكم مسقط ٠٠٠ ولعب الدور الرئيسي لهذه المعاهدة لحل الوساطة قنصل بريطانية المستر وينقنيت ٠٠ ولا ريب ان نص هذه المعاهدة وبنودها تنفى نفيا قاطعا كل ما تدعيه بريطانيا من سيادة لسلطان مسقط على عمان ٠٠ كما تؤيد وجهة النظر العربية تمام التأييد ٠٠ اذ لايعقل ان يعقد السلطان صلحا او معاهدة مع رعاياه لو كان أهل عمان كذلك ٠٠ كما يدعي منطق الاستعمار البريطاني ٠٠)

وهكذا شاء القدر ان تقع الخيانة من قبل سلطان مسقط السلطان سعيد بن تيمور بن فيصل ليشن الحرب من جديد لغرض الانتقام من الشعب العماني فلقد قام بنقض هذه المعاهدة (معاهدة السيب) ما لم يقبلها الضمير ويصافحها كل شخص متعطش لقضايا الحرية العادلة ٠٠ ولكن ذلك كله هو الخيانة ٠٠ الخيانة التي تلعب دورها في تشتيت شمل وقوة المجاهدين لغرض التنازل عند رغبات المستعمر الذى يتحكم بخيراتنا رغم ما نملكه من قوة ٠٠ كل هذا جعل هذا السلطان يرتفع الى مستوى الاحداث بمرتبة عالية مولدة من اهداف الاستعمار ٠٠ ونرى الاستاذ خيري حماد يتكلم في كتابه الذي عربه (مطارحات ميكافلي) في الفصل الثاني فيقول :

(٠٠ اعتقد ان من الحق ان يقال ، بأن ارتقاء الانسان من رتبة خفيفة الى رتبة عالية لايقع الانادرا ، وعن طريق القوة او الخداع ٠٠ مع ان هناك آخرين بالطبع تصل اليهم المراتب طائعة عن طريق المنح او الوراثة ٠٠ ولا اعتقد ايضا ان القوة وحدها كافية ، بينما هناك شواهد عديدة تقيم الدليل على ان الحيلة كافية وحدها) (١٤)

كما يقارن الاستاذ حماد بكتابه حول مدى الخطأ في آراء الناس تجاه

قضايا الساعة فيقول :

(٠٠ يلاحظ كل من يشهد ما يتخذه الناس من قرارات ، كثيرة ما يقعون فيه من خطأ في آرائهم ، وتقع احيانا احداث يخطىء فيها بسهولة اولئك الذين لم يكن لهم كبير تجربة في الشؤون العامة ٠٠)(١٥)

ولو رجعنا قليلا الى الوراء لتدقيق بوادر الخرق لهذه المعاهدة المشهورة هو عملية تأكد سلطان مسقط من استكمال قواته المرتزقة لغرض الهجوم على عمان وقد تم له ذلك واصطدم مع القوات العمانية المجاهدة بقيادة غالب بن علي وبذلك بدأت الحرب العمانية الحقيقية عام ١٩٥٥ وعلى الاثر أي في ١٦-٩-١٩٦٥٥ استولى البريطانيون على منطقة (البريمى) ثم على عاصمتها (نزوى) وذلك بمعاونة القوات المرتزقة المكونة من قوات السلطان وبعض الايرانيين القاطنين هناك وذلك برغم الشجاعة الفائقة التي سجلتها الكتائب العمانية وصمودها امام العدو مما اضطر العدو الى استعمال الطائرات فدمرت القرى الامنة التي جاوزت العشرين واحدثت النيران دمارا بعمان وهكذا اخذت الحرب تستمر بسبب الفتنة التي شنها السلطان سعيد بن تيمور وبدأت الحرب الحقيقية كما قلت بعام ١٩٥٥ حيث انتخب المجاهدون قبل ذلك بعام على وجه التقريب الامام غالب بن علي قائدا ٠ ودارت الحرب وتوسعت العمليات العسكرية بدون رحمة وفي ١٨-٧-١٩٥٧ تبادلت القوات البريطانية النيران مع المجاهدين الذين يمثلون رجال القبائل ويقدرون بحوالي ١٥٠٠ مقاتل وعندما قامت الطائرات الانكليزية بتدمير كافة المرافق الحيوية والمناطق وممرات الطرق اضافة الى الاعمال الوحشية التى ارتكبوها ضد المجاهدين ٠٠وعند هذا الحد وقبل الخرق بالمعاهدة شعرت الدول العربية بوجود خطر يهدد كيانها ومستقبلها ٠٠ وقد طلبت الدول العربية منذ عام ١٩٥٤دمج القضية العمانية وجعلها من قضاياها الكبيرة التي تحتاج العون والمساعدة وعندها التحقت عمان بالجامعة العربية عام ١٩٥٤ لكي تمثل هذه القضية على وجهها الاكمل ولابد لي ان انفرد بهذه وموضوع انضمامها لجامعة الدول العربية وما تلتها من أحداث وتطورات تخص شؤون عمان ٠

القضية العمانية وجامعة الدول العربية

تشكلت الجامعة العربية بعد الحرب العالمية الثانية في عام ١٩٤٥ فكانت أول لجنة دولية تستجيب لمنظمة الامم المتحدة التي شجعت على قيام منظمات اقليمية وكانت هذه المنظمة تقدم كل ما في وسعها لنصرة القضايا العربية وقد قدمت اعمالا مجيدة فى حقول ومجالات ضخمة وخصوصا المجالات السياسية ٠

ولنترك هنا بهذا المجال مقابلة الكاتب الصحفي المشهور والخبير بشؤون الشرق الاوسط الاستاذ جان وولف للسيد الامين العام عبد الخالق

حسونة حين سأله عن دور الجامعة في المجالات العامة فقال (أي أجاب حسونة):

(٠٠ ليس المجال السياسي الحقل الوحيد الذي زاولت فيه الجامعة نشاطها ٠٠٠ لقد اهتمت اهتماما زائدا في مختلف انحاء العالم العربي بالنشاط الاقتصادي والثقافي والاجتماعي ٠٠٠ ومن الانصاف أن نقول أن الجامعة العربية مهدت الطريق أمام الوحدة العربية)(١٦) ٠

حاولت امامة عمان المجاهدة أن تلتحق بجامعة الدول العربية وذلك قبل انتخاب الامام غالب بن علي اماما وقائدا للثورة العمانية وقد التحقت في ١١ـ١ـ١٩٥٤ وبعد التحاقها درستها الامانة العامة واطلقت محتويات القضية بكل تفاصيلها واصدرت قرارها بالموافقة عليها في ٤ـ٩ـ١٩٥٤ كما وافق المجلس في ٢٢ـ٩ـ١٩٥٦ على توصية لجنة الشؤون السياسية وهي :ـ

١ ـ أن تواصل الدول الاعضاء مساعيها حتى تسترد امامة عمان حقها وحريتها ٠

٢ ـ أن توجه حكومات الدول الاعضاء مندوبيها لدى الامم المتحدة الى الاشارة لهذه القضية وما تعانيه امامة عمان في الوقت الحاضر امام الجمعية العامة في دورتها المقبلة ٠

٣ ـ أن تواصل الامانة العامة مساعيها لتنفيذ قرار مجلس الجامعة في جلسته المنعقدة يوم ٢٢ـ٤ـ١٩٥٦ ٠

وفي جلسة مجلس الجامعة الذي عقد في ١٢ـ٩ـ١٩٥٧ وافق على توصية لجنة الشؤون السياسية التي تضمنت عقد جلسة في جامعة الدول العربية للنظر في قضية عمان ووقف تدخل القوات العسكرية البريطانية ضد امامة عمان بوصفه يهدد الامن والسلام في الشرق الاوسط ومخالفا لاحكام القانون الدولي وميثاق الامم المتحدة ٠

ثم تطورت القضية في عدة جلسات متتالية لا مجال لتفصيلها هنا الى ان عقدت جلسة نيسان ١٩٥٨ واتخذ القرار في هذه الجلسة بمؤازرة الشعب العماني في تقرير مصيره ومساعدته بشتى الوسائل والدعوة الى ممارسة سيادته ووقف الهجرات والعدوان البريطاني على أراضيه كما يدعو المناصرة في تأييد كفاحه المشروع وتوضيحها للدول المحبة للسلام والامم المتحدة بمؤازرة الدول الاعضاء(١٧) ٠

(وبعد ذلك جرى أول اتصال بين بريطانية وبين الامام غالب بن علي عن طريق مندوب (سري) في شهر ايلول عام ١٩٥٩ ، جاء ليعرض على الامام رغبة بريطانيا في الدخول معه ، وأصرت بريطانيا في البداية على وجوب وقف اطلاق النار فورا ، قبل البدء بالمفاوضات ، ولكن الامام رفض هذا الطلب ٠

واستؤنفت الاتصالات في حزيران ١٩٦٠ عن طريق بعثة وسيطة ، ووافقت بريطانيا على التراجع عن مبدئها الاول بوقف اطلاق النار ، ولكنها أصرت على معرفة ما يريده الامام فورا ، بأن ما يطلبه هو عودة الاحوال الى

ما كانت عليه عام ١٩٥٤ والاعتراف باستقلال عمان وجلاء القوات البريطانية عن أراضيها •

وطلبت بريطانيا في تموز ١٩٦٠ الاجتماع الى مندوب الامام في جنيف لكي يواصل مع مبعوثها التبادل في وجهات النظر والاتفاق على أسس المفاوضات المقبلة • واسفرت هذه الاتصالات عن عقد اجتماع في بيروت في ١٧ــ٧ــ١٩٦٠ شهده المستر نورمان نائب المعتمد السياسي البريطاني في البحرين ، وأمير الجبل الاخضر العماني • ووضع الوفد العماني في هذا الاجتماع الشروط التالية كأساس للاجتماع :ــ

١ ــ اعادة الوضع الى ما كان عليه والاعتراف بحق الشعب العماني في استقلاله •

٢ ــ جلاء القوات البريطانية •

٣ ــ اطلاق سراح المسجونين السياسيين •

٤ ــ دفع التعويضات على ما لحق بشعب عمان من خسائر واضرار من جراء الحرب • وانفض الاجتماع ليرجع كل فريق الى مرجعه ، وعاد الجانب البريطاني واتصل بالامام في كانون الاول عام ١٩٦٠م مبديا استعداد بريطانية للبدء بالمفاوضات على أساس شرطين :ــ

١ ــ وقف اطلاق النار •

٢ ــ سحب شكوى عمان من جدول أعمال الامم المتحدة •

وكان رد الامام أن سحب القوات البريطانية يؤدي بصورة اوتوماتيكية الى وقف اطلاق النار ، وان الرجوع بالقضية الى الامم المتحدة ، اسلوب عادل وعادي وسلمي ، وليس ثمة من معنى لسحب الشكوى من منظمة انشئت لدعم الحلول السلمية للمنازعات الدولية •

وعقد أخيرا اجتماع في ٤ــ١ــ١٩٦١ في مقر الوفد العماني في بيروت وشهده المستر جون دي سيلفا رئيس القسم السياسي في دائرة المعتمد البريطاني في عمان فعاد الوفد العماني وأكد موقفه وانفض الاجتماع دون نتيجة للتشاور •

وبعد اتصالات أخرى عقد اجتماع ثان في شتورة بلبنان في ٢٤ــ٢ــ٩٦١ فلم يسفر عن نتيجة ، وانتهى الى الفشل • وكان آخر اجتماع عقد بين الفريقين بسبب اصرار بريطانيا على عدم التراجع عن موقفها وحبها السيطرة على عمان(١٨) وبالتالي اجتمع مجلس الجامعة في مدينة الرياض في ٣١ــ٣ــ٩٦٢ وتلقت امامة عمان الدعوة الى الاشتراك في الاجتماع وقد مثلها وفد برئاسة الامام غالب بن علي الذي ألقى كلمة شرح فيها القضية ونوه بدور الجامعة العربية في مساندة الثورة العمانية واتخذت قرارات هامة منها :ــ

١ ــ تأييد الدول الاعضاء في مساندة الثورة العمانية بكافة الوسائل •

٢ ــ تقديم المساعدات المالية والمادية •

٣ - عرض القضية على لجنة تنفيذ اعلان منح الاستقلال للبلدان والشعوب غير المستقلة ٠

القضية العمانية وهيئـــة الامم المتحـدة

قدمت الدول العربية مذكرة مشتركة لاحدى عشر دولة عربيـــة في ١٣-٨-١٩٥٧م الى مجلس الامن وذلك على اثر اشتداد العمليات العسكرية على عمان وطلبت الدول العربية من مجلس الامن أن يدرس القضية العمانية والعدوان البريطاني ضد استقلاله وسيادته ووحدة اراضيه وناقش المجلس القضية في جلستين متتاليتين وبعد ذلك ادرجت القضية في جدول الاعمال ٠

ثم بعد ذلك عادت الدول العربية لاثارة القضية من جديد بمذكرة بعثتها الى مجلس الامن في ٢١-١٠-١٩٥٧م مؤكدة ان الوضع العماني قد يؤدي الى احتكاك دولي ، ويعرض الامن والسلام الدوليين الى الخطر ٠

فتأجلت القضية الى عام ١٩٦٠م بعد فشل المفاوضات التي دارت بين الوفدين العماني والبريطاني وذلك في الفترتين الواقعتين بين ١٢-٩-١٩٥٧م - ١-٦-١٩٦٠م ، ثم بعد ذلك أدرجت في جدول اعمال الدورة الخامسة عشر للامم المتحدة التي عقدت في ايلول ١٩٦٠م(١٩) ٠

ثم بعد ذلك وصلت القضية العمانية الى الجمعية العامة للامم المتحدة في عام ١٩٦١ دون الحاجة الى طلب جديد من قبل الدول العربية لغرض ادراجها وذلك لتكفيل الجمعية لبحثها الى الدورة المقبلة(٢٠) والبحث بها كما اوصت اللجنة العامة في جلستها ١٣٥ التـــي عقدتهـا في ٢١-٩-١٩٦١م الجمعيـة لادراجها فاقرت هذه التوصيةفي جلستها ١٠١٤ التي عقدتها في٢٥-٩-١٩٦١م واحالتها الى اللجنة السياسية الخاصة لمناقشتها وتقديم تقرير عنها ٠

وقد نوقشت هذه القضية في ٨ جلسات متعاقبة بين ٢٧-١١-١٩٦١م - ٤-١٢-١٩٦١م وكان الوفد العماني الذي شهد هذه الجلسات مكون من :-

الامير طالب بن علي شقيق غالب بن علي الهاني ، والشيخ سليمان بن حمير النبهاني ، والسيد محمد الامين عبدالله ، كما شهد معظمها الاستاذ عبدالخالق حسونة الامين العام لجامعة الدول العربية والاستاذ كامل عبـد الرحيم مدير مكاتب الاعلام العربية في الولايات المتحدة ، وعدد كبير مـن المشتغلين بالقضايا العربية ٠ وقد تمكن هذا الوفد من حضور هذه الجلسات عن طريق مندوبي الدول العربية الى رئيس اللجنة الخاصة حيث قدموا كتابا له يطلبون فيه السماح لوفد عمان لالقاء كلمتـه وذلك في ٢٣-١١-١٩٦١م فعرضها الرئيس في مستهل الجلسة الاولى على الاعضاء للموافقة بينما هب مندوب بريطانيا متنكرا قبول الطلب وأيده في ذلك مندوب استراليا فقـال : ان الاستماع الى الوفد ، يشكل سابقة تمكن العناصر الانفصالية في أي بلـد من بلاد العالم ، من طلب الاستماع الى وجهات نظرها ضد الحكومات الشرعية

في مناقشات الامم المتحدة ٠

ومن هنا بدأت المناقشات الحادة والكلمات الخطابية المهاجمة بين ممثلي الدول العربية وبين ممثل بريطانية ومعاونيه ٠

وأول من اندفع في هذا المجال الدكتور عدنان الباجهجي ممثل العراق الدائم حيث رد على المندوب البريطاني حول معارضته للقضية واثبت بان هذه القضية تعتبر قضية عربية بحتة وذلك باستطراقه موضوع الانتخابات الالمانية في عام ١٩٥١ وقال ان وجهة نظر هؤلاء الزعماء الذين يمثلون النضال في سبيل الاستقلال الذي يشنه شعب عمان عام ١٩٥٥ يسهل على اللجنة أعمالها ٠

ثم هب بعد ذلك الاستاذ محمود رياض مندوب الجمهورية العربية المتحدة ووزير خارجيتها فهاجم الوفد الاسترالي وقال : ان مجرد قبول الامم المتحدة بحث القضية دليل عملي على وجود القضية ، وليس من الحق ولا من العدل ، أن يظن على طرف من طرفي القضية بأبداء وجود نظره ، كما طلب بالحاح واصرار من حضور الوفد في هذه الجلسة والقاء كلمته ٠

وبعد ذلك لما رات ممثلة الولايات المتحدة الاميركية من اندفاع عربي للقضية العمانية وتضامن لمصلحة القضايا القومية اندفعت لمساندة زميلتها بريطانية بزعمها ان بريطانيا لها علاقة تعاهدية مع سلطان مسقط وعمان منذ قرن وربع القرن ولهذا فهي تعارض في الاستماع الى أي ممثل لجماعة منشقة على سيادة السلطان ٠

وعند ذلك ثار الاستاذ احمد الشقيرى على الولايات المتحدة الاميركية وقال: ليس ان القضية المعروضةعلى البحث هي قضية انفصال أو انشقاق٠٠ بل هي قضية عمان ، ومن العدل ان يسمح لوفد عماني بأن يقول رأيه ٠٠ وليس ثمة في ميثاق الامم المتحدة أو انظمتها الاجرائية ما يحول دون هذا الاستماع ٠

ثم تكلم مندوب كوبا في هذه الجلسة فقال : ان مجرد قرار الامم المتحدة ادراج القضية في جدول الاعمال ، يجعل من الطبيعي ان تحاول الوصول الى المعلومات المباشرة عن أي طريق لتصل الى قرار سليم ٠

وتحدث مندوب آيسلنده فقال : ان ليس ثمة من يجادل في أن مبدأ حرية الكلام يفرض على اللجنة واجب الاستماع الى كل من يطلب الكلام ٠

واعلن مندوب كمبوديا تأييده للاستماع الى الوفد العماني رغبة في معرفة كل ما يتعلق بالمندوب ، وأيده على ذلك مندوبا سيلان والسنغال ٠

وهكذا بعد هذه المناقشات الحادة اعلن الرئيس طرح الاقتراح على الاقتراع ففاز ب (٤٠) صوتا مقابل (٢٦) صوتا ، وامتناع (٢٣) صوتا ٠

والدول التي ايدت الاستماع الى الوفد العماني هي : الدول العربية

الاحدى عشر والدول الاشتراكية العشر والسنغال وتوغو والفولتا العليا وجمهورية افريقيا الوسطى والكونغو الفرنسي وداهومي وموريتانيا من كتلة برازافيل ويوغسلافيا والافغان وكمبوديا وسيلان وكوبا وقبرص وغينيا واندنيسيا ومالي ونيبال عن كتلة عدم الانحياز والفلبين والنمسا واتحاد الملايو وايران ٠

أما الدول المعارضة فهي : بريطانيا والولايات المتحدة الاميركية وفرنسا واسرائيل وجنوب افريقيا وكندا واستراليا ونيوزلنده من دول الكومونولث ٠ والنرويج والبرتغال واسبانيا وبلجيكا والدانمارك وآيسلندة وايرلندة وايطاليا ولكمسبورج وهولندة من دول اوربا الغربية وبناما وبراغواي والارجنتين وتشيلي وكولومبيا وجمهورية الدومنيكان وسلفادور ونيكاراغو من دول امريكا اللاتينية وامتنعت عن التصويت الدول : النيجر وسيراليون وغانا وساحل العاج وليبريا من الدول الافريقية والباكستان وسيام وتركيا وبورما والصين والهند واليابان من الدول الاسيوية وبيرو وفنزويلا وبوليفيا والبرازيل واكوادور وغواتيمالا والمكسيك من الدول اللاتينية والسويد وفنلندة واليونان من الدول الاوربية ٠

وهكذا هزم الاستعمار أول هزيمة في اللجنة الخاصة اذ أقرت الاستماع الى الوفد العماني(٢١) ٠

ولم يترك المندوبون العرب وسيلة الا واتبعوها ، ولا وثيقة الا واستشهدوا بها للتدليل على حق الشعب العماني في تقرير مصيره وحريته واستقلاله وكانوا يستغلون مواهبهم للتعبير عن ارادة شعب يريد له الحرية ، وقد القيت عدة كلمات من قبل رؤساء الوفود العربية في هذه الجلسة وما تلتها من جلسات والتي كانت ٨ جلسات ٠ وقد بدأها الاستاذ الشقيري حيث القى كلمته في الجلسة الاولى المصادفة ٢٧-١١-١٩٦١ بين فيها أن الغاية الاساسية وراء المخطط البريطاني هي السيطرة على موارد النفط ٠

ثم بعد ذلك تلاه الاستاذ الدكتور الباجه‌جي في الجلسة الثانية المنعقدة في ٢٨-١١-١٩٦١ وحدد أن المشكلة استعمارية وتتعلق بسياسة بريطانيا في الخليج ومطامعها في الزيت ، ثم تلاه الاستاذ حبيب مندوب تونس بنفس الجلسة فقال : ظلت دولة عمان قائمة قرونا طويلة ، وقد ايدت معاهدة السيب وجودها ، وقد تقض سلطان مسقط هذه المعاهدة بمنحه شركة انكليزية امتيازا للتنقيب عن الزيت في أراض ليست له ، ثم مزقت بريطانيا وعميلها السلطان هذه المعاهدة بالعدوان المسلح على عمان منذ عام ١٩٥٥ ٠

ثم تحدث بعد ذلك السيد محمد الامين عبدالله عضو الوفد العماني في نفس الجلسة المنعقدة بتاريخ ٢٨-١١-١٩٦١ فحدد النقاط التالية وموقف الحركة العمانية منها :-

(١) تشعر عمان بالاعتزاز لان الامم المتحدة سمحت لها باسماع صوتها

في الندوة الدولية ٠

(٢) يتطلب بقاء الامم المتحدة على قيد الحياة كقوة موجهة للجنس البشري ، تصفية الاستعمار والعدوان في عمان وفي كل مكان ٠

(٣) تؤلف تصرفات بريطانيا في عمان وهي دولة مؤسسة للامم المتحدة ، تهديدا لسمعة المنظمة وخرقا لميثاقها وللقيم الاخلاقية والحقوق الانسانية ٠

(٤) لم تنجح بريطانية في اذلال الشعب العماني واخضاعه لمشاريعها وأهدافها ، ولا تستطيع بريطانية أن تنكر على عمان دولتها المستقلة التي يختلف نظام حكمها عن نظام مسقط ولها رايتها الخاصة ٠

(٥) يقيم الاستعمار أهدافه على أساس استغلال الشعوب ومواردها دون اكتراث بالقانون والعدالة ، وقد شنت بريطانية حربا علينا لاننا رفضنا الاذعان لما يريد فرضه علينا ، ونحن عازمون على المضي في القتال حتى نحقق استقلالنا ، ونستعيد حقوقنا وكلنا ثقة بالامم المتحدة وبالدول المستقلة في آسيا وافريقيا ٠

(٦) اننا نطلب جلاء القوات البريطانية عن عمان وانفاذ معاهدة السيب والاعتراف بعمان دولة مستقلة ذات سيادة وقادرة على تبوء مركزها بين دول العالم المستقلة ٠ وبعد ذلك تكلم الكيخيا مندوب ليبيا في نفس الجلسة فقال في بيانه : بأن لا صحة لما تدعيه بريطانية من أن امام عمان قد اقر امتياز الزيت الذي منحه سلطان مسقط لشركاتها وبين بأن العمليات العسكرية دائرة هناك وهذا ما يتنافى مع شرعية حقوق الانسان في حق تقرير المصير ٠

ثم تلاه السيد زبادة مندوب اليمن بنفس الجلسة فبين : بأن الشعب العماني يتوق بشدة الى الاستقلال وان ثورة عمان دليل على عدم خضوع الشعب العماني لارادة الاستعمار المتمثلة في العدوان ٠

ثم بعد ذلك تكلم في جلسة ٢٩ـ١١ـ١٩٦١ السيد جورج طعمة مندوب سوريا فبين هدف بريطانيا من عدوانها الى عدة امور منها حماية الزيت بأي ثمن وتثبيت دعائم نفوذها في المنطقة ومنع عمان من الانضمام الى الجامعة العربية ، والحد من انتشار الفكرة القومية العربية ، وتثبيت موقعها الاستراتيجي في المنطقة ٠

وبعد ذلك تلاه الدكتور محمد الفرا مندوب الاردن في نفس الجلسة وقال : بأن معاهدة السيب تعتبر معاهدة قانونية دولية عقدت بين دولتين مستقلتين وان بريطانيا قد تدخلت عسكريا في عمان بعد اكتشافها الزيت لتحصل امتياز استخراج النفط ٠

وفي مساء جلسة اليوم حدد الاستاذ نديم دمشقيه مندوب لبنان موقفه فقال : لا يمكن للحجج البريطانية أن تقنع أحدا لان رائحة الزيت تفوح منها وان قضية عمان قضية استعمار عار تدعمه مصالح الزيت ٠

وبعد ذلك تكلم الاستاذ حسن صبري الخولي مندوب الجمهورية

العربية المتحدة في جلسة ٣٠-١١-١٩٦١م فقال : لا يبرر رفض الشعب العماني قبول السيطرة الاجنبية اما مباشرة او عن طريق عميلها السلطان ، وشعب عمان هو صاحب الحق في السيادة على مصيره ، وان بلاده فخورة بأن تقدم كل عون لشعب عمان ٠

وحدد السيد سليمان مندوب السودان في نفس جلسة ٣٠-١١-١٩٦١ فقال : ان قضية عمان مثال نموذجي للتدخل المبطن في شؤون الدول الصغيرة وذلك لغرض حماية مصالح الزيت ٠

ثم ختم السيد بن هيمه مندوب المغرب في جلسة ١-١٢-١٩٦١ بهذه الكلمة فبين : أن بريطانيا تحاول تبرير وجودها لحماية مصالحها النفطية في المنطقة(٢٢)

وبعد انقاء هذه الكلمات من قبل الوفود العربية تقدمت ١٦ دولة من الدول العربية والصديقة (١١ دولة عربية ، والافغان واندونيسيا ومالي ويوغسلافيا وغينيا) بمشروع قرار اللجنة A/SPC/L. - Z8 هذا نصه:

ان الجمعية العامة :

بعد أن ناقشت : قضية عمان ٠

واعرابا منها عن قلقها : من الوضع في عمان ٠

تستعيد ذكر قرارها رقم ١٥١٤ (١٥) المسمى « باعلان عن منح الاستقلال للبلاد والشعوب المستعمرة » ٠

اولا :ـ تعترف : لشعب عمان بحقه في تقرير مصيره واستقلاله ٠

ثانيا :ـ تدعو : الى جلاء القوات البريطانية عن عمان ٠

ثالثا :ـ تدعو : الفرقاء المعنيين الى تسوية الخلافات القائمة بينهم بطرق سلمية مستهدفين اعادة الاوضاع العادية الى عمان(٢٣) ٠

ثم بعد ذلك طرح الرئيس هذه الفقرات الثلاث فكانت النتائج كما يلي :ـ

١ ـ الفقرة الاولى (حق تقرير المصير) (٢٩) مقبولا ، مقابل (٢٠) ، وامتناع (٣٢) ، وغياب (٢٢) ٠

٢ ـ الفقرة الثانية (سحب القوات الاجنبية) (٣٦) مقبولا ، مقابل (٢٠) ، وامتناع (٣١) ، وغياب (١٦) ٠

٣ ـ الفقرة الثالثة (تسوية الخلافات) (٣٧) مقبولا ، مقابل (١٤) ، وامتناع (٢٦) ، وغياب (٢٦) ٠

طرح القرار كاملا وكانت نتيجتها (٣٨) مقبولا ، مقابل (٢١) ، (٢٩) ، وغياب (١٥) ٠

وكان يتطلب كل مشروع معروض للاقتراع في الجمعية العامة الى وصوله الى اغلبية الثلثين من المقترعين بكلمة نعم او لا ليأخذ صيغته النهائية الرسمية (٢٤)

ونحن نرى من هنا ان فشل هذه القضية في بدايتها ليس معناه اننا فقدنا كل ثقتنا ولكن نحتاج الى جهود اكثر من هذا وبهذا نكون قد حققنا بعض النجاح وخصوصا بعد تشكيل مجلس قيادة الثورة لدولة عمان في ٢٨ـ٨ـ١٩٦٣ م

القضية العمانية ومؤتمر الذروة العربي الاول

انعقد مؤتمر القمة العربي الاول وذلك على أثر توجيه نداء الرئيس جمال عبدالناصر في عيد النصر السابع ببورسعيد المصادف ٢٣ـ١٢ـ١٩٦٣ وقد وجهت الدعوة للملوك ورؤساء الدول العربية ، وقد انعقدت دوراته في مقر الجامعة بالقاهرة وذلك في الفترة الواقعة بين ١٣ـ١ـ١٩٦٤م ـ ١٦ـ١ـ١٩٦٤م وقد تدارك المجلس ودرس عدة قضايا وقد نالت القضية العمانية قسطا وافرا من هذا المؤتمر واصدروا بيانا خاصا بشأن قضية عمان والجنوب المحتل ما يأتي :

(يأمل الملوك والرؤساء العرب تأييد جميع الدول الحرة المؤمنة بالسلام القائم على العدل ••• كذلك يؤمنون بعدالة الكفاح العربي وواجب تأييده ضد الاستعمار في الجنوب اليمني المحتل وعمان ••• وبعدالة الكفاح الوطني) •

ومن هنا نرى ان الشعب العربي قد حقق انتصارات باهرة في هذا المؤتمر وذلك لحل المشاكل ونصرة الشعوب المغلوب على امرها ومدهما بالعون المادى والمالي ••• ومنذ تلك اللحظة اخذت تلتهب الثورات في كل مكان من الجنوب اليمنى المحتل وعمان (٢٥) •

القضية العمانية ومؤتمر الذروة العربي الثاني

انعقد مؤتمر القمة الثاني في دور اجتماعه الثاني بالاسكندرية وذلك في الفترة الواقعة بين ٥ـ٩ـ١٩٦٤ م ـ ١٠ـ٩ـ١٩٦٤ م وقد بحث عدة مشاكل منها ما نفذ ومنها ما سيتم تنفيذه حاليا ، وقد نالت ايضا القضية العمانية والتي شملت الثورة في اغلب الجنوب اليمني المحتل واكدوا عزمهم وتصميمهم على مناصرة الشعوب التي تحارب الاستعمار بكافة اشكاله والوانه •

(واكد المجلس الارادة العربية في مواجهة القوى المناوئة للعرب ••• وفي مقدمتها بريطانية لاستعمارها بعض المناطق العربية واستغلال ثرواتها وباعمال الابادة التي تمارسها في الجنوب المحتل متحدية ميثاق الامم المتحدة ومبادئها وحق الشعوب في تقرير مصيرها وقرارات الجمعية ولجنة تصفية الاستعمار •• وقرر المجلس مكافحة الاستعمار البريطاني في شبه جزيرة العرب ••• وتقديم المساعدات لحركة التحرير في الجنوب المحتل وعمان ••

كما عني المجلس بدعم العلاقات الاخوية العربية وبامارات الخليج العربي كفالة للحرية العربية التي لا تتجزأ وتحقيقا للمصالح المشتركة(٢٦)) ٠

وقد ظهر اهتمام المؤتمر موضوع مقاومة الاستعمار البريطاني في العالم العربي وبالتحديد في الجنوب المحتل ٠٠٠ واتفق المؤتمر على طريقة مساعدة وتمويل حركات المقاومة الوطنية العامة في المنطقة ضد الاستعمار البريطاني ٠

القضية العمانية ومؤتمر عدم الانحياز

انعقد مؤتمر دول عدم الانحياز المتكون من ٥٨ دولة غير منحازة وذلك في الفترة الواقعة بين ٥-١٠-١٩٦٤م - ١٠-١٠-١٩٦٤م وقد حضر المؤتمر الامين العام لمنظمة الوحدة الافريقية والامين العام لجامعة الدول العربية بصفتهما مراقبين ، وقد قام المؤتمر بتحليل الموقف الدولي رغبة في ان يسهم في حل المشاكل الكبرى التي تهم الانسانية بسبب ما لها من آثار على السلام والامن العالميين ٠ وقد ساد المؤتمر جو من الود والصراحة والاخوة باجراء مناقشات مفصلة وبتبادل وجهات النظر بشأن الوضع الراهن في العلاقات الدولية وبشأن الاتجاهات التي تسود العالم المعاصر وقد لاحظ المؤتمر بارتياح ان حركات التحرير الوطني تخوض كفاحها البطولي ضد الاستعمار الجديد ، وقد اتخذ المؤتمر اكبر قرارات حاسمة في حياة المؤتمرين اصدر احدى عشر قرارا متطرقا من كافة الجهات ، وعلى ان اتطرق على حدة بالنسبة للقضية العمانية والجنوب اليمني المحتل فاتخذ قرارا وهو :

(عمل مشترك من أجل تحرير البلاد التي لا تزال غير مستقلة للقضاء على الاستعمار والاستعمار الجديد والامبريالية) وقد تفرع هذا القرار الى سبعة نقاط هي :

١ - قرارات بشأن الكونغو ٠
٢ - تعهد بتصفية الاستعمار ٠
٣ - عقوبات مع البرتغال ٠
٤ - حقوق شعب افريقيا ٠
٥ - تأييد تحرير فلسطين ٠
٦ - مساعدة مجاهدي الجنوب ٠
٧ - قضايا امريكا اللاتينية ٠

(مساعدة مجاهدي الجنوب : يندد المؤتمر باستمرار حكومة المملكة المتحدة في رفضها لتنفيذ قرارات الامم المتحدة بشأن عدن والمحميات التي تنص على ممارسة شعب هذا الاقليم الحرية لحقه في تقرير المصير وعلى تصفية القاعدة العسكرية البريطانية في عدن ٠٠ وسحب القوات البريطانية من عدن ٠٠٠ كما يؤيد المؤتمر تأييدا كاملا كفاح الشعب في عدن والمحميات ٠٠٠

ويحث على التنفيذ الفوري لقرارات الامم المتحدة التي صدرت على أساس الرغبات التي عبر عنها شعب ذلك الاقليم ... وان الدول المشتركة في المؤتمر لتندد باستمرار الاستعمار البريطاني في القيام باعمال عسكرية ضد شعب عمان الذى يكافح من اجل الحصول على حريته ... ويوصي المؤتمر بتقديم المساعدات السياسية والمعنوية والمادية الضرورية لحركات التحرير في تلك الاقاليم في كفاحها ضد الحكم الاستعماري[٢٧]).

الخاتمـــة

لقد انتهيت من كتابة هذه القضية واعتقد اني قد وفقت في تصويرها وذلك حسب المستوى الذى يلائمني ، وكل ما أقدره هو من واجب كل من يعرف القضايا التي تهم بلاده العربية ... تلك هي القضية العمانية وغيرها من القضايا الثانوية الهامة في مستقبلنا الحاضر .. ولقد عانى الشـرق العربي من الاستعمار الغربي اعواما طويلة ولقد كانت الامة العربية تنادي بتصفية الاستعمار وعدم الارتباط به . ولقد وفد الاستعمار هذه المناطـق العربية متاجرا باسم الدين تارة ـ والدين براء منه ـ وباسم المدنية تارة أخرى والمدنية التى تراد منهاالنهضة والتقدم الانساني تنكره اشدالاستنكار بل وتضيق به وتثور عليه .

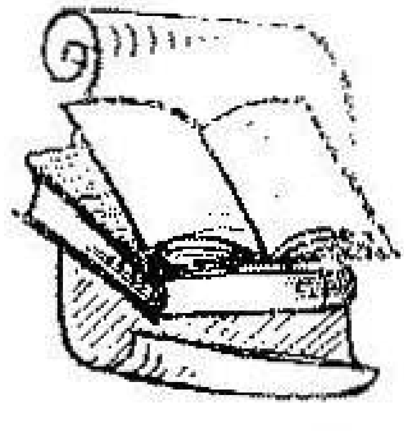
ولقد آلى الشعب العربي على مواصلة الجهاد والا يضيع جهاده سدى ولعل خير دليل ساطع هو تظافر جهود الانتصارات وتشجيعهم عليها ... وسيستمر الشعب العماني بعهده للجهاد ..

مصادر البحث :ـ

١ ـ الوعي الاسلامي ـ الجزء الاول ـ للدكتور معروف الدواليبي
٢ ـ قضايانا في الامم المتحدة ـ للاستاذ خيري حماد
٣ ـ مجلة الاقلام ـ الجزء الثاني ـ للعميد المتقاعد محمود بهجت سنان
٤ ـ حقائق عن الجنوب العربي ونضال عدن ـ للاستاذ كامل المشاهدي
٥ ـ فلسفة الثـورة ـ للرئيس جمال عبدالناصر
٦ ـ لا شيوعية ولا استعمار ـ للاستاذ عباس محمود العقاد
٧ ـ الخليج العربي ـ للاستاذ جان جاك بيربي
٨ ـ مطارحات مكيافلي ـ للاستاذ خيري حماد
٩ ـ يقظة العالم العربي ـ للاستاذ جان وولف
١٠ـ التطورات السياسية في الشرق الاوسط ـ للدكتور حسن العطار
١١ـ قضايانا العربية ـ للاستاذ عبدالقادر زلوم
١٢ـ السياسة الداخلية والخارجية ـ لمصلحة الاستعلامات العربية

(١) الوعي الاسلامي ـ الجزء الاول ـ للدكتور معروف الدواليبي
(٢) قضايانا في الامم المتحدة ـ للاستاذ خيري حماد

(٣) مجلة الاقلام ـ الجزء الثاني ـ للعميد المتقاعد محمود بهجت سنان
(٤) حقائق عن الجنوب العربي ونضال عدن ـ للاستاذ كامل الشاهدي
(٥) فلسفة الثورة ـ للرئيس جمال عبدالناصر
(٦) لا شيوعية ولا استعمار ـ للاستاذ عباس محمود العقاد
(٧) قضايانا في الامم ألمتحدة ـ للاستاذ خيري حمـــاد
(٨) الخليج العربي ـ للاستاذ جان جاك بيربي
(٩) حقائق عن الجنوب العربي ونضال عدن ـ للاستاذ كامل الشاهدي
(١٠) الخليج العربي ـ للاستاذ جان جاك بيربي
(١١) حقائق عن الجنوب العربي ونضال عدن ـ للاستاذ كامل الشاهدي
(١٢) الخليج العربي ـ للاستاذ جان جاك بيربي
(١٣) قضايانا في ألامم المتحدة ـ للاستاذ خيري حمـــاد
(١٤) مطارحات مكيافلي ـ تعريب الاستاذ خيري حمـــاد
(١٥) مطارحات مكيافلي ـ تعريب الاستاذ خيري حمـــاد
(١٦) يقظة العالم العربي ـ للاستاذ جان وولف
(١٧) حاولت جمعها من مصادر ثلاث (أـ قضايانا في الامم المتحدة لخيري حماد بـ التطورات السياسية في الشرق الاوسط لحسن العطار جـ قضايانا العربية لعبدالقادر زلوم)
(١٨) قضايانا في ألامم المتحدة ـ للاستاذ خيري حمـــاد
(١٩) قضايانا في ألامم المتحدة ـ للاستاذ خيري حمـــاد
(٢٠) الدورة السادسة عشر للامم المتحدة ١٩٦١م
(٢١) قضايانا في الامم المتحدة ـ للاستاذ خيري حماد
(٢٢) قضايانا في الامم المتحدة ـ للاستاذ خيري حماد
(٢٣) قضايانا في الامم المتحدة ـ للاستاذ خيري حماد
(٢٤) قضايانا في الامم المتحدة ـ للاستاذ خيري حماد
(٢٥) السياسة الداخلية والخارجية ـ لمصلحة الاستعلامات
(٢٦) السياسة الداخلية وألخارجية ـ لمصلحة الاستعلامات
(٢٧) السياسة الداخلية وألخارجية ـ لمصلحة الاستعلامات



اشتراكية الشعراء الصعاليك

الدكتور محمد مصطفى هداره

الصعلكة في مفهومها اللغوي الفقر الذي يجرد الانسان من ماله ، وهذا المعنى مأخوذ فيما يبدو من المعنى الحسي الاول وهو تجرد الابل من أوبارها • والصعلكة لا تعني الفقر وحده اذ زاد علماء اللغة في تعريف الصعلوك « بأنه الفقير الذي لا مال له ولا اعتماد » • معنى آخر هو انسداد أبواب الرزق ومسالكه في وجه من تصعلك بالاضافة الى تجرده من المال •

والشعراء الصعاليك طائفة ممن تنطبق عليهم أوصـــاف الصعلوك ، ظهروا في تاريخ الادب العربي في الجاهلية وأدرك بعضهم الاسلام مثل فضالة بن شريك وأبي الطمحان القيني ، ولكن سلوكهم الاجتماعي في الحياة أضاف الى معنى الصعلكة مدلولا جديدا هو الغزو والاغارة والفتك ، وان كان هــذا المدلول في الحقيقة نتيجة مترتبة على المعنى الاول للصعلكة وهو الفقر •

ولست بمتحدث في هذا المقال عن خصائص شعر الصعاليك الذي يفترق في بعض نواحيه عن الشعر الجاهلي بصفة عامة ، ولكنني سوف أتناول جانبا من حياة أولئك الصعاليك ترجموه لنا في أشعارهم ، فكان مطابقا — في رأيي — كمذهب اجتماعي واقتصادي للمبادىء العامة الاساسية في المذهب الاشتراكي • وعندما أتحدث عن هذا المذهب لا أعني الحديث عن الاشتراكية المادية ، ولكنني أقصد الاشتراكية بمعناها الانساني العام •

وأول ما يطالعنا من أدب الصعاليك موضوعيته الانسانية التي تعتبر نقطة البداية في كل أدب اشتراكي ، لان أساسه عدم الاعتراف بطلب الادب لذاته أو الثقافة لذاتها ، أو حتى العلم من أجل العلم ، بل هو يهدف دائما الى الربط بين الفن والحياة • ولا شك أن أدب الصعاليك كان صورة قوية معبرة عن المجتمع الذي كانوا يعيشون فيه ، والذى كانت تتفاوت طبقاتـــه تفاوتا بينا ، فكان شعرهم سلاحا من أسلحة الصراع الطبقي الذى كان يدور في البيئة العربية الجاهلية ، وتنفعل به نفوسهم التي تقطر مرارة وأسى على واقعها الاليم الذي تعيش فيه •

لقد كان الصعاليك فقراء ، ولكنهم لم يكونوا عاجزين عن ادراك الغنى بالوسائل المشروعة ، بيد أن مجتمعهم كان ظالما لهم ، فلم يهيىء لهم سبل العيش الشريف ، لهوان منزلتهم الاجتماعية ، فشعروا بذلة الفقر شعورا

حادا ، ونقموا على المجتمع الذي لا يجعل العدالة ميزانا له ، والذي يعيشون في ظله بينما يفرى الجوع أحشاءهم في هذه الصحراء الرهيبة القاحلة ، فجاشت نفوسهم بالثورة على هذا المجتمع الظالم ، وكانت ثورتهم أجتماعية ينشدون من ورائها عدالة المجتمع في النظر اليهم كطائفة من الادميين لها حقوقها الانسانية ٠

ولعل السبب في نظرة المجتمع ايهم نظرة ظالمة أن غالبية الصعاليك كانوا من العبيد ، أو من أولاد الاماء الحبشيات السود خاصة مثل السليك بن السلكة وتأبط شرا وغيرهما من الذين قسا عليهم مجتمعهم فنبذهم آباؤهم ولم يلحقوهم بهم لعار ولادتهم في رأيهم ٠ ثم ضاعف المجتمع من جرمه ازاء هذه الطائفة فاطلق عليهم أسم (اغربة العرب) لسواد لونهم وشؤم ولادتهم ٠

وكان المجتمع العربي في الجاهلية ارستقراطيا ـ ان صح هذا التعبير ـ يؤمن بوحدة جنسه ايمانا قويا ويتعصب لنقاء دمه تعصبا أعمى ٠ وكان مجتمعا طبقيا بكل ما في هذه الكلمة من معان ، فالعرب الخلص هم الجنس الذي له كل الحقوق ، وله السيادة والشرف ٠ والعبيد هم الطبقة التي كتب عليها الذل والشقاء الى الابد ، وسخرت لخدمة السادة ورفاهيتهم ، وهم لايستطيعون الفكاك من مصيرهم المظلم الا نادرا ٠ واذا حدث ان تنازل العربي الحر وقضى من أمته وطرا وأثمر هذا الاتصال ولدا ، لم يزد على أن يكون عبدا هجينا ، يلحقه ذل أمه ولا يناله شرف أبيه ، الا اذا أبدى نوعا خاصا من الامتياز كما فعل عنترة بن شداد ٠

وبين طبقة العرب الاحرار وطبقة العبيد توجد فئة ثالثة في المجتمع الجاهلي هي فئة الموالي ، وهم لا يرتفعون الى مستوى السادة الاحرار ، ولا ينحطون الى مرتبة العبيد الاذلاء ٠ وتتألف طبقة الموالي من عرب أحرار لجأوا الى قبيلة من القبائل ، أو الى أي فرد فيها طلبا للحماية ، ومنهم الخلعاء أيضا الذين لفظتهم قبائلهم فاضطروا الى الاحتماء بقبيلة أخرى ٠ أما الموالي غير الاحرار فهم العبيد الذين اكتسبوا حريتهم من سادتهم وتطورت علاقتهم بهم الى ولاء بدلا من الاستعباد ٠

ونادرا ما يكون الصعلوك عربيا حرا ، فالصعاليك دائما من العبيد أو من الموالي سواء أكانوا عبيدا أعتقوا أم خلعاء شذاذا فقدوا صلتهم بقبائلهم ٠ وقد كان اللون الاسود عنصرا موجودا في بعضهم ـ مثل السليك بن السلكة وتأبط شرا ـ ليذكر أصحابه بعبوديتهم ، فيجتمع الاحساس الحاد بذل الرق الى الشعور العنيف بالفقر ، ويشتد الاغراق في تصور ظلم المجتمع لهذه الطائفة التي تريد أن تعيش كما يعيش بقية الناس ، ولكن المجتمع لا يمكنهم من ذلك ٠ فقد نشأ الشنفرى مثلا في بني سلامان بن مفرج حتى صار واحدا منهم ٠ بل اتخذه أحد رجال القبيلة ابنا له ، وفي يوم من الايام قال الشنفرى لابنة هذا الرجل والتي تولد الاحساس في نفسه بأنها أخت له « أغسلي رأسي يا أخية » ، فثارت فيها عصبية الدم النقي وأنكرت عليه أن يكون أخا لها ، فلطمته على وجهه ، وكانت هذه اللطمة بمثابة الارتداد العنيف للماضي بكل

أوضاره ، بل أنها جعلت الشنفرى يصحو من غفوة لذيذة ليشعر فجأة بذل مولده وهوان وضعه الاجتماعي • وقد حاول أن يرد لنفسه بعض اعتبارها بمحاولة اقناعها بأنه لا يقل عن تلك الفتاة سموا في النسب من ناحية أبيه أو من ناحيه أمه • ونلاحظ أنه يطلق على أمه اسم « ابنة الاحرار » مع أننا نعلم من جميع أقوال الرواة أنها أمة • وقد يكون المقصود بالتسمية أنها أمة فارسية ، فقد شاع اصطلاح بنى الاحرار فيما بعد ، وهو ترجمة حرفية لكلمة « آزاد مرد » ، تلك التسمية الفارسية للارستقراطية الايرانية ، يقول الشنفرى : —

ألا ليت شعرى والتلهف ضلـــة   بما ضربت كف الفتـــاة هجينها

ولو علمت قعسوس[1] أنساب والدى   ووالدهـا ظلت تقـاصر دونهـــا

أنا ابن خيار الحجر بيتا ومنصبـا   وأمى ابنـة الاحرار لو تعرفينهـــا

وأبيات الشنفري تلك هى مجرد محاولة لاقناع النفس بسمو المنبت على الرغم من هوان المنزلة الاجتماعية ، ولكن أدب الصعاليك كله يتميز بصفة الواقعية التى تعتبر من أهم أركان الادب الاشتراكي ، فهم لا يهربون من واقعهم أبدا ، ولا ينطلقون بأشعارهم في سموات الخيال والوهم ، ولكنهم يعترفون بواقعهم المرير بكل ما فيه ، فهذا عمرو ذو الكلب لا يجد غضاضة في الاعتراف بأن أمه قينة ، يقول :

وأمى قينـــة ان لـم تروني   بصورش تحت عرعرها الطـوال

والشعراء الصعاليك يعترفون جميعا بفقرهم وجوعهم ، ونحس في اعترافهم تعليلا لثورتهم العنيفة على مجتمعهم الظالم الذي أهزلهم وأسمن غيرهم ، يقول عروة بن الورد :—

ومن يك مثلى ذا عيـال ومقترا   من المال يطرح نفســه كل مطرح

ويذكر الاعلم الهذلى أهله الذين تركهم جياعا ، وأولاده الصغار الشعث الذين يتربصون ناظرين لاقاربهم عسى أن يطرحوا لهم شيئا من الطعام فيقول :—

وذكرت أهلى بالعـسراء وحاجة الشعـث التـوالب

المصـرمين من التـلاد اللامحين الى الاقـارب[2]

ويشكو السليك بن السلكة ما فعل به الجوع في أشهر الصيف القائظة حتى كان يصيبه بالدوار والاغماء ، ويكاد يورده حتفه ، فيقول :—

وما نلتها حتى تصعلكت حقبـــة   وكدت لاسـباب المنية أعـرف

وحتى رأيت الجوع بالصيف ضرنى   اذا قمت تغشانى ظـلال فأسدف

أما تأبط شرا فقد أصابه الجوع بانهزال فالتصقت أمعاؤه ، وبرزت أضلاعه ، فيقول :ـ

قليل ادخـــار الزاد الا تعلــــة وقد نشز الشرسوف والتصق المعى

وأما الشنفرى فيحدثنا عما يملك في دنياه البائسة ، فلا تجد لـــه غير بقية نعلين وثوب ممزق ، يقول :

وليس جهازي غير نعلين أسحقت صدورهما مخصـــــورة لا تخصف
وضنية جرد وأخـــلاق ريطـــة اذا أنهجت من جـانب لاتكفـف(٣)

ومع هذه الواقعية في أدب الصعاليك حين يعترفون بفقرهم وجوعهم ، نحس أنهم قد بلغوا درجة عالية من عزة النفس وقوتها ، وأنهم لفرط صحبتهم للفقر والجوع قد تدربوا على قهر أنفسهم وضبطها ، وحرموا عليها التهالك على الطعام والملذات ، حتى لا يصبح نيل الزاد عندهم مثلا أعلى ينسـون في سبيله كرامتهم وعزة نفوسهم • يحدثنا الرواة فيقولون : أقفر أبو خـراش الهذلي من الزاد اياما ، ثم مر بامرأة من هذيل جزلة شريفة ، فأمرت له بشاة، فذبحت وشويت ، فلما وجد بطنه ريح الطعام قرقر فضرب بيده على بطنـه وقال :ـ « انك لتقرقر لرائحة الطعام ، والله لاطعمت منه شيئا • ثم قال: يا ربة البيت : هل عندك شيء من صبر أو مر ؟ فقالت : تصنع به ماذا ؟ قال : أريده • فأتته منه بشيء ، فاقتحمه ثم أهوى الى بعـيره فركبـه ، فناشدته المرأة فأبى ، فقالت له : ياهذا ، هل رأيت بأسـا ، أو انكرت شيئا ؟ قال : لا والله ، ثم مضى وأنشأ يقول :ـ

واني لأثوي الجوع حتى يملني فيذهب لم يدنس ثيابي ولا جرمي
وأغتبق الماء القـراح فأكتفـي اذا الزاد أمسى للمزلج ذا طعم
أرد شجاع البطن قد تعلمينه وأوثر غـيري من عيالك بالطعم
مخافة أن أحيـا برغم وذلـــة وللموت خير من حياة على رغم

والشنفرى يرسم لنا صورة أخرى لهذا التعفف الذي تتسم به حياة الصعاليك الواقعية ، والذى يقهرون به أنفسهم برغم فقرها وجوعهـــا ، ليثبتوا لأنفسهم حيث يظن بها الضعف ، وليثبتوا أن الفقير اذا تعفف كان أقوى وأكرم من الغني الجشع المتهالك على الماديات من الأمور ، يقـــول الشنفرى :ـ

اذا مدت الأيدي الى الزاد لم أكن بأعجلهم اذ أجشع القـوم أعجل
وما ذاك الا بسطة من تطــول عليهم وكان الأفضل المتطــول
وأستف ترب الأرض كي لايرى له علي من الفضــل امرؤ متفضــل
ولولا اتقاء الذل لم يلف مشرب يعاش بـه الا لــدى ومأكـــل

ولكن نفسا حرة لا تقيم بي على الخسف الا ريثما أتحول
وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى وفيها لمن رام العلا متعزل

وصورة هذا التعفف الشديد الذي يبلغ أحيانا درجة القسوة على النفس وتعذيبها ، كما رأينا في قصة أبي خراش الهذلي ، انما هي جزء من الصراع الطبقي الذي يتسم به أدب الشعراء الصعاليك ، والذى يعتبر من عناصر اشتراكيتهم • فقد أجمع النقاد على أن أهم وظيفة للأدب الاشتراكي أن يكون سلاحا من أسلحة الصراع الطبقي فيحارب الاستغلال الفردي والظلم الاجتماعي ، ويدعو الى المساواة واصلاح المجتمع • ولهذا نجد أن تعفف الصعاليك كان مبنيا على أساس نفسي واضح ذكرته من قبل • وهو أنهم يريدون أن يثبتوا القوة لأنفسهم حيث يظن بهم الضعف ، وليبينوا أن الفقير اذا تعفف كان أقوى وأكرم من الغني الجشع المتهالك على الدنيا • ويحس القاريء هذه المقارنة في بيت أبي خراش الذى يقول فيه :ـ

وأغتبق الماء القراح فأكتفى اذا الزاد أمسى للمزلج ذا طعم

والمزلج هو البخيل ، أو الدون من الناس ، ويقصد به أبو خراش الغني بطبيعة الحال •

ونحس هذه المقارنة أيضا ، أو هذا الصراع الطبقي في مقطوعة الشنفرى في قوله : « اذ أجشع القوم أعجل » ويقصد به الغني أيضا • كما يعنيه في قوله : (امرؤ متفضل)

والصعاليك يتحدثون في وضوح عن طبقة الموسرين الذين يوجهون اليهم الطعنات ، فهناك ثلاث طوائف يوضح تأبط شرا أنه كان يقصدها باغاراته : أصحاب المواشي ، وأصحاب المزارع الخصيبة ، وأصحاب النوق الحوامل ، يقول :ـ

فيوما على أهل المواشي وتارة لأهل ركيب ذي ثميل وسنبل(٤)

ويقول في موضع آخر :ـ

ولكن أرباب المخاض يشقهم اذا اقتفروه واحدا أو مشيعا(٥)

ويحلل الدكتور يوسف خليف أبياتا للأعلم الصعلوك فيقول انه يرسم فيها صورة ساخرة طريفة لنموذج من أولئك الذين يجعل منهم أهدافا لغزواته ، فهو رجل غني سمين مترف ، يعيش بين الستائر والحظائر ، وجهت امرأته اليه برها وعنايتها حتى سمنته فأصبح من صنعها ، ولكنه مع ذلك ضعيف القلب ، لو اخترق صحراء لفزعته شخوصها ، ولحسب كل شخص فيها فارسا ، لأنه خائف من أولئك الصعاليك المتربصين به وبأمثاله في أرجائها ، الذين اذا رأوه انصبوا عليه كما تتفجر المياه من حوض متهدم

يحاول صاحبه اصلاحه دون جدوى ، وعندئذ تضطرب نفسه ، وينهار كيانه ويفر هاربا ، ويذهب صنع امرأته فيه سدى ، يقول الأعلم :ـ

أيسخط غزونا رجل سـمين ... تكننـه السـتارة والكنيـف
ولو رفعت ثوبـك في خروق ... تروعـك في مهالكها الشدوف
تخـاف لزام عاديـة ثعـول ... كمـا يتفجر الحوض اللقيـف
اذن لذكرت حالك غير عصـر ... وأفسد صنعها فيك الوجيف(٦)

وكان الصعاليك يعبرون عن سوء توزيع الثروة في مجتمعهم ببخـل الأغنياء وعقوقهم للفقراء ، وكان مقياس الغنى في هذا المجتمع كثرة الابل ، ولهذا نجد الأحيمر السعدي يصف فقره وتجرده من الابل ، في الوقت الذى يملك غيره الكثير منها ، وقد كان ينبغي أن يجعل له نصيبا فيما يملك ، يقـول :ـ

واني لأستحيي لنفسي أن أرى ... أمر بحبل ليس فيـه بعـير
وان أسأل العبد اللئيم بعيره ... وبعران ربـي في البـلاد كثير

ونجد عروة بن الورد يوضح لنا صورا من الصراع الطبقي حين يتحدث عن اغارته على أصحاب الابل الكثيرة البخلاء الذين لا يجعلون نصيبا للفقراء فيها ، فيقول ساخطا على تخمة الغني الذي يجلس دون أن يصنع شيئا ، بينما يهلك الفقير وهو يشقى :

لعل انطلاقي في البلاد ورحلتي ... وشدي حيازيم المطية بالرحـل
سيدفعني يوما الى رب هجمة ... يدافع عنها بالعقوق وبالبخل(٧)

وفي سبيل هذا الصراع الطبقي ، ومن أجل اذكائه في نفوس الصعاليك ضحية المجتمع الظالم ، حاول أحرارهم أن يجعلوا من هذا الصراع ثورة عنيفة تطيح بالمجتمع ، فأخذوا يهاجمون اخوانهم الذين استكانوا لحياة الذل ورضوا باغلال العبودية ، وعاشوا في دعة وخمول خلف أدبار البيوت قانعين بظلم المجتمع لهم ، ويرسم عروة بن الورد لهذه الطائفة صورة ساخرة في قوله :ـ

لحا الله صعلوكا اذا جن ليله ... مصافي المشاش آلفا كل مجزر
يعد الغنى من دهره كل ليلة ... أصاب قراها من صديق ميسر
ينام عشاء ثم يصبح ناعـسـا ... يحث الحصى عن جنبه المتعفر
يعـين نساء الحي ما يستعنه ... فيمسي طليحا كالبعير المحسر

وفي الوقت نفسه يرسم لنا عروة المثل الأعلى للصعلوك الثائر على مجتمعه الذي لا يرضخ للظلم ولا يستكين للذل ، ولكنه يحب الصراع ويقبل عليه فيقول :ـ

ولكن صعلوكا صحيفة وجهـه | كضوء شـهاب القابس المتنـور
مطلا على أعدائـه يزجرونـه | بساحتهم زجر المنيح المشـهر
وان بعدوا لا يأمنون اقترابـه | تشوف أهل الغائب المتنظـر
فذلك ان يلـق المنيـة يلقهـا | حميدا ، وان يستغن يوما فأجدر

ما أبعد الفارق بين الصورتين : صورة الصعلوك الخامل الذي يتهافت على فضلات الطعام ولا يدع حتى المشاش وهو العظم الذى يسهل مضغه ، واذا نال هذا الصعلوك برا من صديق غني عد ذلك غاية الغايات وبات سعيدا بتفضل الناس عليه ، وهو لتفاهته وخمول نفسه ينام عشاء ، فاذا أصبح الصباح لم يخف من نومه نشيطا ، بل ظل على خموله ، برغم نومه الطويل ، لا هم له الا أن ينفض ما علق بجنبه من الحصى ، كما يفعل البهيم ·

وهذا الصعلوك الساقط الهمة لا يأنف من قضاء ما تكلفه به نسـاء الحي المترفات فهو في خدمتهن دائما ويظل يبذل جهده في هـذه الأعمال الوضيعة التي لا تليق برجل مكافح حتى اذا أمسى الليل نام كالحيـوان المعيـاء ·

أما الصورة الأخرى : صورة الصعلوك الجدير بالصعلكة في رأى عروة فهو الفاتك الشجاع الذي يضيء وجهه كالشهاب لقوة عزمـه وتصميمه ، وبسبب حيويته وتوثبه · وهو اذا هجم على أعدائه حاولوا الفرار من وجهـه خوفا من فتكه ، فاذا ابتعدوا عن طريقه ظلوا على خوفهم منه ، حتى انهـم ينظرون في فزع حولهم يتوقعون مجيئه في أي وقت ·

ومثل هذا الهجوم الذى شنه عروة على الصعاليك الخاملين نجده عند الشعراء الصعاليك الأحرار جميعـا ، فهم يأنفـون من اخوانهم القاعدين الوادعين ، ويحاولون أن يستنفروا همتهم ، يقول الشنفرى :ــ

لاتحسبيني مثل من هو قاعـد | على عثـة أو واثـق بكسـاد
اذا انفلتت مني جواد كريمـة | وثبت فلم أخطىء عنان جوادي(٨)

ويوضح السليك بن السلكة لمحبوبته الفرق بين الصعلوك الخامـل المستكين ، والصعلوك الحر الثائر ، فيقول :ــ

ألا عتبت علي فصـا رمتنـي | وأعجبها ذوو اللمم الطـوال
فاني يا ابنـة الأقوام أربـى | على فضل الوضيء من الرجال
فلا تصلي بصعلوك نئـوم | اذا أمسى يعـد من العيـال
ولكن كـل صعلوك ضـروب | بنصـل السيف هامات الرجال

وبسبب هذا الصراع الطبقي أيضا استهان الصعاليك بحياتهم وتغنـوا بالبطولة والشجاعة ، وكان شعارهم الموت ولا حياة العبودية ، والهلاك ولا التغاضي عن ظلم المجتمع لهم · وفي هذه المعاني كثرت أشعارهم ، حتى لنجد

أنفسنا أمام ابطال تقترب مغامراتهم من الخيال ، وتكاد تصبح من الاساطير والخرافات ، ويصف لنا تأبط شرا حياة الصعلوك الفاتك الثائر على مجتمعه فيقــول :ـ

قليل التشكي للمهم يصـيبه ... كثير الهوى شتى النوى والمسالك
يظل بموماة ويمسي بغـيرها ... جحيشا ويعروري ظهور المهالك
ويسبق وفد الريح من حيث ينتحي ... بمنخرق من شـده المتدارك
اذا حاص عينيه كرى النوم لم يزل ... له كالىء من قلب شيحان فاتك
ويجعل عينيـه ربيئة قلبــه ... الى سلة من حد أخلق صائك
اذا هـزه في عظم قرن تهللت ... نواجذ أفواه المنايا الضواحـك
يرى الوحشة الأنس الأنيس ويهتدى ... بحيث اهتدت أم النجوم الشوابك

وهذا الصعلوك الذي لا يشكو ما ينزل به من الخطوب ـ على عظمها ـ لقوة احتماله وصبره ، والذى ينطلق في الصحارى مستأنسا بنفسه ويقتحم المخاطر والمهالك ، والذى يسبق الريح من حيث يقصد بعدوه السريــع المتلاحق ، والذى لا يكاد النوم يزور جفنيه ، فان زاره لم ينم قلبه الشجاع الحازم • فاذا كره القلب شيئا كانت العين صاحبه الذى يشير عليه فيستل سيفه ، وعندئذ تفرح المنايا لأنها تعلم أن استلاله للسيف سوف يعقبــه ضحايا • والصعلوك لا يضل في قصده أبدا ، فهو في وحدته في الصحــراء المخوفة يعرف طريقه جيدا ، ويهتدى الى غايته ، كما تهتــدي النجوم في سيرها •

وهذه الحياة العنيفة المجهدة تهون على صاحبها حين يمسي في موضــع المخاطرة والاقدام ، ويذكر تأبط شرا ذلك المعنى حين يكمل رسم صــورة الصعلوك في قصيدة أخرى فيقول :ـ

قليل غرار النــوم أكبر همــه ... دم الثـأر أو يلقى كميـا مقنعـا
قليــل ادخار الزاد الا تقـلة ... وقد نشز الشرسوف والتصق المعى
يبيت بمغنى الوحش حتى ألفنه ... ويصبح لا يحمى لها الدهر مرتعا
واني ولا علــم لأعلــم انني ... سألقى سنان الموت يرشق أضلعا
على غرة أو جهــرة من مكاثــر ... أطال نزال الموت حتى تسعسعا
ومن يضرب الأبطـال لابد أنــه ... سيلقى بهم من مصرع الموت مصرعا(٩)

فالصعلوك الذي يأنس بالوحشة في الصحراء المخوفة ، والذى ينــام يقظان يحلم بالقتال والمعارك ، ولا يفكر في ادخار الزاد ، بل يتحمل الجوع والهزال في صبر عجيب ، وفي مكان موحش مقفر ، لا يجد فيه الا الوحش يألفه ويأنس به ، هذا الصعلوك يعلم ان الموت حق ، ولكنه لا يقصد الموت الهين ، بل الموت في اثناء الصراع والقتال ، فتلك نهاية جديرة بالصعلوك الثــائر •

وفي معنى الاقدام والمخاطرة بالنفس والاستهانة بالحياة ، الذي يرجع في الأصل الى ثورة الصعاليك على مجتمعهم ، والاستهانة بقيمه الظالمة ، يقول عمرو بن براقة مخاطبا صاحبته :ـ

ألم تعلمي ان الصعاليك نومهم ... قليل اذا نام الدثور المسالم
اذا الليل أدجى واكفهرت نجومه ... وصاح من الافراط هام جوائم
ومال بأصحاب الكرى غالباته ... فاني على أمر الغواية حازم
متى تجمع القلب الذكي وصارما ... وأنفا حميا تجتنبك المظالم
ومن يطلب المال الممنع بالقنا ... يعش ذا غنى أو تخترمه المخارم

وما دمنا قد عرفنا دوافع ثورة الصعاليك على مجتمعهم ، وشهدنا في أشعارهم أصداء الصراع الطبقي الذي خاضوه ، والذى جعلناه عنصرا مميزا في اشتراكية أدبهم ، يحق لنا ان نتساءل : الى أين كانت تتجه آمال الصعاليك في ثورتهم ؟ وما أهدافها ؟ هل كانوا يريدون الاطاحة بالمجتمع انتقاما لأنفسهم أو تراهم في ثورتهم على ضلال لا يعرفون الى أين يتجهون ؟

الحقيقة ان المتأمل في أدب الصعاليك يرى أنهم كانوا في ثورتهم على مجتمعهم يهدفون الى الاصلاح وينشدون المساواة والعدالة الاجتماعية · وهذه الأهداف التي عبروا عنها في شعرهم تعتبر من أهم عناصر اشتراكيتهم أو مظاهر الاشتراكية في أدبهم · فالصعاليك لم يهاجموا القوافل أو يغيروا على القبائل لرغبتهم في الاغارة ذاتها ، ولا ليفيدوا غنى وثروة وجاها يرفع من مقامهم في المجتمع الارستقراطي الذي يعيشون فيه · بل نراهم على النقيض من ذلك تماما ، يأخذون من الأغنياء ليعطوا الفقراء ، ولم نر واحدا منهم يصيب الغنى قط أو كانت الثروة هدفا له ، بل ظلوا جميعا فقراء على الرغم من كثرة مغانمهم وأسلابهم من اغاراتهم ، وذلك بسبب اباحتهم ما في أيديهم لأمثالهم من الفقراء · وهنا يبرز معنى أصيل في مظاهر اشتراكيتهم · وقد عبر عروة بن الورد زعيم الصعاليك عن مذهبهم الاشتراكي فصور لنا مشاركة الفقراء له في انائه ، واكتفاءه بالماء القراح حتى في ايام الشتاء الباردة ، ليوفر لهم طعامهم ، بل ان شعوره بحق الفقراء فيما يغتنم من المال يشتد ويقوى حتى ليشعر أنه يأخذ من جسده ليعطي أجسادهم ، يقول :ـ

اني امرؤ عافى انائي شركة ... وأنت امرؤ عافى انائك واحد
أتهزأ مني ان سمنت وقد ترى ... بجسمي مس الحق والحق جاهد
أقسم جسمي في جسوم كثيرة ... وأحسو قراح الماء والماء بارد

وكان عروة بن الورد فيما يروي لنا صاحب الاغاني يهاجم الاغنياء الأشحاء ليوزع ما يغنمه منهم على الفقراء الذين كانوا يلتفون حوله ويقصدون رحابه في سنوات الجفاف والقحط ، يقول في ذلك :ـ

اذا قلت قد جاء الغنى حال دونه — أبو صبية يشكو المفاقر أعجف
له خلة لا يدخل الحق دونهـا — كريم أصابته حــوادث تجرف

وعروة لا يعتبر قصد الفقراء له نوعا من التطفل ، كما لا يعتبر اغداقه المال عليهم من قبيل التفضل ، بل انه يرى أن من واجبه الاغارة على الأغنياء وجمع الأموال في سبيل توزيعها على الفقراء أصحاب الحق الأول فيهـا ، تحقيقا للمساواة والعدالة الأجتماعية ، يقول في ذلك :ـ

دعيني أطوف في البلاد لعلنـــي — أفيد غنى فيه لذي الحق محمل
أليس عظيمـا أن تلم ملمــة — وليس علينا في الحقوق معول
فان نحن لم نملك دفاعا بحادث — تلم بـه الأيام فالموت أجمـل

ومن أخبار عروة أنه كان اذا أصابت الناس سنة شديدة يجمع المرضى والضعفاء والمسنين من عشيرته « ثم يحفر لهم الأسراب ، ويكنف عليهم الكنف ويكسبهم ، ومن قوي منهم اما مريض يبرأ من مرضه أو ضعيف تثوب قوته ــ خرج به معه فأغار ، وجعل لأصحابه الباقين في ذلك نصيبا حتى اذا أخصب الناس وألبنوا وذهبت السنة ، ألحق كل انسان بأهله ، وقسم له نصيبه من غنيمة ان كانوا غنموها ، فربما أتى الأنسان منهم أهله وقد استغنى » ٠

ويعلق الدكتور يوسف خليف على هذا الاتجاه الانساني في حيـاة عروة الصعاليك فيقول « كانت الصعلكة عند عروة نزعة انسانية نبيلة ، وضريبة يدفعها القوي للضعيف ، والغني للفقير وفكرة اشتراكية تشـرك الفقراء في مال الأغنياء وتجعل لهم فيه نصيبا ، بل حقا يغتصبونه ان لـم يؤد لهم ، وتهدف الى تحقيق لون من ألوان العدالة الاجتماعية والتــوازن الاقتصادي بين طبقتي المجتمع المتباعدتين : طبقة الأغنياء ، وطبقة الفقـراء فالغزو والاغارة للسلب والنهب لم يعد عنده وسيلة وغاية ، وانما أصبح وسيلة غايتها تحقيق نزعته الانسانية وفكرته الاشتراكية »(١٠) ٠

وهكذا نرى أن شعر الصعاليك كانت فيه سمات قويـة من الأدب الأشتراكي ، بما فيه من موضوعية انسانية ، وواقعية تبعد عن الخيـال والأوهام ، وتصوير للصراع الطبقي ومحاولة الاستغلال الفردي ، وتشدان المساواة والعدالة الاجتماعية ، وبما فيه أيضا من التزام قوي بالحدود الطبيعية لحياة الصعاليك وموقفهم من المجتمع وأهدافهم التي يسعون اليها ويبذلـون أنفسهم في سبيلها ٠

---

(١) قمـوس : لقب للفتاة السلامية التي ضربته ٠

(٢) التولب : الجحش ، المصرم : الخالي من المال

(٣) ديوان الشنفرى : (مجموعة الطرائف الادبية) ٠ أسحقت : بليت ، النعل المخصورة المستدقة الوسط ، لاتخصف : اي لا تكون صالحة لخرزها لانها بليت ، الضنية : نوع من الثياب في الغالب الجرد : البالي ، الريطة : الثوب من قطعة واحـدة ، أنهجت : بليت ، تكنف : تخاط ٠

(٤) الركيب : المزرعة والشميل : الحب ·

(٥) المخاض : النوق الحوامل ، يشفهم يهزلهم ، اقتفروه : تتبعوا أثره ، الواحد : المنفرد ، المتسبع : المتنوع بغيره في قطيع ·

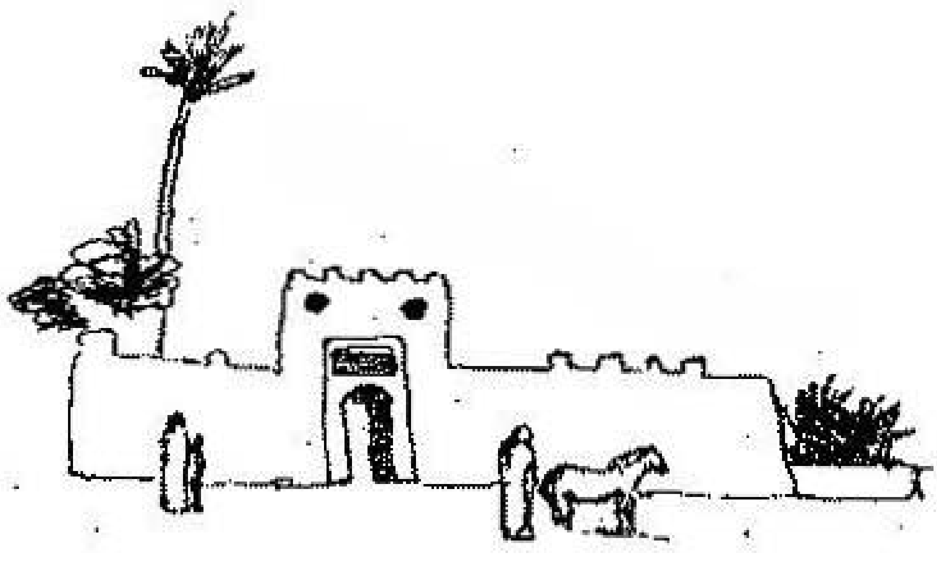
(٦) الكنيف : الحظيرة ، الخروق : جمع خرق وهي الارض الواسعة تتخرق فيها الرياح، الشدوق : جمع شدق وهو الشخص ، اللزام : العذاب والشعول : الناقة التي في اطبائهـا زيادة ، العوض : اللقيف المستوي من نواحيه · الوجيف : نوع من السير أو الاضطراب ·

(٧) الهجمة من الابل ما بين الاربعين الى المائة ·

(٨) ديوان الشنفرى (مجموعة الطرائف الأدبية) ، العثة : الحشرة المعروفة التـي تأكـل الملابس ·

(٩) ديوان الحماسة ١ : ١٩٠ ·

(١٠) الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي : (٤٧) ·



علم النفس في خدمة الجميع (*)

الدكتور احسان العيسى

ان كان علم النفس يبحث في موضوع السلوك وتفسيره فكلنا خبراء في النفوس : كلنا نروم فهم سلوك الاخرين وتفسيره والتنبأ عنه وبالتالي السيطرة عليه • فحاجتنا لفهم الآخرين تدعونا أحيانا الى قراءة بعض الكتب في علم النفس وكثيرا ما ندعي بعد الانتهاء من قرائتها باننا نستطيع حل مشاكل الآخرين لا بل قراءة أفكارهم ومستقبلهم • ومنا من يعتقد بان هذه الدراسات النفسية ستحل مشاكله الشخصية وتهييء له السعادة والنجاح في الحياة الاجتماعية والعملية • ان هذا الاعتقاد لا يؤيده الواقع • فمن ياترى يستطيع ان يكون طبيبا أو محاميا او مهندسا بعد قراءة كتب قليلة في الطب والقانون والهندسة • ففي كل هذه المهن يحتاج الفرد الى تدريب فني طويل متواصل يؤهله لممارسة مهنته باتقان ، وعلم النفس لا يشذ عن هذه القاعدة • والاخصائي النفساني كالطبيب والمحامي والمهندس فهو يستطيع حل مشاكل صعبة ومعقدة ولكن بعد دراسة طويلة وشاقة وقد يصعب بل يستحيل تعلم مهارات الاخصائي النفساني بعد دراسة كتب قليلة في علم النفس وحتى بعد دراسة هذا الموضوع لمدة أربع سنوات في الجامعة • كما وان التخصص في علم النفس يحتوي على معارف وموضوعات لا تمت بصلة مباشرة لحاجات الفرد العملية ولحل مشاكله الشخصية أو مشاكل الآخرين • ومن هذه الموضوعات دراسة سلوك الحيوان والعمليات العضوية ونظريات التعلم والتفكير والادراك • وقد يصعب على الشخص المبتديء في دراسة علم النفس ان يجد العلاقة بين هذه الموضوعات والمشاكل العملية التي تواجهه في البيت أو في البيئة الخارجية • والحق ان علم النفس كان منذ أقل من قرن مضى يبحث عن نفسه وكانت فوائده العملية قليلة ومحدودة وما ان تجمعت لديه بعض الحقائق والمبادىء الاساسية لتفسير السلوك حتى تمكن من تطبيقها في ميادين مختلفة وسنحاول هنا شرح بعض التطبيقات الشائعة لعلم النفس •

(*) راجعت بصورة رئيسية النص الانكليزي لكتاب مقدمة في علم النفس لمؤلفه كلليفورد مورغان • (الكاتب) •

علم النفس السريري Clinical Psychology

وهو من أوسع حقول التخصص بعلم النفس في الوقت الحاضر • ولمعرفة فحوى هذا الفرع بصورة واضحة علينا أولا أن نفرق بين ثلاثة اخصائيين يقومون باعمال سريرية وهم طبيب الامراض العقلية والمحلل النفساني والاخصائي بعلم النفس السريري • ان موضوع الامراض العقلية فرع من فروع الطب وان المختص بالامراض العقلية Psychiatry يجب أن يدرس الطب ومن ثم يتخصص في تشخيص وعلاج الاضطرابات العقلية • أما المحلل النفساني Psychoanalyst فلا يشترط أن يكون طبيبا وهو يستعمل طرق التحليل النفسي التي جاء بها الطبيب النمساوي سجموند فرويد Sigmond Freud واتباعه لعلاج الاضطرابات النفسية • واما الاخصائي بعلم النفس السريري فيجب أن يكون قد اختص بعلم النفس العام ومن ثم تابع تخصصه في تطبيق الاختبارات النفسية والفحص والعلاج النفسي • ويجب ان يميز هذا الاسلوب العلاجي الاخير عن استعمال العقاقير الطبية او الرجات الكهربائية وغيرها من أنواع العلاج الطبي التي يستعملها المختصون بالطب العقلي • كان علاج الامراض العقلية والنفسية خاضعا لمسؤولية الطب العقلي حتى شعر أطباء الامراض العقلية بالحاجة الى الاخصائي النفساني لقياس قدرات المريض العقلية وذلك بواسطة تطبيق اختبارات الذكاء ووصف سماته الشخصية وتقديرها • ونتيجة للاختبارات النفسية ومقابلات الاخصائي النفساني المتكررة للمريض ودراسته لتاريخ حياته يستطيع ان يمد يد المساعدة لطبيب الامراض العقلية لتشخيص الاضطرابات النفسية واسلوب علاجها • وبالرغم من ان بعض الاطباء يعتقدون بان وظيفة الاخصائي النفساني هي تشخيص الاضطرابات النفسية فقط الا أنها في الواقع تتجاوز ذلك فهو يشترك في علاجها أيضا • ففي مستشفيات الامراض العقلية هناك حاجة كبيرة للعلاج النفسي وكثيرا ما يستخدم الاخصائي النفساني لهذا الغرض بالاضافة الى عدد كبير منهم يقومون بالعلاج النفسي في عياداتهم الخاصة وبصورة عامة فانهم يرسلون مرضاهم الى الطبيب قبل المباشرة بالعلاج النفسي للتأكد من انه ليس هناك مرض عضوي يحتاج الى عناية طبية • والاتجاه الحديث يؤكد على أن تشخيص وعلاج الاضطرابات النفسية والعقلية يقوم على أساس التعاون بين الطبيب والاخصائي النفساني والمرشدة النفسية والاجتماعية Psychiatric Social Worker وتلعب الاخيرة دورا فعالا للحصول على المعلومات الضرورية عن عائلة المريض واكتشاف العوامل الاجتماعية والعاطفية التي تسبب له الاضطرابات النفسية •

الارشاد والتوجيه Counseling and Guidance

كثيرا ما يصعب الفصل بين العلاج النفسي وبين الارشاد والتوجيه لحل المشكلات الشخصية • وهذا الدور الاخير يقوم به المختصون بعلم نفس الارشاد والتوجيه فيقدمون خدماتهم للمدارس والكليات والمؤسسات الصناعية وذلك بواسطة استعمال مقاييس الذكاء والقابليات والهوايات والشخصية • فهم يستطيعون ان يخبروا الآباء عن قابليات ابنائهم أو تنظيم طرق تدريسهم او اختيار المناسب لهم منها أو حل مشاكلهم الطارئة • وقد يقوم الاخصائي بالارشاد النفسي بمهمة العلاج النفسي وفي هذه الحالة عليه ان يكون حذرا كي لا يعالج بعض الحالات النفسية والعقلية التي تقع في حدود اختصاص علم النفس السريري أو الطب العقلي •

علم النفس التربوي Educational Psychology

كثيرا ما تطبق قوانين علم النفس لحل المشاكل التربوية التي يواجهها المربون في داخل المدرسة وخارجها كدراسة نمو قابليات الطفل والتغييرات في شخصيته أثناء النمو فتساعد هذه الدراسة على معرفة مستوى المواد المدرسية المناسبة له وموعد تدريسها أو طريقة تدريسها • فاختبارات الذكاء والشخصية يمكن أن تستعمل لتقدير سرعة تقدم الطفل في المدرسة وكذلك فان نتائج البحوث النفسية في طرق التدريس والتعلم يمكن تطبيقها عند تأليف الكتب المدرسية ووضع مناهج الدراسة وفي المدارس والجامعات يستخدم افراد مختصون بعلم النفس التربوي لتطبيق اختبارات القدرات الخاصة والعامة ولانتقاء الطلبة للفروع التي تلائم قدراتهم • ويشترك علم النفس التربوي مع علم النفس السريرى في دراسة التخلف العقلي والمدرسي واكتشاف اسبابه العضوية والعاطفية •

الصناعة :

ان استعمال علم النفس لحل المشاكل الصناعية كان باستعمال اختبارات الذكاء والقدرات وذلك لاختيار مستخدمي الشركات والمؤسسات الصناعية الكبيرة وانتقاء الاعمال المناسبة لهم • وبالاضافة الى ذلك فان هذه المؤسسات تستخدم الاخصائي النفساني لتدريب الموظفين والمستخدمين والاشراف عليهم وارشادهم والتخفيف من حدة الصراع بين العمال وأصحاب العمل • ومن التطبيقات الحديثة لعلم النفس في ميادين الصناعة والتجارة دراسة مواقف العملاء من بضائع ومنتجات الشركات وتأثير الاعلانات واساليب الدعاية الاخرى في الجمهور • وبالاضافة الى استخدام النفسانيين كموظفين أو مستشارين في الشركات فقد يلتحق مدراء هذه الشركات بدورات لدراسة علم النفس الصناعي والتجاري •

الحكومـــة :

لاشك ان الحكومة تحوي عددا كبيرا من الموظفين الذين يشتغلون في مجالات مختلفة وهي بحاجة دائمة الى أفراد يملكون قـــدرات وقابليـــات متنوعة • فسواء كان الموظفون في السلك الخارجي أو الجيش أو التعليم أو البريد فان اختيارهم وترقيتهم يجب أن تسير حسب معايير موضوعيـــة عادلة • وقد وضع علماء النفس اختبارات خاصة لاختيار الموظفين وترقيتهم وبهذه الوسيلة تستطيع الحكومة وضع الاشخاص في الوظائف التـــي تناسبهم • كان أول تطبيق لعلم النفس في المجالات الحكومية خلال الحرب العالمية الاولى وذلك لتصفية المتخلفين عقليـــا في الجيش (وهم الاشخاص الذين يحصلون على درجات واطئة في اختبارات الذكاء) • وقد وجـــدت نسبة كبـــيرة من المجندين لا يصلحون للخدمة في الجيش بسبب تخلفهم العقلي • وقد ظهرت تطبيقات أخرى لعلم النفس لايجاد حلول ناجعـــة للمشاكل الاجتماعية والاقتصادية التي تجابه الحكومات • فمن المسائـــل التي شغلت علم النفس الاجتماعي مثلا مشكلة التعصب ضد الزنوج وغيرهم من المجموعات العنصرية والدينية • فكثيرا من الحكومات أو الجمعيـــات الخيرية تستخدم الاخصائيين النفسانيين لاسداء النصح اليهم حول محاربة هذا التعصب العنصري والديني ومحاربة الجنوح عند الاطفال أو الجرائم عند الراشدين ولبناء مجتمع أفضل •

وبالاضافة الى المشاكل الاجتماعية كالتعصـــب والاجرام وجنـــوح الاطفال فان الحكومات تميل الى أخذ آراء شعوبها حـول القضايا الاساسية التي تهم البلاد لكي تهتدي الى سياسة حكيمة لا تناقض اهوائهم ورغباتهم ففي وقت الازمات المالية والاقتصادية تأخذ الحكومة على عاتقها معونـــة أفراد الشعب وتستعين بالاخصائي النفساني على معرفة نوع المساعـــدة الحكومية التي يرغبون فيها (نقود ، طعام ، ملابس •• الخ) أو نـــوع السيطرة الحكومية بصورة عامة (عند تطبيق سياسة التموين مثلا) • ان معظم البحوث النفسية تشير الى أن المبادىء الاقتصادية التي تسير عليهـــا الحكومات غالبا ما يكون مصيرها الفشل اذا ما صاحبتها مواقف سالبة من قبل المواطنين وكثيرا ما يساعد الاخصائي النفساني على معرفة مواقـــف المواطنين حول مختلف القضايا والمشاكل وايجاد حلول شافية لها •

وأخيرا فقد أصبح علم النفس الحديث واسع الآفاق ، متعدد الفروع فشمل كل مجالات السلوك بحيث لا يمكن حصرها في بحث موجز قصير •

أبو الطيب بعد ألف عام

(في هذا العام : ١٩٦٥ يكون قد مر على وفاة أبي الطيب المتنبي ألــف عــام ميــلادي وهذه القصيدة أوحاها عيد الشاعر الألفـي)

فاضل خلف

تفنى القرون وأنت خالد يامنشد الغرر الفرائد
يا ناظم الدر النضــيد وصائـغ الحكم الخوالـــد
أعليت رايات القريض فصرن للفصحى قواعــد
وغدت لدولتك المنيعة خير عــون في الشــدائد
يا طالب المجد التليد بلغت بالشعر الفراقــد
وتقلــدت أطماحك العصــماء شاهقــة المقالــد
أتظن لو نلت الولاية كنت في التاريــخ خالــد
أتظن لو نلت الضيــاع صـفت بدنيــاك المــوارد
وبلغت ما تصبو اليــه النفس من زهر المقاصــد
وغدوت في دينا العروبة .. في رباها الزهر رائد
وغــدت قصائدك الجميلة في مدائنهــا قلائــد
كلا فليس الشاعر الحســاس يصــلح للمكائــد
ماذا يرى الانسان في كنف الملوك سوى المواجــد
ماذا يــرى غـير المفاســد وهــي للبلــوى ولائــد
والدس والجهــل الذميم وكــل فعل غير ماجــد
والحقد يكتنف القصور فلا ترى الا الحواســد

قل لي بربك هل يعيش الشعر في هدي المفاسـد
والشاعر الانسـان تستهويه اجـواء رواشـد
حيث السنى والانطـلاق وحيث تزدهـر القصائـد
حيث القريحة تزدهي وتجود بالدرر الاوابـد
قل لي أبا النجدات كيف سهوت عن تلك المشاهد
فضربت في الآفاق تنشـد ضيعة تفنـي الخرائـد
وتكبـل الشعر الملحق بالقيـود وبالمصائـد
كلا فما للملك ـ حقا ـ كنت في الدنيا تطارد
بل كنت تنشـد في ذرى الآفاق مجدا غير نافـد
فالخلد ليس ينالـه الا فتى للخلد صائد
لو نلت حقـا ضيعة ما كنت للأمجاد والد
ولما شغلت الناس ألفا من سنيك وأنت راقـد
ايه أبا الأطياب ملكك شامخ ـ في الدهر ـ مارد
أنت الفتى العربي ذو العزمات والبطل المجاهـد
خضت المعارك في سبيل المجد لم تخش الرواعـد
وصرعت في الميدان ليس على النمـارق والوسائـد
تفنى القرون وأنت للشعراء اسـتاذ وقائـد
والشعر: شعرك زاهر في القلب قبل حمى المعاهد

ـ تونس ـ

تقويم السنين والشهور في مجرى التاريخ

عبد الرزاق الهلالي

لقد كانت فكرة الكتابة عن تقويم (الشهور) في مجرى التاريخ مختمرة في ذهني منذ أمد بعيد لا لشيء الا لأني وجدت كثيراً من الناس (وانا واحد منهم) يجهلون الاصول التاريخية التي قام على اساسها تقويم الشهور في مختلف الامم والعصور ، كما وانهم لا يعرفون المبررات والاسباب التي نالت بموجبها هذه الشهور اسماءها أو حددت بسببها ايامها . وعلى هذا وبمناسبة مرور سنة على صدور هذه المجلة الزاهرة رأيت ان الوقت قد حان لاعطاء القارىء فكرة مبسطة عن هذا الموضوع الذي تتأثر به حياتنا في كل لحظة من لحظات العمر دون أن تكون في اذهان الكثيرين منا صورة واضحة عن الادوار التي مر بها هذا التقويم قبل ان يصبح على ما هو عليه الآن من ترتيب ونظام وعلى هذا رحت اتتبع خطوات التاريخ في هذا المجال (قدر الامكان) فخرجت بالصورة الآتي بيانها .

ـ في أبعاد التاريخ ـ

ولما كان الزمان والزمن والزمين والوقت (كما يقول الدكتور مصطفى جواد) كلها امتداداً لشعور الحياة بوجودها واحساسها بنفسها فقد رأى الانسان هذا الامتداد متجزءاً الى جزئين كبيرين هما النهار والليل ولكنهما قلما يتساويان ، وكانا في بعض الاوقات يكادان يستويان استبهاما واظلاما وادلهماما واعتاما ، فلم يستغن عن تقسيم النهار الذي صار وقت اعماله وحركاته واسفاره ووقعاته وعبادته وغزواته ، ثم دعته الحاجة وهي ذات الحاف ولجاجة الى تقسيم الليل كالنهار والشهر والسنة(١) .

وقد عني العراقيون الاقدمون بملاحظة الاجرام السماوية في سماء العراق الصافية وعندما بدأوا يدونون ملاحظاتهم وارصادهم وحساباتهم منذ العهد الاكدي والعهد البابلي القديم انتقلوا من طور المعرفة العملية الى طور علم الفلك الحقيقي . وهكذا نشأ علم الفلك عندهم من حاجتهم لضبط الفصول والزمن والتقويم(٢) . وكان أول مقياس للزمن اعتمده السومريون والاكديون هو (الشهر القمري) اذ نظموا بدءه بظهور الهلال في السماء وكان يستمر حتى ظهور الهلال مرة ثانية وهكذا .

ولكنهم سرعان ما رأوا ان من الضروري ان تدخل في حسابهم فترات أطول • فقامت محاولات لايجاد عدد ثابت من الشهور تتفق ودورة الفصول• ولما لم يكن هناك مقياس مشترك بين وجوه القمر والسنة الشمسية فقد رأوا ان لابد من تحديد سنة (مدنية) يعترف بها في كل مكان • ومع هذا فان هذه المحاولة لم تنجح اذ لم يستطع احد من الملوك فرض قائمة موحدة باسماء الشهور في كل انحاء الامبراطورية •

أما تحديد السنين عندهم فقد كان يتم بطريقة تجريبية وفي بعض الاحيان كانوا يفرضون شهرا عرضيا بعد الشهر السادس وآخر بعد الشهر الثاني عشر فتصبح السنة مكونة على هذا الاساس من (١٤) شهرا(٣) •

وقد استطاع حمورابي فيما بعد أن يحدد اسماء الشهور نفسها في كل انحاء الامبراطورية ولكنه لم يدخل أي تعديل على العادة المتبعة منذ عهد ملوك (اجادة) حين كانوا يسمون كل سنة من سني حياتهم باسم أهم حادث تم خلالها كاقامة تمثال او انكسار جيش للعدو او تعيين كبير الكهنة أو حدوث فيضان أو انتشار وباء او ما الى ذلك(٤) •

ـ ما عند اليونان ـ

اما اليونانيون القدماء فلم يكن عندهم تقويم عام موحد ، بل كان لكل دولة تقويم خاص بها • وحتى الشهور نفسها كانت تتغير اسماؤها في الدويلات المختلفة •

وكان التقويم الاثيني في الواقع تقويما دينيا فلا عجب ان كانت اسماء الشهور عندهم تسمى باسماء ما يقام خلالها من اعياد دينية(٥) •

وكانت هذه الشهور (١٢) شهرا هي حسب تسلسلها الزمني (هكتمبيون ، ميتاجيتنيون ، بويدروميون ، بيانيبسيون ، ميامتكريون ، بوسيدون ، جمليون ، انشتيون ، ايلافيبوليون ، ماينيشيون ، تراجيليون ، سكروفريون) •

تقويم أتكا

وبموجب هذا التقويم اليوناني كانت الشهور تحسب بمنازل القمر ، والسنين بابراج الشمس ، وكان عدد ايام السنة (٣٦٠) يوما باعتبار اشهرها قمرية ورغبة منهم في التوفيق بين حساب السنة وحساب الشمس والفصول راحوا يزيدون (شهرا) على كل سنتين • وهذا الحساب نفسه يجعل السنة تطول عشرة ايام فوق ما يجب أن تكون ولذلك وضع (صولون) النظام الذي يقضي بان تكون أيام الشهور القمرية (٣٠ يوما) تارة و (٢٩ يوما) تارة أخرى هكذا بالتناوب • على أن يقسم كل شهر الى (ثلاثة أسابيع) وفي كل اسبوع عشرة أيام (أو تسعة) وتبقى بعد هذا (٤ أيام) صححها اليونان بحذف شهر من كل ثماني سنين •

المصريون يصلحون التقويم اليوناني

وعندما تولى العرش (يوليوس قيصر) سنة (٤٦ ق٠م) استقدم لاصلاح السنة (سوسيجينيس) الفلكي المصري من مدينة الاسكندرية سنة (٤٤ ق٠م) رغبة منه في اصلاح التقويم اليوناني فصححه ومنذ ذلك التأريخ أصبح الحساب الجديد يعرف باسم (الحساب اليولياني) او اليولي نسبة الى (يوليوس) وجرى عليه اليونان والرومان ٠ وبموجب هذا الاصلاح تقرر ان تكون أيام السنة الشمسية ٣٦٥ يوما على أن يزاد كل سنة رابعة يوم واحد واصبح عدد أيام الشهور بموجبه ما بين (٣١ و ٣٠) يوما ما عدا شهر (شباط) فانه في السنة البسيطة (٢٨) يوما و(٢٩) يوما في السنة النسيئة (الكبيسة) ـ ولا تكون السنة كبيسة الا اذا صحت قسمتها على أربعة قسمة تامة ـ وبقي الحال كذلك الى السنة (٨ ق٠م) عندما أمر (اوغسطوس) قيصر بترك الكبس (١٢ سنة) ثم يجرى بعد اتباع نفس الخطة السابقة[٦] ٠

البابا غريغوريوس

وفي عام ١٥٨٢م قرر البابا (غريغور الثالث عشر) القيام بخطوة اصلاحية في هذا التقويم فاعتبر (اليوم الخامس) من شهر اكتوبر عام ١٥٨٢م هو اليوم (الخامس عشر) منه ، وأصبح هذا اليوم (أي ١٥ اكتوبر ١٥٨٢م) مبدأ للتأريخ الغريغوري الذي بات يدعى بالاضافة الى ذلك (بالتأريخ الافرنجي)[٧] ٠

وقد أمر البابا غريغور ان يضاف (يوم كامل) كل أربع سنوات ولكنه لتلافي الخطأ في المستقبل رسم بان تحذف (ثلاثة أيام) في كل (٣٨٧ سنة) او بالتساهل في كل أربعة قرون[٨] ٠

أشهر السنة عند الرومانيين

وكانت أشهر السنة عند الرومانيين عشرة أشهر فقط كما وضعهما (روملوس) باني روميه اذ جعل أولها شهر (آذار) وآخرها (كانون الاول) وكانت ايامها (٣٠٤) فتأخر ابتداء كل سنة عندهم عن التي قبلها نحو (٦١) يوما فكانوا يزيدونها عليها ويسمون هذه الايام بالايام المكملة لتصير (٣٦٥) يوما ٠ فلما تولى (توماس بمبيليوس) ملك رومية الثاني سنة ٦٧١ ق٠م زاد على سنتهم (شهرين) آخرين اسمى الاول منهما (يانواريوس) نسبة الى (جانوس) والثاني (فبراوريوس) فصارت الاشهر (١٢) شهرا ، الا ان تسلسل الشهور بقي على حاله ، اذ ظل (آذار) بداية كل سنة حتى اذ حلت سنة ٥٣ ق٠م جعلوا شهر (يانواريوس) اول شهور السنة و (فبراوريوس) ثاني شهورها وبقيت الشهور الاخرى على حالها ٠

شباط المسكين

ومن لطيف مايرويه تاريخ التقويم الغربي عن شهر (فبراوريوس) أي شباط ، ان الرومان كانوا يكرهونه فجعلوه أقصر الشهور عندهم اياما · وما يقال في هذا الصدد انهم استعاروا منه (يوما) اضافوه الى شهر (اغسطوس) لتكون ايامه (٣١) يوما حتى يتساوى بعدد ايام شهر (يوليو) أي تموز ، اذ ليس معقولا ان يكون الشهر المسمى باسم القيصر (اغسطوس) أقل عددا في الايام من الشهر المسمى باسم القيصر (يوليوس) !!

الشهور الرومية والسريانية :

أما اسماء الشهور الرومية الاثنى عشر ، وما يقابلها من اسماء الشهور السريانية فهي حسب التقويم الغربي كما يلي :-

١ - يناريوس (يناير) وهو أول شهور السنة الغربية سمي بهذا الاسم كما رأينا نسبة الى (جانوس) وعدد ايامه (٣١) يوما · وهو بالانكليزية January يقابلـه بالسريانية (كانون الثاني) وكانون باللغة السريانية بمعنى الشتاء ·

٢ - فبراريوس (فبراير) وهو ثاني شهور السنة الغربية واسمه مشتق من كلمة (فبريوم) السابينية الاصل ومعناها (مطهر) لان الرومان القدماء كانوا يقيمون فيه اعياد (التطهير) و (التكفير) السنوية العامة لتكريم الموتى · وعدد ايامه (٢٨) في السنة البسيطة و (٢٩ يوما) في السنة الكبيسة · وهو بالانكليزية February ويقابله من الاشهر السريانية شهر (شباط) وشباط باللغة السريانية تعني (الضرب بالسوط) وذلك كدليل على كثرة المطر وشدة البرد فيه ·

٣ - مارتيوس (مارس) وهو الشهر الثالث من السنة سمي باسم (مارس) تيمنا .باسم والد (روميلوس) باني مدينة رومية أو من اسم (المريخ) اله الحرب · وعدد ايامه (٣١) يوما· ويقابله في الاشهر السريانية شهر (آذار) الذي يعني باللغة العبرانية الحصاد او البيدر · ويسميه الانكليز March وسمي عند الدولة العثمانية باسم (مارت) وقد اعتبر عندها أول السنة المالية او الرومية ·

٤ - ابريليوس (ابريل) اسمه اللاتيني Aprils بمعنى التفتيح وعدد ايامه (٣٠) يوما ·· ويقابله في الاشهر السريانية (نيسان) ونيسان كلمة عبرية بمعنى الزهرة اشارة الى ان الاشجار تفتق فيه براعمها · وفي هذا الشهر جرت عادة الافرنج على (التكاذب) ويسمى أول يوم منه عند الاميركان والانكليز (يوم المجاذيب أو جنون نيسان) وعند الفرنسيين (يوم السمك) · وهو بالانكليزية April .

٥ - مايس (مايو) واسمه منسوب الى الالهـة (مايا) ابنـة الملك وام

عطارد من المشتري وهي رمز الارض الخصبة يقابله من الشهور السريانية شهر (آيار) ، وايار اما تحريف لكلمة (آور) العبرانية بمعنى الاشراف واما فارسية بمعنى (الربيع) وعدد ايامه (٣١) يوما وهو بالانكليزية May

٦ – يونيوس (يونيو) سماه (روميلوس) باني روميه باسم Junius اما حفظا لذكر رجاله الذين كان يسميهم جونيوس او باسم (جونون) المعروفة عند اليونان وهي ابنة زحل وزوج المشترى وام المريخ وقد اشتهرت بالاساطير بحسدها وقساوتها ٠

ويقابله بالاشهر السريانية (حزيران) وعدد ايامه (٣٠) يوما ٠ وهو بالانكليزية June.

٧ – يوليوس (يوليو) سمي هذا الشهر باسم (يوليوس) قيصر وكان قد ولد في الثاني عشر منه وسماه الرومان تيمنا باسمه وعدد ايامه (٣١) يوما ٠ وهو بالانكليزية July ٠ ويقابله في الشهور السريانية (تموز) وهو لفظ سرياني بمعنى عرق الحياة كما ان (تموز) اله كلداني أيضا ٠

٨ – اغسطوس (اغسطوس) كان اسمه عند قدماء الرومانيين (سكستيليس) اى السادس على اعتبار ان اول السنة شهر آذار ، ثم سمي (اغسطوس) نسبة الى اغسطوس قيصر وكان هذا الشهر بالحساب اليولياني (٣٠ يوما) فلما سمي باسم (اوغسطوس) قيصر لم يشأ هذا القيصر ان يكون شهره أنقص من شهر تموز المسمى باسم (يوليوس) قيصر فاخذ يوما من شباط وأضافه اليه فصار عدد ايامه (٣١) يوما ٠ ويقابله بالشهور السريانية شهر (آب) وآب اسم كلداني الاصل استعمله العبرانيون بعد سبي بابل وهو بمعنى الاثمار بعد نضجها وفيه يتم ذلك ٠ وهو بالانكليزية August .

٩ – سبطمبر (سبتمبر) ان معنى كلمة سبتمبر عند الرومان تعني (السابع) اذ كان هذا الشهر في (الروزنامه) الرومانية الشهر السابع عندما كان أول السنة عندهم شهر آذار لكنه عندما اصبح شهر (كانون الثاني) أول السنة أصبح (سبتمبر) الشهر التاسع من السنة الغربية ، وعدد ايامه (٣٠) يوما ٠ وهو بالانكليزية September ٠ ويقابله بالاشهر السريانية شهر (ايلول) ويقال ان ايلول كلمة كلدانية او فارسية ٠

١٠ – اقطوبر (اكتوبر) ويعني باللاتينية (الثامن) ويقابله في الشهور السريانية (تشرين الاول) وكلمة تشرين كلدانية بمعنى (الابتداء) وعدد ايامه (٣٠) يوما ٠ وهو بالانكليزية October .

١١ – نوفمبر (نوفمبر) ويعني باللغة اللاتينية (التاسع) واسمه كلداني وعدد ايامه (٣٠) يوما وهو بالانكليزية November .

١٢ – ديسمبر (ديسمبر) ويعنى باللغة اللاتينية (العاشر) وهو آخر شهور السنة الشمسية ويقابله في السريانية (كانون الاول) وهو بمعنى فصل الشتاء وعدد ايامه (٣١) ويوما وهو بالانكليزية December

العرب وتقويم السنين

ولقد عني العرب في جاهليتهم بالانواء والكواكب والنجوم وتقسيم السنة الى شهور واسابيع وايام وتفريقهم بين السنين الشمسية والسنين القمرية واستعمالهم (الكبس) لتثبيت الوقت وغير ذلك مما لا يمكن وقوعه عند قوم ليس لهم علم ومعرفة بعلم الانواء ، كما انهم ساروا على فكرة تقسيم السماء (الى بروج) وكانوا يعرفون منازل القمر ووجود افلاك للاجرام السماوية تسبح فيها ٠

وقد كان الجاهليون مثل غيرهم ، يقسمون السنة الى فصول بحسب الحاصل والزرع وبحسب البرد والحر(٩) وكانت السنة تتألف عند العرب الشماليين من (١٢) شهرا والأهلال هو المبدأ الذي سار عليه الجاهليون في تعيين أوائل الشهور ، فاذا اختفى القمر ولم يظهر خرجوا لمراقبة الهلال وتثبيت مبدأ الشهر ٠

شهور العرب العاربة

ويذكر أهل الاخبار ان هناك شهورا اهملت وتركت ، استعملتها العرب العاربة ، وقد أوردوا أسماءها مع بعض الاختلاف في اسم الشهر الواحد وفي ترتيب هذه الشهور في بعض الاحيان ٠ ولما اقر الاسلام الشهور التي كان يستعملها أهل مكة عند ظهوره ، ماتت تلك الشهور كما مات غيرها وتسيها الناس ولم يستعملوها(١٠) وهذه هي الاشهر كما رتبها البيروني وهي :(١١)

« المؤتمر ، ناجر ، خوان ، حنين ، زباء ، الأصم ، عادل ، نافق ، واغل ، هواع ، رنة ، برك »

وقد أعطي لكل شهر من هذه الشهور تفسير خاص عن سبب تسميته باسمه(١٢) ٠

الشهور العربية قبل الاسلام

والذي يبدو من دراسة تاريخ التقويم العربي ان العرب لاسيما في منطقة مكة كانوا قد اتخذوا لهم شهورا جديدة ويقال ان أول من وضع اسماء هذه الشهور الجديدة هو (كلاب بن مرة) قبل ظهور الاسلام بقرنين تقريبا ٠

اما هذه الشهور فقد جرى تقسيمها من الناحية الدينية عندهم الى قسمين :

١ ــ شهور مقدسة خصت بآلهتهم لا يجوز فيها قتال ولا بغي ولا انتهاك لحرمات ، وهي أشهر حرم وكان عددها (أربعة) ثلاثة منها متواليات هي : ذو العقدة ، وذو الحجة ومحرم ٠ وشهر رابع منفرد هو شهر (رجب) ويقع بين جمادى الاخرة وشعبان ٠

٢ ـ شهور غير مقدسة : وهي الشهور الثمانية الباقية وكانوا يقاتلون فيها فيغزو بعضهم بعضا •

اسماء الشهور العربية ومعانيها :

١ ـ المحرم سمته العرب (المحرم) لتحريمها الحرب والغارات فيه •

ومما تجدر الاشارة اليه بالنسبة لهذا الشهر انه لابد من دخول (ال) اداة التعريف على (محرم) لان لفظة (محرم) دلالة دينية يراد بها كل شهر من الاشهر الحرم ، فكل شهر من هذه الشهور الحرم هو (محرم وحرام) ومن ضمنها شهر (المحرم) فدخلت (ال) على هذه اللفظة (محرم) لتخصيصها وجعلها علمية خاصة بهذا الشهر •

٢ ـ صفر : سمي كذلك لان المدن كانت تخلو فيه من أهلها بخروجهم الى الحرب •

٣ ـ ربيع الاول } سميا كذلك لارتباع الناس والدواب فيهما او
٤ ـ ربيع الثاني } لمجيئهما في زمن الخريف •

٥ ـ جمادى الاولى } لمجيئهما في زمن الشتاء وجمود الماء فيهما •
٦ ـ جمادى الثانية }

٧ ـ رجب : وقد نسب أهل الاخبار شهر رجب الى مضر فقالوا (رجب مضر) وقيل انه اضيف الى هذه القبيلة لانهم كانوا يحافظون على تحريمه اشد من سائر العرب[١٣] •

ولما كان هذا الشهر من الشهور الحرم عند الجاهليين فقد كانوا يرجبون فيه فيقدمون الرجبية وتعرف عندهم بالعتيرة وهي ذبيحة تنحر في هذا الشهر • وذكر ان العرب كانت تصوم فيه ، وتمير أهلها وكان يأمن بعضهم بعضا ويخرجون الى الاسفار ولا يخافون •

٨ ـ شعبان : وسمي كذلك لانشعاب القبائل فيه لشن الغارات وطلب الماء •

٩ ـ رمضان : وسمي كذلك لمجيئه في شدة الحر ورمض الارض • والوجه الآخر كما يقول (المسعودي) انه اسم من اسماء الله تعالى ذكره •

١٠ ـ شوال : سمي كذلك لان الابل كانت تشول باذنابها (من شهوة الضراب) وقد تشاءمت به العرب ولذلك كرهت التزويج فيه •

١١ ـ ذو العقدة : سمي كذلك لقعودهم فيه عن الحرب والغارات لانه من الاشهر الحرم •

١٢ ـ ذو الحجة : سمي كذلك لاقامتهم مناسك الحج فيه وهو من الاشهر الحرم •

هل هذه الاشهر ثابتة ؟

ويبدو من التفسير المعطى لمعاني اسماء هذه الشهور ان هذه الشهور ثابتة ، ولكن اهل الاخبار يؤكدون ان شهور الجاهلية لم تكن ثابتة بل كانت على نحو ما نراه في الاسلام وانهم كانوا يحجون في الشهور الاربعة ، ثم أرادوا ان يحجوا في وقت ادراك سلعهم من الأدم والجلود والثمار وغير ذلك وان يثبت ذلك على حالة واحدة وفي أطيب الازمنة وأخصبها فتعلموا (الكبس) من اليهود المجاورين لهم وذلك قبل الهجرة بما يقرب من مئتي سنة(١٤) .

وكانت العرب في الجاهلية (تكبس) في كل ثلاث سنين (شهرا) وتسميه (النسيء) أي التأخير .

وقد ذكر بعض الاخباريين ان (نسيء) العرب كان على ضربين احدهما : تأخير شهر المحرم الى صفر ، لحاجتهم الى شن الغارات وطلب الثارات .

والآخر : تأخير الحج عن وقته تحريا منهم للسنة الشمسية فكانوا يؤخرونه كل عام ، احد عشر يوما حتى يدور الدور فيه الى (٣٣) سنة فيعود الى وقته .

ويفهم من هذا انهم كانوا يريدون بهذا الكبس احلال شهر في مكان شهر آخر للاستفادة من ذلك في التحليل والتحريم واضافة الفرق الذي يقع بين السنة الشمسية والسنة القمرية الى الشهور القمرية لتلافي النقص الكائن بين السنتين ، ولتكون الشهور القمرية ثابتة لا تتغير في مواسمها المعينة(١٥) .

الاسلام والنسيء

ولما جاء الاسلام حرم النسيء وجعله (زيادة في الكفر) فقد قال الله تعالى في سورة التوبة :

« ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السماوات والارض ، منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم ، وقاتلوا المشركين كما يقاتلونكم كافة . واعلموا ان الله مع المتقين . انما النسيء زيادة في الكفر ، يضل به الذين كفروا ، يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطؤا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله ... » .

ويذكر بعض أهل الاخبار ان (عمرو بن لحي الخزاعي) أول من نسأ الشهور عند العرب .

وقد كان الجاهليون يعملون بالنسيء كما رأينا لتكون أوقات الحج في اوقات ملائمة ، وكذلك الاسواق المتصلة بها . ولما كان من الصعب على الاعراب معرفة ذلك وحفظه وكذلك سائر الناس الذي يقصدون مكة للحج ، صار لزاما اعلان النسيء في الحج ، وقد اختص بهذا الاعلان قوم من كنانة ،

ويظهر انهم كانوا اصحاب حظ من العلم والتوقيت وبحفظ الاشهر ، فقاموا به • وكان صاحبهم الذى يتولى هذه المهمة يقوم في آخر الحج باعلان ذلك للناس وبتثبيت الشهور وتسميتها ليعرفوها ويأتوا الى الحج في الاجل المعين الموسوم • وكان اللقب الذي يعطى لمن يقوم بهذا العمل هو (القلمس) وجمعه (القلامسة) ومن معانيه في معاجم اللغة : السيد العظيم ، الرجل الخير المعطاء والمفكر البعيد الغور ، الداهية في الرجال الخ •

والناسيء عند اليهود هو الرئيس الديني وكان يقوم عندهم بتقديم وتأخير الشهور ويعين مواعيد الاعياد والصيام ويذيع النتيجة ، بواسطة وفود الى الطوائف اليهودية المختلفة •

ايام الاسبوع في الجاهلية

وقد اعتبر الجاهليون مبدأ اليوم من الغروب ، كما كان الحال عند اليهود ، اذ يبدأ اليوم عندهم من وقت غروب الشمس وينتهي بابتداء الغروب التالي له ، ولهذا صارت الليلة عندهم قبل النهار وغلبت العرب الليالي على الايام في التاريخ ، لان ليلة الشهر سبقت يومه ، ولم يلدها ، وولدته ، ولان الأهلة لليالي دون الايام وفيها دخول الشهر •

وقد أوردت كتب اللغة والاخبار اسماء الايام التي كانوا يستعملونها في جاهليتهم ، لكن الاسماء ماتت وحلت محلها اسماء اسلامية • فاسماء الاسبوع عندهم حسبما يقابلها من ايام اسبوعنا اليوم هي :ـ

١ ـ شيار : السبت

٢ ـ أول : الاحد

٣ ـ أهون : الاثنين

٤ ـ جبار : الثلاثاء

٥ ـ دبار : الاربعاء

٦ ـ مؤنس : الخميس

٧ ـ عروبة او العروبة : الجمعة

ويرى المؤرخ الدكتور جواد علي ان اسماء ايام الاسبوع المستعملة عندنا كانت معروفة بيثرب ومكة قبل الاسلام وقد تعلمها أهل يثرب من اليهود لان هذا الترتيب للاسبوع مبني على قصة الخلق الواردة في التوراة ، الا انه يرى ان لفظة (الجمعة) تسمية عربية خالصة أحلها الاسلام في مكان (عروبة) الجاهلية (وعريب هاشبات) العبرانية • وانها تسمية تخصصت بهذا اليوم الذي عظمة الاسلام وميزه على سائر الايام بـ (صلاة الجمعة) التي يراد بها الاجتماع والجماعة •

التقويم الاسلامي الهجري

واذا كانت الامم الغربية والشرقية أو بعض الطوائف الدينية قد حددت لها (يوما) أو حدثا وقع في تاريخها القديم ، مبدأ لتقويم السنين عندها فان العرب الى ما قبل هجرة الرسول الكريم من مكة الى يثرب ، لم يكن لهم يوم معين لذلك ، بل كانوا يؤرخون السنين بما يقع فيها من وقائع وأحداث بارزة .

فقد ذكر ان اهل الحجاز كانوا يؤرخون بالحوادث العظام التي حدثت لهم وذكروا مثلا على ذلك (عام الخنان) وهو عام وقع فيه داء عضال فتك بالناس وبالأبل فأرخوا به .

وقد فعل المسلمون كذلك في صدر الاسلام فسموا كل سنة مما بين الهجرة والوفاة باسم مخصوص بها ، مشتق مما اتفق فيها للنبي (ص) .

فسموا السنة الاولى بعد الهجرة سنة (الأذن) والثانية (الامر بالقتال) والثالثة (التمحيص) والرابعة (الترفئة) والخامسة (الزلزال) والسادسة (الاستئناس) والسابعة (الاستغلاب) والثامنة (الاستوا) والتاسعة (البراءة) والعاشرة (الوداع) فكانوا يستغنون بذكرها عن عددها بالنسبة للهجرة(١٦) .

ومن ايامهم التي تذكرها كتب التواريخ والاخبار في هذا الشأن ، يوم الفجار ، حلف الفضول ، يوم القضاء ، والربيع والرحابة والسرارة وداحس والغبراء ويوم بغاث وحاطب ومضرس ومعبس الخ(١٧) .

الخليفة عمر بن الخطاب (رضي) يضع التاريخ الهجري

وفي السنة السابعة عشرة للهجرة اقتضت الحال وضع تاريخ ليكون مبدأ لحساب السنين عند المسلمين فجمع الخليفة عمر بن الخطاب الصحابة (رضي الله عنهم) وبعد ان بحثوا في الامر اختاروا الهجرة النبوية مبدأ للتقويم الاسلامي وعدوا رأس سنتها وهو يوم (اول المحرم) وعلى هذا كانت السنة الاولى للهجرة قد بدأت يوم الجمعة الاول من محرم الحرام الموافق لليوم السادس عشر من تموز عام ٦٢٢م وبقيت الأشهر العربية على حالها من حيث التسلسل ومن حيث اتباع السنة القمرية .

السنة الخراجيـة

لما كانت الضرائب في الدولة الاسلامية في أول الامر ضرائب اسلامية خالصة ، وهي ضريبة رؤوس أهل الذمة من اليهود والنصارى ، والزكاة المفروضة على المسلمين فقد كانت هذه تحسب على أساس الشهور ، شأنها شأن اجور الارحاء والمستغلات والارض المقطعة وسائر ما يجري على المشاهرات وكانت هذه الضرائب الشهرية تجري بحسب السنة الهلالية .

وكان التقويم الهلالي يعمل به في المدن الكبيرة التي يقل اعتمادها على

الزراعة ، اما في الارض الزراعية فلم يكن بد من ان يتمشى نظام الضرائب مع حال الزراع واوقات الغرس والحصاد ، أي انه لم يكن بد من السير طبقا للسنة الشمسية · وكانت هذه السنة الشمسية هي القبطية والشامية في البلاد التي كانت تحت حكم الروم · اما في الشرق فكانت هي السنة الفارسية· وفي فارس كان يفتتح الخراج في ابان (نوروز)(١٧) ·

وقد شعر المسلمون ايام الامويين والعباسيين بلزوم الاخذ بالسنة الشمسية لحاجة الخراج لتعيين مواعيد الجباية فاستعملوا (السنة الخراجية) وللتوفيق بين التاريخين في السنة الخراجية والسنة الهلالية اتبعوا طريقة (الازدلاق) وهي أرجاع ثلاث سنوات كل مائة سنة ففي ال (٣٣) سنة الاولى حذفوا سنة وفي الثانية حذفوا سنة اخرى وفي ال (٣٤) الباقية من المئة سنة حذفوا سنة ثالثة وهكذا فعلوا في كل مائة سنة(١٨) · واشهر السنين المستعملة في هذا التقويم هي (السنة الجلالية) او الملكشاهية ايام السلجوقيين ثم ان المغول اعتبروا سنة (٧٠١هـ) لتقوم مقام السنة الخراجية التي استعملت في الامور المالية عندهم ·

العثمانيون والسنة المالية والرومية

وقد سارت الدولة العثمانية على هذا الترتيب حتى اصدر السلطان محمد الرابع فرمانا في صفر من عام ١٠٨٨ امر فيه ان تعد (السنة المالية) من سنة ١٠٨٧هـ سنة قمرية وتمحى سنة كل (٣٣) سنة واخرى مثلها في (٣٣) سنة الثانية ثم سنة في ال (٣٤) سنة الباقية وهكذا يتم اسقاط ثلاث سنوات في كل مائة سنة · ويقال لهذه العملية الحسابية (سيويش) أو الازدلاق · ويحتفظ على هذا الاساس بمراعاة السنين الهجرية والمالية معا ، وقد أطلقوا على هذه السنة اسم (السنة المالية) او (الرومية) ·

ثم اعتبروا سنة ١٢٠٥هـ سنة (مالية) واتبعوا (التاريخ الاورثودوكسي) اصلا وبدأوا من شهر (مارت) آذار ، ثم اعتبروا بعد ذلك سنة ١٢٥٥هـ سنة مالية ، ودام العمل بها · وفي ايام السلطان عبدالعزيز (١٢٨٨هـ) كان موعد الازدلاق فلم يفعلوا فحدث اختلاف بين السنتين الهجرية والمالية وتزايد حتى احتلال بغداد سنة ١٣٣٥هـ ـ ١٩١٧م(١٩) ·

وهكذا كان العثمانيون يطلقون على هذه السنة (رومية) نسبة الى الروم الذين أخذت عنهم الحكومة الحساب الشمسي او (مالية) لانهم يريدون بهما انها وضعت لحساب المال او (مارتية) لابتدائها في شهر مارت ·

العراق والسنة الايلولية

جاء في كتاب (كلشن خلفا) في حوادث سنة ١٠٩٢هـ (١٦٨١م) ان والي بغداد الوزير ابراهيم باشا استأذن السلطان بأن يعتبر أول ايلول (شرقي)

رأسا للسنة في شؤون المقاطعات لتداخل المحصولات بعضها ببعض ، فصدر فرمان يجير للوالي اتخاذ هذه الاصول وقد ظل العمل بهذا جاريا اذ لم تنصرف الحكومة (في الولاية) عن اعتبار (أول ايلول) رأسا للسنة في شؤون الالتزامات لاسيما المحصولات الارضية الا بعد مجيء مدحت باشا ٠

ولا يزال الزراع اليوم يحسبون مواسمهم في الزراعة تبعا للحساب الشمسي غير معتقدين بصحة الحساب الغربي (الغريغورى)(٣٠) ٠

الدولة العراقية الجديدة

ولما انتهى الحكم العثماني للعراق عام ١٩١٨م ومنذ أول يوم من ايام الاحتلال البريطاني استعمل التاريخ الميلادي في البلاد وفي ايام الدولة العراقية الجديدة استعمل معه التاريخ الهجري ولا يزال الحال كذلك حتى يومنا هذا ٠

واعتبر يوم ١ نيسان من كل سنة ميلادية مبدأ للسنة (المالية) التي تنتهي بيوم (٣١) آذار من السنة الميلادية التالية ٠

الجمهورية العربية المتحدة والتقويم الغربي

ولما كانت مصر من الاقطار التابعة للدولة العثمانية فقد كانت تستعمل حتى عام ١٨٧٥م تقويمين هما التقويم الهجري والتقويم القبطي ٠

ونظرا لكون التقويم الاخير لا يزال معمولا به عند الاقباط في مصر ايضا فها نحن اولا. ندرج فيما يلي اسماء شهور السنة القبطية وهي :

١ ـ توت وهو أول شهور هذه السنة ويقابله (ايلول الرومي)
٢ ـ بابـه ٠
٣ ـ هاتور ٠
٤ ـ كيهك ٠
٥ ـ طوبة ٠
٦ ـ امشير ٠
٧ ـ برمهات ٠
٨ ـ برمودة ٠
٩ ـ بشنس ٠
١٠ـ بؤرنة ٠
١١ـ ابيب ٠
١٢ـ مسري : وهو آخر السنة القبطية ويقابل (آب الرومي) ومما تجدر الاشارة اليه ان عدد ايام كل شهر فيها هو (٣٠ يوما) ٠

وعلى هذا فان السنة القبطية (٣٦٠) يوما الا انهم يضيفون اليها (خمسة أيام وربع) بعد انقضاء شهر (مسري) ٠

وفي كل (أربع سنين) تكون هذه الاضافة (ستة ايام) ويسمون تلك السنة (الكبيس)(٢١) •

التاريخ الغربي أيضا :

وابتداء من شهر (سبتمبر) ايلول من عام ١٨٧٥م اصدر الخديوي (اسماعيل باشا) أمرا يقضي باستعمال التاريخ الافرنجي (الغربي) منذ ذلك اليوم وهكذا كانت مصر قد سبقت جميع الدول الاسلامية باستعمال هذا التاريخ وشاع استعمال الشهور الغربية عندهم باسمائها (الرومية) وهي (يناير ، فبراير، مارس، ابريل ، مايو ، يونيو ، يوليو ، اغسطوس ، سبتمبر ، اكتوبر ، نوفمبر ، ديسمبر) أما الشهور السريانية المستعملة عندنا وهي :ــ

(كانون الثاني ، شباط ، آذار ، نيسان ، ايار ، حزيران ، تموز ، آب ، ايلول ، تشرين الاول ، تشرين الثاني ، كانون الاول) فتعتبر غريبة عند الكثير من أبناء الشعب العربي في مصر ، حتى ان بعض الكتاب والصحفيين يستغربون عند اسماعهم بهذه الاسماء •

لابد من توحيد الشهور

وتجاه هذا التباين والاختلاف بين مسميات الشهور المستعملة في الجمهورية العربية المتحدة وبين الجمهورية العراقية والدول العربية الاخرى لابد لنا من الدعوة لاستعمال (شهور) موحدة الاسماء بين هذه الاقطار • ولما كان الاتفاق قائما بالنسبة لشهور السنة الهجرية ، فان الاتفاق ضروري بالنسبة لشهور السنة الميلادية ، وحيث ان الشهور المستعملة عندنا (الشهور السريانية) هي شهور شرقية الاصل ومعروفة عند أكثر أبناء الشعب العربي لاسيما المزارعين منهم ، فاني ارى جعل هذه (الاشهر) أساس اشهر السنة الميلادية ، وترك تلك المسميات الاجنبية الاصل لنتخلص من ذكر التاريخين في كتاباتنا وبياناتنا الرسمية وغيرها •

تحويل السنة الهجرية الى ميلادية وبالعكس

وقبل أن أختم هذا البحث رأيت من المفيد أن أثبت للقارىء الكريم فيما يلي الطريقة التي يتمكن بموجبها من تحويل السنة الهجرية الى ميلادية وبالعكس ، لاني أعرف أن كثيرا من الباحثين واصحاب المصالح كثيرا ما يحتاجون الى هذا التحويل •

أولا : كيفية تحويل السنة الهجرية الى ميلادية •

ان القاعدة المتبعة في هذا التحويل ما يلي

(السنة الهجرية المطلوب تحويلها ناقصا ثلاثة أضعاف السنة الهجرية المطلوب تحويلها مقسوما على(١٠٠) زائدا (٦٢١ر٦) والنتيجة تساوي السنة الميلادية المطلوبة)[٢٢] وعلى هذا تكون القاعدة حسابيا كالاتي :

(السنة الهجرية − (٣ (السنة الهجرية)) / (١٠٠) + ٦٢١ر٦ = السنة الميلادية)

فاذا أردنا تحويل السنة الهجرية (١٣٨٥) الى ميلادية نعمل ما يلي :

١٣٨٥هـ − (٣ (١٣٨٥)) / (١٠٠) + ٦٢١ر٦ = السنة الميلادية

اى : ١٣٨٥ − (٤١٥٥) / (١٠٠) + ٦٢١ر٦ = السنة الميلادية ٠

اى : ١٣٨٥ − ٤١ر٥٥ + ٦٢١ر٦ = السنة الميلادية ٠

اى : ١٣٤٣ر٤٥ + ٦٢١ر٦ = ١٩٦٥ وهو السنة الميلادية المطلوبة ٠

ثانيا : كيفية تحويل السنة الميلادية الى هجرية ٠

ان القاعدة المتبعة في هذا التحويل ما يلي :

(السنة الميلادية المطلوب تحويلها ناقصا (٦٢١ر٦) ويضرب الناتج ب (١٠٠) ثم يقسم الحاصل على (٩٧) والنتيجة تساوي السنة الهجرية المطلوبة) ٠

وعلى هذا تكون القاعدة حسابيا كالآتي :

(السنة الميلادية − ٦٢١ر٦ × ١٠٠) / (٩٧) = السنة الهجرية

فاذا اردنا تحويل السنة ١٩٦٥ الميلادية الى هجرية نعمل مايلي :ـ

((١٩٦٥م − ٦٢١ر٦) × ١٠٠) / (٩٧) = السنة الميلادية ٠

اى : ١٩٦٥ − ٦٢١ر٦ = ١٣٤٣ر٤

اى : (١٣٤٣ر٤ × ١٠٠) / (٩٧) = (١٣٤٣٤٠) / (٩٧)

$$\text{اى : } \frac{١٣٤٣٤٠}{٩٧} = ١٣٨٥\text{هـ وهي السنة المطلوبة}$$ (٢٣)

كلمـة الختـام

وبعد وقبل أن أختم هذا البحث أرجو أن أكون قد وضحت للقـاريء الكريم بعض الحقائق والمعلومات التي كانت خافية عنه ، آملا أن أكون بهـذا التلخيص التاريخي لتقويم الشهور والسنين قد فتحت الطريق أمام الاساتذة المختصين لاضافة ما عندهم من معلومات او تصحيح ما ورد في هذا المقـال ان وجد ، ما دامت (الحقيقة بنت البحث) ومن الله التوفيق .

---

(١) قصة الوقت ص٥ ناجي جواد . بيروت ١٩٥٩ .
(٢) ناجي جواد ـ المصدر السابق .
(٣) بلاد ما بين النهرين ل . ديلابورت ـ ترجمة محرم كمال ـ القاهرة .
(٤) المصدر السابق .
(٥) قصة الحضارة ج٦ (ول . ديورانت)
(٦) تقويم العراق ـ أصدرته جريدة العراق بغداد ١٩٢٣ .
(٧) التوفيقات الالهامية ص٤٩٥ محمد مختار باشا القاهرة ١٣١١هـ .
(٨) مختصر تاريخ الدول لابن العبري ـ بيروت ١٨٩٠ .
(٩) تاريخ العرب قبل الاسلام ـ الدكتور جواد علي ـ بغداد ١٩٦٠ .
(١٠) المصدر السابق ص ٣٧٨ .
(١١) الاثار الباقية من القرون الخالية ص١٦٧ طبعة لايبزك ١٨٧٦ .
(١٢) تاريخ العرب قبل الاسلام المصدر السابق ص٣٨١ .
(١٣) تاريخ العرب قبل الاسلام ص٣٧٥ .
(١٤) المصدر السابق ص٣٨٢ .
(١٥) المصدر السابق ص٣٨٤ .
(١٦) التوفيقات الالهامية ص١ .
(١٧) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع ـ ادم ميتز ص١٨١ .
(١٨) العراق بين احتلالين ج٧ عباس العزاوي ص٤٥ .
(١٩) تاريخ علم الفلك ـ للعزاوي في العراق .
(٢٠) مباحث عراقية ج١ يعقوب سركيس ـ بغداد ١٩٤٨ .
(٢١) كتاب (قوانين الدواوين) ص٢٣٤ .
(٢٢) يصرف النظر في حالة القسمة هذه عن الكسور المتبقية من العدد المقسوم .
(٢٣) راجع تاريخ ابن العبري ، ودليل الجمهورية العراقية لسنة ١٩٦٠ .

المعنى الانساني في الفن [1]

شاكر حسن آل سعيد

« الانسان طرف وعلاقة في مسألة واحدة »

« انا ، أنت ، هو ، هي ، هم » . فاذا كان ثمة تواشيج ما بين كل هذه الضمائر فما أفدح ان اقول اذن « لقد كنت فيما مضى » أو « ها انذا الآن » أو « لسوف انجز كذا وكذا » ؟؟ . الانسان هو الانسانية وليس الانسان النسخة . هو الحياة وليس النموذج الحي ، وهو بؤرة كل هذه الاشعة غير المرئية والتي تصف ركب البشرية جمعاء . الانجاز : فمن خلال القول والفعل والتفكير يتحقق الكل خلال الجزء ، والمتحرك فيما هو ثابت ، والغائب فيما هو حاضر كما ينجز الآخرون .

واذا احتاج الامر في البشرية الى كيان فما ايسر ان يستغنى عن النسخة الاولى كسند ، ومع ذلك فان النسخة الاولى من الانسان ليست أكثر كمالا من القالب ولا قل . انها الصورة السالبة له الا انها دونما (رتوش) .

وفي امسية صيف أو صبيحة شتاء سيستيقظ الكيان البشري باجمعه على أعتراف مكتوم (لجزء) يحطم من حوله القالب كيما يحدد لنا احد طرفين : النهاية أو البداية : الولادة أو الموت .

الانسان الحقيقي - رغم بدئه وانتهائه وبواسطتهما - قابل لان يجعل من كيانه بؤرة مسار الاشعة خلال عدسة فحسب فهو طرفان مجتمعان وليس امتداد ما بين طرفين . وقد لا يكون ادنى ريب في ان يمتلك الانسان ناصيته وان يتحكم بمصيره ، ولكنه مع ذلك امتداده مملوك وتحكم محكوم . ان يدا ترتفع في الفضاء لكيما ترسم علامة استفهام كبيرة هي نفسها يد ترسم علامة تأكيد أو تردد أو تعجب ، وان الانسان الذي يجد ان بمستطاعه ان يريد هو نفسه الذي لا يستطيع ان ينكر . مع ذلك فالانسان لايني يحقق وجوده الذاتي والانسانية جمعاء ، وهو هو

---

(١) القسم الاخير من مؤلف مخطوط بعنوان (الحرية في الفن الحيوي ما بين النظرية والتطبيق) (١٩٥٩ - ١٩٦٠) .

الذي بمستطاعه ان يجحدها معا • لـكن الانسان طرف وعلاقة في مسألة واحدة ، تلك هي حقيقة الركب البشري بل الكوني •

وبالنسبة لسؤال طالما راود أذهان المصلحين من البشر ولم يجد له الانسان اي جواب شاف وهو ما مدى العلاقة بين الانسان والخليقة ؟؟ يظل الجواب حائرا ما بين التدين والالحاد • ولكن ايمانا وجحودا مطلقا لا يوازيه سوى ايمان وجحود نسبي • فاذا كنت مؤمنا بالانسانية فانا ند لمن يجحدها • ترى ما الفارق بين (الغزالي) و (ابن سينا) الا ان يتصوف الاول ويتفلسف الثاني ومع ذلك فان كليهمـا لم يكن صرف العقيدة بل مشوبها(٢) • وهذا ما يؤكد الى حد بعيد حيرة الفكر في الجواب على سؤال مسألة الانسان • والواقع ان حيرة الانسـان في تكوين نظـام بسيكولوجي مع الخليقة يفترض قبل كل شيء احتواءها واستيعابها • فاذا لم يكن الامر كذلك فليس من حيرة فاما ايمان مطبق او الحاد •

الانسان هو هذا المخلوق الثنائي الشخصية ابدا • فهو (ازمة) الخلق والخليقة معا ، وهو [عداء] مستمر من اجل الابداع وليس العقم • مع ذلك فهذا المخلوق الغريب هو [الفة] و [محبة] الجزء للكل والجنس للجنس الآخر والتوصل للحل • انه في الواقع ازمة لانه لن يستقر على حال • فلا ثبات ولا حركة بل كليهما مجتمعين : من الثبات الى الحركة ، ومن الحركة الى الثبات • ومن هنا فانه ـ أي الانسان ـ مركز الـكون ومطوره ، فهـو المخلوق وهو المبدع وهو الضعيف وهو القوي ، وهـو الصورة الصغرى للانسانية جمعاء ... وللقوانين التطور •

* * *

اما بالنسبة للعمل الفني فالانسانية هي ان يعبر الفنان عن هذه الازمة تعبيرا ابداعيا : **ان ينطوي على الثبات والحركة معا** • وعن حدود هذه الازمة : من كونها امتدادا طوليا ، من الماضي الى الحاضر فالمستقبل ؛ الى كونها امتدادا عرضيا من الأنا الى الهو • تلك هي صميم الفكـرة الانسانية في الفن •

تصنع اللوحة [أو مجموعة اللوحات ذات المد Théme الواحد] فاذا كانت ابعادها تقتضي نقل الشكل الخارجي للانسان (كحاضر) ماثل فان ما يظل يعوزها هو انتهاب الوسائل التكنيكية الناظر المقدرة على ان يبني ماضي ومستقبل الانسان • لـكن اللوحة كسطح (طول في عرض) تقتضي جحود الشكل الخارجي كحاضر متوقع • وهنا يكمن سر الابداع والمعنى الانساني في الفن • ذلك انه منذ اللحظة التي لا يقتصر فيه الفن على مجرد بعث الطمأنينـة فيالنفس وذلك بالاقتصار على رسـم الشكل

---

(٢) لم يعتبر الغزالي من المتصوفين السالكين رغم تحوله الاخير نحو التصوف عن الفقه أما ابن سينا فقد كان مابين الفلسفة والتصوف •

الخارجي (أي ان يؤكد الانسان بالوسم ملامحه أو ملامح العالم الخارجي) كحاضر (اذ يكون تعبيره مقتصرا على اللحظة) فسيؤول به الامر الى ان يصبح محاولة للتعبير عن الحقيقة والحقيقة الانسانية ككيان عام خارجي وداخلي (اي ان يرسم الانسان وحدة السلوك الانساني بل الحيوي • وحدة الكيان الانساني بل الارضي بل الكوني) كزمان سرمدي : ماضي وحاضر ومستقبل في آن واحد (ومعنى ذلك ان يرسم الانسان بصورة مجردة) • وهكذا • يلوح الانسان في العالم الفني لاول وهلة ، وهو عار من ابعاده كانسان حي في الطبيعة فهو يفكر ويتكلم ويتحـرك ولكن دون ان يترك اثرا واضحا لـكل ذلك • فاذا فكر : فان تفكيره سيكون ايحاء لنا بما هو معناه ، محتواه • واذا تكلم فسيقول لنا بواسطة التكنيك ما يجسد ايحاءنا وافكاره • لـكن المعضلة تظل في ان يعبر لنا الانسان المرسوم عن تعبيره الحركي عن ديناميته : ذلك انه رهين عالمه ذي البعدين ابدا ، وانما عالم الحركة هو هذا (الفراغ والوقت) : عالمنا الارضي وهنا فان حركة الانسان المرسوم تظل أبدا حركة غير متوقعة والواقع ان حل هذه المشكلة بالذات هي التوصل التكنيكي للفن والانسانية فالجسد البشري مهما رسم مائلا او هامدا جالسا أم واقفا فان ما يزيد همودة هو ان تفقد القدرة على احيائه ، وذلك بان نستنتج بصورة قبلية - بواسطة الاداء - هذا الهمود • ان نسلم بموته ، وحينئذ فان جسدا واعضاء دقيقة الصنع سوف لا تلبث ان تلوح لنا على السطح التصويري وهي اشد عقما من تمثال اكاديمي من رخام ، وعريا من لعبة من لعب الاطفال • ذلك انها اذا كانت تكتسب ، بصورة زائفة ، الفراغ L'espase الى حد ما بواسطة (قوانين المنظور) فان ما سوف تخسره هو الوقت Le temps (٣) اجل فليس من مدى حقيقي للوقت بالامكان استيعابه • وعلى فرض ان الامر سيظل هو ان ما يستغرقه الناظر في استيعاب الانسان المرسوم يظل بعدا خارجا عن عالم اللوحة شأنه في ذلك شأن العمق الذي يخلق لنا وهم المنظور الجوي •

وهكذا • فان حياة الانسان المرسوم تظل ابدا في حالة احتضار مستمر طالما انها تخسر بصورة موضوعية عنصرين هامين من عناصر عالم الطبيعة وهما (الفراغ والوقت) • ومن مشكلة احتضار الانسان يتألف الموضـوع الانساني • فالسطح التصويري - بطبيعته ذات البعـدين - يرفض الفراغ والوقت ، في حين ان الناظر يقبلهما • وما بين هذا التناقض الازلي تبرز مشكلة الوعي الانساني كوسيلة محتومة للقضاء على ذلك لتذليل الازمة : لاستيعاب الانسان المتحرك •

فالوعي الانساني في الفن تجاوز وامتداد مستمر طولي وعرضي في

---

(٣) فالوقت هو مادة أي فن زمني • وفي الفن التشكيلي كعالم له ابعاده الخاصة ينعدم الوقت كيا يستعاض عنه بالآن الزماني •

نفس الوقت • انه اعمق من ان يكون (رؤية) الشكل الخارجي للانسان (منفردا و مجتمعا) • ولكنه (رؤيا) هذا الشكل بصورة لا يغشاها وهم منظوري بل تصور خلاق • فاذا كان من المسلم به ان عالم الفن هو السطح فان من المحتم اذن ان نستغني عن (المنظور والملامح) معا كيما ندركه •

وهكذا • سيعاد اذن رسم الانسان على اللوحة الفنية كرمز للانسانية المتطورة كشهاب يومض في ظلمة ليل بهيم ، وليس كنجمة ماثلة في كبد السماء •

* * *

والواقع ان التعبير في الفن البلاستيكي عن الانسانية المتطورة هو التعبير عن هـذه الانسانية في حالة حركة •• عن الانسان المتحرك كما اسلفنا فاذا كانت مشكلة احتضار الانسان هو معنى الفن الانساني فان التعبير عن الحركة فيه هو (الموقف) Situaltion • التعبير عن تجاوز الانسان النسخة قالبه ؛ وعن انسياب العناصر الفنية في مجالها • عن تجرد الملامح من ملامحها ، والموضوع عن مناسبته •• عن عرى الانسان النسخة اما الانسان الحرية عن آفاق أبدية لا ملامح لانسانها ولا مناسبة ولا قالب • ان حل مشكلة (الفراغ والوقت) يتم حينئذ بضوء التعبير الديناميي • وبصورة جذرية في اعتبار العالم الفني قبل كل شيء عالما فضائيا وليس عالم الكتلة والظهور فحسب • او بمعنى آخر ان ترسم فيه الاشياء وهي منظورة من شتى الجهات وليس من زاوية نظر واحدة (وهو ما كان في سبيله بشكل ما جميع المنجزات التكعيبية من الناحية العقلية والفن المجرد من الناحية الروحية] • وهكذا أيضا فازاء وجهة نظر كهذه تصل ازمة رفض السطح التصويري ببعديه (الطول في العرض) غايتها • وذلك حينما لم يعد الفراغ ازاءها تجسيدا صرفا لقوانين المنظور الجوي Prespective بل التعبير عن رؤيا لاشياء وهي هائمة دونما منظور ما ••• فهي في العالم ما بين ان تخضع لقانون السطح التصويري ذي البعدين وما بين ان تفلت من قبضة عالم الظهور ذي الابعاد الثلاث ولكيما تصبح من عالم آخر متعدد الابعاد •

اما بالنسبة للوقت • فلن تقتصر فيه حينئذ المشكلة على أن ينظر الانسان لحظة ما محدودة بزاوية النظر الواحدة • وانما سينظر حينئذ في أي وقت ، وفي لا وقت • والواقع ان مسألة الوقت تكتسب معنى آخر حينما ينعدم الظهور كيما يستحيل الى حركة • فهو حقيقة الزمان لا كحاضر فحسب ولكن كماض وحاضر ومستقبل في نفس الوقت •

واذن • فالتعبير عن الانسانية والناحية الشكلية هو حرية العنصر الفني في مجال السطح •• فلا علاقات زخرفية ولا ايضاحية • ولكن علاقات حيوية تترجم نفس الفكرة في جميع العناصر • والتعبير عن

الانسانية من الناحية المضمونية هو الكشف عن (الحقيقة) خلال (النسخة) : الكشف عن الانسانية خلال الانسان وليس للحقيقة من فترة او لحظة من الزمان فزمانها زمان سرمدي ٠

* * *

حركة الانسان المرسوم ـ بشتى اشكالها المترجمة هي تكامل الوعي الانساني وفهم قوانين الاداء العام وليس الاقتصار على التكنيك كمهارة ابداعية فحسب ٠ والانسان مهما كان كحقيقة شاملة فهو شكل مبهم ٠ بمستطاعه ن يكون (انا) كما ان بمستطاعه ان يكون الاخرين ؛ وهو ذلك المخلوق الذي يمثل لي طفولتي وشبابي وشيخوختي كما يمثل لي حريتي وعبوديتي ٠ انه حرية الفرد واندماجه بالجماعة كما انه الضعف وانه القوة فهو المخلوق وهو المبدع ٠ وباختصار هو كل ما من شأنه ن يختصر المعاني الانسانية في مبنى واحد ، وان يبلور الابعاد البشرية في بؤرة واحدة ٠ فهو بؤرة الضياء ٠ كما انه طرفها ٠ يولد ويموت ، ينفرد ويجتمع ، يتحرر ويستعبد على عدد اللحظات ؛ على انه في حالة (احتضار ازلي) ٠ ولكن أي أحتضار لانسان مرسوم لا يكاد يوازي لدى الناظر الفج أية (قيمة) درامية الا في ان يكون (مأساة) موضوعية أو (مناسبة) سعيدة ٠

ولكنه ٠ كادراك معنى (الضحية) في قطف (زهرة) من جنينة ، وكادراك معنى (الطغيان) في عقاب طفل (بريء) ٠ فاذا ما قبلت التضحية كأمر مسلم به ، واذا ما قبل الطغيان كتبرير لاستمرار السلطة فان في ذلك مسخا مكينا للمعنى الانساني ونسفا من جذوره ٠

يرسم (الشكل) أو (اللا ـ شكل) الانساني ٠ مفردا أو مجموعا٠ وترسم البيوت ، والفضاء والاشجار والغيوم ٠٠٠ ترسم شتى الاشكال الحيوية ٠٠ او (المجردة) ٠ لكن انسانيتها هي في ان تغدق من مواهبنا ما سوف يحقق وحدة الفرد بالجماعة والكائن البشري بالطبيعة ، وجهد الانسان بالانسانية ٠

فالمعنى الانساني في الفن هو في اخر اشكاله تطور التعبير عن الانسان (من كونه انسانا ما الى كونه كائنا حيا فحسب) انه الحقيقة ٠٠ حقيقة الانسان الحي لانه حر :

بلا ماض وبلا مستقبل ولا حاضر [او بها جميعا]
بلاد تفرد ما بين الانا والهو [او بهما معا]
ولكنه مع ذلك ٠
الشعور الديناميي والحب الصميم والابداع ٠

الفارابي

ابراهيم الخال

أي فنان يتحسس جمال الطبيعة ، بل وأي مفكر يتأمل جمال صنع الله في هذا الوجود ، ويرى غوطة دمشق وظلالها الوارفة ، ثم لايتمنى أن يقضي فضلة من عمره ، ولو في كوخ بسيط تحت أفيائها ، عند منسرب الماء من بردى ، بين أفانين الزهر والورد ، وحيث لا يعكر عليه صفو خلوته ، غير أصوات الدوالي ، وغير أناشيد الطيور ؟ .

هنا في هذا العالم الفريد من نوعه على بساط الدنيا الاسلامية المترامية الاطراف ، كان الذي يطل منا على الغوطة في سني النصف الاول من القرن العاشر الميلادي ، يرى واحدا من هؤلاء المفكرين في سر السماوات والارض ، وقد جلس عند منسرب الماء تحت تلك الظلال ، تارة يحدق طويلا في السماء ، وتارة يلتفت الى محبرته وقراطيسه يسطر فيهـا ما عرض له من جـديد الأفكار ، ثم يمضي بعد هذه وتلك وقد أتعبه طول الكتابة والتفكير ، الى خمرته المطيبة بالريحان مما كان يرسله اليه الامير العربي التغلبي سيف الدولة على سبيل الود والصداقة ، والى « قلوب الحملان » التي تعود تناولها مع « الخمرة الريحانية » على الطريقـة البغدادية التي تعلمها يوم كان مقيما ببغداد .

بل وربما كان الذي يمر به آنذاك ، يراه ينشد مع من اجتمع عنده من الزهاد الأتقياء ، أناشيد مغرقة في الحب الالهي على أنغام الناي و « القانون » ، تحت سماء دمشق الصافية التي طرزتها باللامعات من الجواهر كف فنان أصيل ، على أضواء الشموع المتراقصة التي كانت تبدد من حوله حلكة الليل البهيم !

لكن هذا المتفلسف الذي كانت تنحني له جبـاه كبار رجال العصر احتراما ، أمثال سيد بني حمدان ، لم يكن من أصحاب الضياع والرياض أو البساتين يومذاك بحال ، انما كان من بعض « نواطير » بساتين الغوطة الفقراء . لقد وفد على الديار الشامية من العراق ، وآثر اعتزال الناس على هذه الصورة ، بعد أن أصبحت عاصمة الخلافة العباسية مسرحا للفتن وتقلب الاحوال في عصر الخليفتين المقتدر والراضي ، مما لا يستطيع أن يعيش معه

بهدوء أي فيلسوف ينشد السكينة والاطمئنان ·

ذاك هو أبو نصر ، محمد بن محمد بن أوزلغ بن طرخان ، أرسطو العرب والمسلمين ، ومعلم الفلسفة الثاني بعد أرسطو الذي يعتبر معلمها الاول · ولقد لقب أبو نصر ب « الفارابي » نسبة الى مدينة « فاراب » التي ولد فيها ، وهي مدينة فارسية تقع في اقليم خراسان ·

والذي يؤسف له ، هو ان الفارابي لم يؤرخ لنفسه ، ولا أرخ له أحد من تلامذته ، لذلك فان المعلومات المتيسرة عن حياته في شبابه غير وافية بالنسبة لدارسيه · كل الذي علمناه عنه ، في هذه الفترة ، انه ولد في حدود عام ٢٥٧هـ ، وان أباه كان أحد قادة الجيوش الاسلامية في فارس · عليه فان الذي نقدره استنتاجا ، هو ان الفارابي ، ولوالده مثل هذا المركز الاجتماعي والرسمي ، لابد وان يكون قد نشأ في بيت عريض الجاه ، على جانب كبير من السعة واليسار ، وانه أمضى شبابه في حياة سعيدة هانئة في فارس ، وان حالته المالية الجيدة قد ساعدته على الانصراف الى الدراسة والتتبع دون الاشتغال والعمل ، وكان مما درسه في فارس في فترة شبابه كما يظهر ، الطب ، اذ لم نجد شيئا خلال تدقيقنا في سيرته انه درس هذا العلم في بغداد أوالشام · لكنه لم يدرس الطب لغرض التكسب ، انما على سبيل عمل الخير ونفع الناس أغلب الظن ·

وعندما بلغ الفارابي الاربعين من عمره وقد استقل بنفسه ، توجه الى بغداد طلبا للمزيد من علوم العصر ، ويظهر لنا أن سفرته الى عاصمة الخلافة قد حدثت بعد وفاة امه وأبيه ، اذ لم يعرف عنه بأنه عاد الى فارس بعد مغادرتها ، ولا انه راسل أحدا منهما خلال اقامته في العراق والشام ·

ولقد عاش الفارابي في العراق على عهد المقتدر دونما شك · وعلى عهد المقتدر أيضا ، قامت دولة بني حمدان العربية عندما تولى الامير الحمداني ، أبو الهيجاء ، حكم الموصل والجزيرة عام ٣٠٢هـ عندما كان الفارابي في بغداد · ولقد كتب للفارابي أن يقضي أواخر سني حياته في رعاية أحد أفراد هذه الدولة الاقوياء ، ونعني به سيف الدولة الحمداني الذي ضم الى ملكه حمص وحلب ·

وكانت الاحوال أيام خلافة المقتدر غاية في السوء في العراق · كان الأعاجم من فرس وروم قد سيطروا على مختلف شؤون الدولة وأشاعوا فيها الفساد · كانت المناصب تشترى بالاموال التي تذهب الى جيب أم المقتدر لتبددها في شؤون قصرها الخاصة · وقصة وزارة ابن الفرات والخاقاني معروفة جيدا لدى دارسي التاريخ ، وهو مما ليس لنا مجال للخوض فيه الآن · وبصورة مختصرة ، فان الدولة بجميع شؤونها السياسية والمالية كانت بأيدي الغلمان والجواري والقهرمانات في مملكة قصور نادرة المثال ، تربعت على عرشها أم المقتدر · لذلك كانت بغداد تلك الايام مسرحا للرشاوى

والدسائس والفساد والافساد الذي كان يمعن فيه الأعاجم المقربون من السلطة . وكثيرا ما قتل الأبرياء بسبب دسائس هؤلاء في عاصمة الخلافة ، وقليلا ما استتب الأمن خارجها بسبب ضعف السلطة المركزية . ويقينا ، فانه لولا السيوف التغلبية العربية المشرعة في ديار ربيعة ومضر ، على تخوم الروم في المنطقة التي يحكمها صناديد فرسان العرب من آل حمدان في ذلك العصر ، لتغير مجرى التاريخ تغيرا كبيرا ، ولاستطاعت جيوش الروم النفوذ الى بغداد ذاتها لفرط ما نالها من أذى على أيدي المتنفذين من الأعاجم الأغراب ، وللضعف الذي أصبحت اليه بعد أن فرط في مصادر قوتها ومنعتها هؤلاء اللئام .

هذه الصورة لهذا اللون من الحياة الاجتماعية البائسة التي كانت تعيشها بغداد أيام المقتدر ، قد انعكست الى حد بعيد على فلسفة الفارابي كما سنرى عند الحديث عن بعض آرائه في « المدينة الفاضلة » . وهذا اللون من البؤس الاجتماعي ، هو الذي كان يدفع الفارابي الى الامعان في الزهد وازدراء مقومات هذا النوع من الاجتماع القائم على أساس الوشاية والدسيسة والغدر وليس له من هدف أو غرض يحققه غير الحصول على عرض زائل من مال وشهوة وجاه يستأثر به جميعه نفر من المداهنين والمنافقين .

وكانت بغداد يوم وفد عليها الفارابي قد أمضت ما يزيد على قرن ونصف القرن من عمرها في ترجمة روائع الفكر اليوناني الخصيب مما خلفه أفلاطون وأرسطو وفيثاغورس وغيرهم من الأعلام ، فلا عجب أن نراها في مطلع القرن الرابع الهجري وقد أصبحت لها شخصيتها الفلسفية الخاصة بها بعد أن أمضى أبو يوسف الكندي عمره المديد في رياض الفلسفة . ولقد انتهى أجل الكندي يوم مولد الفارابي ، أو بعده بسنة واحدة عام ٢٥٨هـ ، وهو ما يراه العلامة الايطالي ناجي الذي اهتم كثيرا بدراسة حياة الكندي ونقل كتبه الى اللاتينية .

وكان بين أعلام أساتذة الفلسفة والمنطق في بغداد آنذاك « يوحنا بن حيلان » و « أبو بشر بن يونان » الحكيم الذي كان يجتمع في حلقات درسه المئون من المشتغلين بالمنطق حيث كان يملي على تلامذته شرحه لمنطق أرسطو، كما يقول ابن خلكان . ولقد درس الفارابي على هذين الرجلين الكبيرين ، كما انه كان يدرس النحو على « أبي بكر بن السراج » في الوقت الذي كان ابن السراج فيه يدرس عليه هو ، المنطق ، حسب ما ذكر ابن ابي أصيبعة .

ولقد أحاط الفارابي بالفلسفة اليونانية ودرسها دراسة عالم خبير . وكان قد كتب يوما على بعض كتب أرسطو أنه قرأ كتاب النفس لأرسطو مائة مرة . كما انه قال لبعض تلامذته انه قرأ كتاب السماع الطبيعي للمعلم الاول أربعين مرة وانه بحاجة الى اعادة قراءته من جديد . وهو عندما سئل عما اذا كان هو أم أرسطو أرسخ قدما في الفلسفة ، قال : « لو أدركته لكنت أكبر تلاميذه » .

وبعد هذه الدراسة الفلسفية الواسعة ، انصرف أبو نصر الى الكتابة والتاليف فلم يقع في يديه كتاب من كتب أرسطو أو غيره من فلاسفة اليونان الكبار ، الا وأوسعه شرحا وتعليقا • وفي ذلك يقول القاضي « صاعد بن أحمد ابن صاعد » في « التعريف بطبقات الامم » : « ان الفارابي قد بذ جميع الفلاسفة في صناعة المنطق وأربى عليهم في التحقق بها ، فشرح غامضها ، وكشف سرها ، وقرب تناولها ، وجمع ما يحتاج اليه منها في كتب صحيحة العبارة ، لطيفة الاشارة ، منبهة على ما أغفله الكندي وغيره من صناعة التحليل ••• فجاءت كتبه في ذلك ، الغاية الكافية ، والنهاية الفاضلة ••• » •

وكانت الفلسفة يوم سيطر الفارابي على سمائها في بغداد ، قد انشقت على نفسها فرقتين ، تدين كل منهما بأيديولوجية تناقض الاخرى وتصطرع معها بضراوة وعنف ، في الوقت الذي كانت تهم الكفر والزندقة تترى على كلتا الفرقتين ، يوجهها رجال الدين اليهما على أساس القول القائل : « من تمنطق تزندق » •

الفرقة الاولى ، هي تلك التي نشأت وترعرعت في حران والبصرة ، وقد كانت أقرب المتفلسفين الى الكفر والالحاد ، بل وكان في صفوفها كبار الملحدين أمثال « أبي الحسين بن الراوندي » ، اذ كانت تؤمن بالمادة ، ولا تناقش الا على ضوء الظواهر الطبيعية الملموسة وكل ما يدركه عالم الحس • وكان يقف على رأس هذه الفرقة علم كبير من أعلام الفكر العربي ، هو أبو بكر محمد بن زكريا الرازي ، طبيب الدنيا الاسلامية في عصره ، والملقب بجالينوس العرب • وكان الرازي لايرى امكان الخلق والوجود من عدم ، لذلك فانه كان يقول بأن المادة والنفس والمكان والزمان أشياء أزلية ، كما كانت له وجهة نظر خاصة في النبوة والمعجزات والأديان وهو ما كان يظهره كمتزندق كبير في نظر رجال الدين على الرغم من ايمانه بوجود الله سبحانه ، الذي وصفه بأنه « العلة الاولى » لكل الوجود •

أما الفرقة الثانية ، فهي هذه التي ظهرت أول ماظهرت فيمدينة « مرو » عندما كانت تتبع تعاليم فيثاغورس التي نبذتها واطرحتها جانبا لتتعلق بفلسفة أرسطو وتمزج بينها وبين الافلاطونية الجديدة في محاولة جبارة كانت تهدف الى التوفيق بين الدين والفلسفة في معرض بحثها الواسع في رحاب الالهيات وما وراء الطبيعة • وعندما نبغ الفارابي في بغداد ، كانت هذه المدرسة بجميع أركانها الفلسفية قد تجسدت فيه بالذات ، فلسفة وشخصية : حكمة متطلعة الى استكناه سر الوجود بعقل متفكر متفلسف لا يعرف الكلل والملل، ونوازع انسانية أصيلة راحت تتقرب الى الذات العلية بالتجرد عن أعراض الدنيا الزائلة وسفاسف المادة وذل الشهوات ، والعيش معيشة الأتقياء من المتصوفة الزاهدين •

وكان مما يؤخذ على الفلسفة في ذلك العصر ، قول خصومها انها لو كانت تستطيع الوصول الى الحقيقة وأسرار الوجود ، لما اختلف قطباها

الكبيران ، افلاطون وأرسطو ، في آرائهما في هذه الحقيقة والأسرار • وكان هذا النقد بالحقيقة ، محاولة قوية قام بها الكثير من رجال الدين لمحاربة الفلسفة بسلاحها الذي هو العقل ، لتشكيك الناس بدعاوى الفارابي وغير الفارابي من أساتذة العصر الذين برزوا فيها ، ثم لتصفيتها هي كمنافس جديد بات ينافس نفوذهم بقوة ، وطردها من الميدان •

ولقد حاول الفارابي قبل الشروع بالتوفيق بين الفلسفة والدين أن يجيب على هذه التحديات بالتوفيق بين آراء الفيلسوفين العظيمين • وقد بدأ هذه المحاولة بوضـــع رسالته « الجمع بين رأي الحكيمين افلاطون الالهي وأرسطو » التي قال في مقدمتها :

« لما رأيت أكثر أهل زماننا قد تخاضوا وتنازعوا في حدوث العالم وقدمه، وادعوا أن بين الحكيمين المقدمين خلافا في اثبات المبـدع الأول ، وفي وجود الاسباب منـــه ، وفي أمر النفس والتعقل ، وفي المجازاة على الافعال خيرها وشرها ، وفي كثير من الامور المدنية والخلقية والمنطقية ، أردت في مقالتي هذه أن أشرع في الجمع بين رأييهما •••••• ليزول الشك والارتياب عن قلوب الناظرين في كتبهما ••• » •

ولقد نفى الفارابي أن يكون الفارق بين حياة افلاطون ذات الطابع الذي يميل الى الزهد والتجرد عن كثير من مباهج الحياة ، وبين حيـاة أرسطو الارستقراطية التي عاشها في ظل الاسكندر المكدوني ، داعيا الى الاختلاف في الرأي • كما نفى أيضا أن يكون اختلافهما في مسائل ثانوية أخرى كتدوين الفلسفة أو حفظها غيبا ، وكرأيهما في بعض العادات والطبـــاع ، مدعى للاختلاف على حقائق الوجود • لكن الفارابي يفشـــل في محاولته هذه كل الفشل عندما يحاول التوفيق بين نظرية افلاطون في عالم « المثل » ونظريات أرسطو المستمدة من الحس والواقع • فأرسطو نفسه يصر على انه يختلف مع افلاطون في « مثله » ويتوجه اليه بالنقد قائلا : « ان مثل أفلاطون في هذا ، كمثل شخص صعب عليه أن يعد كمية من الأشيا. فضاعفها ليسهل عليه عدها ! » • لكن أبا نصر يصر على انه وفق بين رأي الحكيمين بما وجده في كتاب «أتولوجيا» ــ الربوبية ــ من أقوال لا تختلف في معانيها عما احتوته نظرية افلاطون في « المثل » • على ان هذا الكتاب الذي ظنه الفارابي من كتب ارسطو خطأ ، لم يكن بالحقيقة غير قسم من تاسوعات افلوطين ، الفيلسوف الذي اقترب بفلسفته كثيرا من افلاطون بحيث اطلق عليها اسم « الافلاطونية الجديدة » • ويرى الدكتور جميل صليبا انه وقع في هذا الخطأ بسبب ايمانه بوحدة العقل والفلسفة •

بعد ذلك يشرع الفارابي بحملة فلسفية جبارة في محاولة جريئة للتوفيق بين الدين والفلسفة فيطالعنا بنظريته الكبرى في « الواجب الوجود » و « الممكن الوجود » والتي يلخصها هو فيقول : « ان الموجودات على ضربين : أحدهما اذا اعتبر ذاته لم يجب وجوده ، ويسمى ممكن الوجود • والثاني

اذا اعتبر ذاته وجب وجوده ويسمى واجب الوجود ٠

وان كان ممكن الوجود ، اذا فرضناه غير موجود ، لم يلزم عنه محال ، فلا غنى بوجوده عن علة ٠ واذا وجد ، صار واجب الوجود بغيره ٠ فيلزم من هذا انه كان مما لم يزل ممكن الوجود بذاته ، واجب الوجود بغيره ٠ وهذا الامكان اما أن يكون شيئا في ما لم يزل ، واما أن يكون في وقت دون وقت ٠

والأشياء الممكنة لا يجوز أن تمر بلا نهاية في كونها علة ومعلولا ، ولا يجوز كونها على سبيل الدور ، بل لابد من انتهائها الى شيء واجب ، هو الموجود الاول ٠

فالواجب الوجود ، متى فرض غير موجود ، لزم منه محال ٠ ولا علة لوجوده ، ولا يجوز كون وجوده بغيره ٠ وهو السبب الاول لوجود الأشياء وانه أتم الوجود ومنزه عن العلل ، مثل المادة والصورة ، والفعل والغاية ٠٠٠٠ » ٠

ويعني الفارابي ب « الواجب الوجود بذاته » ، الله سبحانه ، وهو يصفه بالكمال المطلق والجمال المطلق ، وان وجوده أفضل الوجود ، وأقدم الوجود ولا يمكن أن يكون وجود أفضل ، او أقدم من وجوده ، وانه ليس بمادة ولا قوامه في مادة ، ولا في موضوع أصلا ، وليست له صورة لان الصورة لا يمكن أن تكون الا في مادة ، ولو كانت له صورة لكانت ذاته مؤتلفة من مادة وصورة ، ولو كان كذلك لكان لوجوده سبب ، وهو ما لا يتفق مع صفته سبحانه في انه السبب الأول ٠ ويرى الفارابي أيضا أن صفات الله انما هي ذاته عينها فهو الجمال وهو الجميل ، وهو العلم وهو العالم ، وهو الحكيم والحكمة ، وهو الواسع والسعة ، والقادر والقدرة ، والرحيم والرحمة ، وانه العقل والعاقل والمعقول ، وانه حي وحياة ، وحب ومحبوب ٠٠٠ الى آخر صفاته سبحانه ٠ كذلك يرى الفارابي بأن الله من حيث علمه بكل شيء ، فانه يعقل الجزئيات من خلال كلياتها ، لأن الجزئيات ، كما يرى ، دائمة التغير ــ وهو رأي ، كان بالاضافة الى رأيه في قدم العالم ، قد أسخط عليه الغزالي الذي هدم دار الفلسفة على رأس ساكنيها بعد أن كفر الفارابي وابن سينا بهذه الآراء ، في الحملة العنيفة التي وجهها ضدهما في كتابه « تهافت الفلاسفة » ٠

ونظرية الفارابي هذه مستخلصة بالدرجة الاولى من نظرية أرسطو في « القوة والفعل » ، ثم من نظرية افلاطون في « المثال الأعلى » للكمال في الوجود ٠

لكن أرسطو يقول بقدم العالم ، والفارابي يؤمن بهذا القول ، وقدم العالم يعني قدم المادة وأزليتها ، أو بعبارة أدق يعني وجود أزليين اثنين ، هما الله والمادة ، وذلك هو الشرك والثنائية بعينها ، فكيف يمكن للفارابي ، وهو المؤمن بوحدانية الله ، أن يخرج من هذه الورطة والمأزق الحرج ؟ لا بل

هل يستطيع التوفيق بين القول بقدم العالم ، وبين قول الدين في ان الله قد خلق هذا العالم من عدم ؟

والواقع ان هذه الحيرة لم تكن خاصة بالفارابي وحده ، انما كانت حيرة الفكر الاسلامي كله عندما راح يضرب عميقا في رحاب الفلسفة على كر السنين والعصور ، على ان الفارابي قد وجد بعد التأمل والدرس الدقيق ، مخرجا له من هذه الحيرة عندما أخذ بنظرية « الفيض » الأفلوطينية التي ربطت بقوة بين نظرية أرسطو في القدم ، وبين قول الدين بالخلق والوحدانية، وهو ما مكن للفارابي أن يخرج على دنيـــا الفكر الانساني الخالد بفلسفة فريدة الباب ·

وتتلخص نظرية الفيض لدى أفلوطين في انه يربط بين الادراك والخلق – الابداع والاحداث – برابطة الوحدة · فالله ، كما يرى افلوطين ، قد فكر في ذاته وكماله ففاض عنه عقل · وان هذا العقل بدوره قد أدرك نفسه وأدرك الذي أوجده ففاضت عنه النفس الكلية التي هي نفس العالم · ومن نفس العالم هذه ، فاضت النفوس الجزئية الموجودة لدى مختلف الكائنات في العـــالم المادي المحسوس : الله هو مصدر كل الوجود ، واليه يعود كل موجود ·

فالفيض نتيجة من نتائج الكمال : انه كالنور المتفايض من الشمس ، والرائحة العطرة تفيض عن الورود · وان سلسلة الفيوضات هذه لا تعني تغيرا في الله ، أو خروجا على وحدانيته بحال · كما ان هذا الفيض طبيعي بحكم الضرورة ، ولكن ليس في هذه الضرورة معنى من معاني الاضطرار والالزام ·

وحيث ان الله مدرك لنفسه دائما وأبدا منذ الأزل ، وحيث انه في الكمال من الارادة والقدرة منذ الأزل أيضا ، فقد وجب بمقتضى نظرية الفيض هذه ، أن يكون العالم أزليا ، وانه كان مع الله دائما وأبدا منذ القدم ، وانه سبحانه يتقدم عليه تقدم العلة على المعلول وليس تقدما بالزمان ·

ولقد فاض عن العقل الاول المتمثل بالله ، كما رتب الفارابي ، عشرة عقول متسلسلة ، كانت ممكنة الوجود ، وأصبحت موجودة « بالفعل » بعد أن فكر الواحد منها بالواجب الوجود ليفيض عنه عقل جديد يليه ، وبعد أن فكر بذاته نفسه ليصدر عنه جرم سماوي مكون من نفس وجسم : فعن العقل الاول فاض الثاني والسماء الاولى ، وعن الثاني فاض الثالث وكرة الكواكب الثابتة ، وعن الثالث فاض الرابع وزحل ، وعن الرابع فاض الخامس والمشتري ، وعن الخامس فاض السادس والمريخ ، وعن السادس فاض السابع والشمس ، وعن السابع فاض الثامن والزهرة ، وعن الثامن فاض التاسع وعطارد ، وعن التاسع فاض العاشر ، وهو العقل الفعال الذي فاض عنه عالما الارضي والقمر ·

وفيض عالمنا الطبيعي هذا ، يجري على عكس عمليات فيض العقول المفارقة العشرة التي تفايضت عن بعضها من أعلى الى أسفل • انه يفيض صعدا من أسفل الى أعلى اذ تفيض عنه العناصر الأربعة التي هي الماء والهواء والنار والتراب ، والتي تتفاعل وتتطور في سلسلة عمليات تمر في الجماد ثم النبات ، فالحيوان فالانسان ـ ثم لاأدري ما اذا كان داروين أو هايكل قد اطلعا على هذا الجزء من نظرية الفارابي أو لا ! لكن هايكل ، وهو المؤمن « بالمعنى الكوني » كان أقرب هذين العالمين الى الفارابي •

وحيث ان عمليات الفيض في العالم السفلي تجري صعدا الى فوق، فان الفارابي يقرر بأن باستطاعة الانسان ، اذا تجرد عن حاجاته المادية وقطع علاقته بأسباب هذه الدنيـــا السفلي ، أن يرقى بذاته الى فوق أيضا حيث سيكون بامكانه الاتصال بالواجب الوجود ومصدر كل الوجود الذي هو الله- ويرى أعلام التصوف الاسلامي ، كما يرى الفارابي أيضا ، أن الزهد والعزلة وصرف النفس عن التفكير في المادة واللذة والشهوة ، والاستمرار في التأمل وذكر الله ، هو الطريق الصحيح لتحقيق هذا الاتصال مباشرة بالذات العلية ، لكن الفارابي يربط الى هذا الطريق ، طريقا ثانيا هو الفلسفة ، وهو ما اعتقد به من بعده أيضا ، فيلسوف العرب الأكبر ، ابن رشد ، وكذلك ابن سينا •

ولقد تعرضت نظرية الفارابي في الفيض الى النقد الشديد • وكان من أبرز ما اعترض به عليها هو : انه اذا كان الله لا يدرك الا ذاته ، وان العقول المفارقة المتفايضة تدرك ذاتها كما تدرك الواجب الوجود ، فهل يعني هذا ان هذه العقول قد أصبحت أكثر علما منه سبحانه ؟

وان ثبات العالم ، ووجوده كما هو ، دون امكان توسيعه أو تصغير حجمه ، يعني انه ـ أي العالم ـ واجب الوجود ، لا ممكن الوجود ، وعند ذلك يكون في غيرما حاجة الى علة لوجوده ، وعدم وجود العلة معناه عدم وجود الخالق والمبدع ، وتلك هي أقوال الدهريين •

ثم علام يتوقف الفيض عند العقل العاشر ؟ أهو افتراض ساقه الفارابي اعتباطا ؟ بل ولم لم يصدر عن العقل العاشر الفعال عقل مفارق آخر في حين انه يشترك مع بقية هذه العقول العلوية السماوية بجميع الخواص ؟

لكن أشد الاعتراضات وطأة على الفارابي ، هو السؤال الذي طرح على النظرية ولم تستطع الاجابة عليه ، وهو : [من أين جاءت هذه المادة التي نلمسها في طبيعة عالمنا السفلي اذن ، اذا كان العقل الفعال العاشر « عقلا محضا » كبقية العقول العلوية ، لا أثر فيه للمادة ؟] •

ومهما تكن الحال ، فقد اعتبر رجال الدين المتزمتون عقول الفارابي المتفايضة العشرة هذه ، شركا بالله رغم تأكيد الفيلسوف العظيم على وحدانيته سبحانه في كثير من أجزاء النظرية • ولقد اتهم الرجل في دينه ، وراح الناس يظنون به الظنون • وكان العصر عصر دسائس ومكائد وفتن • وكان من بين

هؤلاء المتزمتين من يظهر الخشوع والتقوى وغرضه التقرب من السلطان ونيل الجاه والفوز بالدنيا قبل الآخرة ، وهو ما عرضه لنا الفارابي في فلسفته كما سنرى - واناس دنيويون جهلاء مثل هؤلاء ، لا يتورعون عن التضحية بالعشرات من أمثال الفارابي لتعزيز مراكزهم المرموقة لدى السلطان ، وبين العامة تحت ستار الغيرة على الدين ، فما الذي سيفعله أبو نصر ؟

أيطرح الفلسفة جانبا بعد أن فهم انه أصبح واحدا من كبار حاملي ألويتها ، وانه انما يعيش بها ومن أجلها ؟٠٠ ذلك غير ممكن دونما شك بالنسبة لرجل كالفارابي ٠ واذن ، فلابد لتجنب التهلكة من الرحيل ، فهيا بنا مع أبي نصر الى حلب ، ووداعا لزبانية بغداد ، قاتلهم الله من زبانية !!

وها هي ذا حلب ؛ المدينة العربية الباسلة ودرع الامة الاسلامية الاكبر في ذلك التاريخ ٠ وها هو الأمير العربي سيف الدولة ، سيد بني تغلب ، وأقوى صناديد العرب الذين كانوا يذبون عن تخوم الأمة العربية بأنف حمي وسيف حديد ، فما عسانا نشهده في بلاط سيف الدولة ؟

لقد وهب الله سيف الدولة بالاضافة الى شجاعته وعلو منزلته ، عقلا راجحا وميلا فطريا الى الأدب والحكمة وصحبة رجال الفكر ٠ وكان يجتمع في مجلسه على الدوام من الشعراء واللغويين ورجال الفكر والحكمة ما لم يجتمع مثيل لهم في أي بلاط آخر في عالم المسلمين ذلك العصر ٠ وكان سيف الدولة فوق هذا وذاك ، رضي الخلق ، واسع الصدر ، كثير التسامح ، فهو الذي غفر لأبي الطيب المتنبي اهانته له يوم خاطبه علنا وعلى رؤوس الأشهاد من كبار أمراء بني حمدان ، بما لم يجرؤ فولتير – أجرأ شعراء اوربا – أن يخاطب بمثله فريدريك حين ترك بلاطه مغاضبا :

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا　　　بأنني خير من تسعى به قدم

ويقينا فان المتنبي كان سيشهد الموت الزؤام لو انه وجه هذا البيت الى أمير قوي مغرور ، لا لسيف الدولة ٠ لكن الذي حدث هو عودة الصفاء بينهما بعد غضب سيف الدولة اذ عاش المتنبي في كنفه عزيز انقسدر مدة سنوات بعدها ٠ وهو ما أوضحناه في مقال سابق في غير هذا المكان ٠ لقد كان سيف الدولة بطلا عربيا حرا نابها ، كما كان يعرف أقدار أحرار الفكر النابهين ٠

على مثل هذا الامير وفد أبو نصر الفارابي في حلب ٠ لكن قصة دخوله مجلس سيف الدولة بالطريقة المسرحية التي رواها ابن خلكان ، شيء لايمكن الاعتداد به نظرا لما اتسمت به من دقة الصنعة والتأليف ؛ عليه نرى ان ايرادها هنا مضيعة للوقت ٠

ولم يكن الفارابي خامل الذكر يوم التقى بسيف الدولة ٠ كانت شهرته وفلسفته قد سبقته الى حلب ، وهو ما دعا سيف الدولة أن يرحب به فور

وصوله ليتخذه لنفسه صديقا وجليسا . ولقد بقي الفارابي مع سيف الدولة بضع سنوات في حلب . غير انه كان قد أصبح ميالا الى العزلة والامعان في الزهد كلما تقدمت به الايام ، لذلك فانه طلب من سيف الدولة أن يسمح له بالاقامة في دمشق على أن يعود اليه في حلب كلما أراد . لكن سيف الدولة يحاول ، ويعيد المحاولة في أن يجري هباته عليه . الا أنه يرفض تلك الهبات الكبيرة ، فلا يطمع بأكثر من دراهم أربعـة لليوم الواحد ، يرسلها الامير العربي مع « الخمرة الريحانيـة » اليـه الى حيث « مجتمع الماء ، ومشتبك الرياض » ـ كما وصف ابن خلكان ـ اذ قرر أن يشتغل « ناطورا » في بعض بساتين غوطـة دمشق ، ولينصرف الى التأليف والغنـاء والموسيقى وآلة « القانون » التي اخترعها ، في ذلك الجو الشاعري الذي يسود الغوطة ، كما شهدناه في صدر هذا المقال .

هناك عكف الفارابي على مراجعة « كتاب الموسيقى الكبير » ، وهنـاك أيضا وضع كتابه الشهير « المدينة الفاضلة » . كان يقوم بواجب الحراسة ، وكان يكتب . وهو عندما كان يفرغ من الكتابة ، كان يشرب ويغني لنفسه من نظمه شعرا في الزهد والحكمة :

أخي خـل حيز ذي باطـل وكـن للحقـائق في حيز
فما الدار دار مقـام لنـا وما المرء في الأرض بالمعجز

أو كقوله :

لزمت بيتي وصنت عرضـا به من العـزة امتنـاع
أشرب مما اقتنيت راحـا لهـا على راحتي شـعاع
لي من قواريرها نـدامى ومن قراقـيرها سـماع
واجتني من حـديث قوم قـد أقفرت منهم البقـاع

أو بقوله وقد خففت الخمرة عنه بعض الهم :

بزجاجتـين قطعت عمـري وعليهما عـولت أمـري
فزجـاجة ملئت بحبر وزجـاجة ملئت بخمر
فبـذي ادون حكمتي وبذي أزيل هموم صـدري

هذه الهموم التي كانت تملأ صدر الفيلسوف الكبير ، كانت متأتية مما لمسه في هذه الدنيا من شرور وآثام وغـدر ودجل ونفاق ، دونما شـك . فالفارابي ، وهو المتقشف الزاهد ، لم يكن ليحزن على جاه أو مال أو أي عرض آخر زائل في الحياة . ولقد كان بوده أن تكون الأرض ومن عليها على غير ما هي عليه من تلك الشرور ، وأن تحيا الجماعة حياة فاضلة ، يصل فيها الكائن الانساني الى غاية السعادة والكمال . لكنه كان يشعر في قرارة نفسه ، ومن واقع الحال ، ان ذلك ضرب من المستحيل . وكان هذا الشعور بالواقع

المؤلم ، وما راوده من خيال في الحياة الفاضلة ، قد انعكس جميعه في هذا الكتاب الذي وضعه في آخر حياته ـ « المدينة الفاضلة » •

والقسم الاول من هذا الكتاب ، هو ملخص لفلسفة الفارابي في الكون والوجود بصورة عامة • أما الباقي منه ، فقد تكلم فيه عن مدينة مثالية تعيش فيها الجماعة في ظل حاكم فيلسوف كما هي الحال في جمهورية افلاطون ؛ كما تطرق الى ذكر أدواء من عداها من المدن أو المجتمعات غير الفاضلة ، وبين نواقصها وعيوبها ، والشرور المتفشية في حياتها الاجتماعية ، وعلة تلك الشرور •

ومن المواضيع التي خاضها في « المدينة الفاضلة » نفيه الشريك عنه سبحانه • وفي ذلك يقول الفارابي : « لو كان مثل وجوده في النوع خارجا منه شيء آخر ، لم يكن تام الوجود • لأن التام هو ما لا يمكن أن يوجد خارجا منه وجود من نوع وجوده ، وذلك في أي شيء كان ؛ لأن التام في العظم هو ما لايوجد عظم خارجا منه ؛ والتام في الجمال ، هو الذي لا يوجد جمال من نوع جماله خارجا منه • وكذلك التام في الجوهر ، هو ما لا يوجد شيء من نوع جوهره خارجا منه ••••• واذا كان الأول تام الوجود ، لم يمكن أن يكون ذلك الوجود لشيء آخر غيره • فاذاً ، هو منفرد بذلك الوجود وحده ، فهو واحد من هذه الجهة • » •

والفارابي في « المدينة الفاضلة » من المؤمنين بـ « النبوة » بعد هذا الايمان العميق بوحدانية الله • غير ان فلسفته في هذا الموضوع تدور على محور « المخيلة » وقوتها وكمالها ، اذ هي التي توصل الانسان الى « العقل الفعال » بعد أن ترقى به ، في حالة يقظته ، الى العالم الروحاني العلوي ، اذا كانت ذات قوة خارقة ، وكان صاحبها على درجة عظيمة من نقاوة النفس والقلب • وفي ذلك يقول أبو نصر :

« وذلك ان القوة المتخيلة اذا كانت في انسان ما قوية كاملة جدا ، وكانت المحسوسات الواردة عليها من خارج لا تستولي عليها استيلاء يستغرقها بأسرها ، ولا خدمتها للقوة الناطقة ••• يصير ما أعطاه العقل الفعال من ذلك مرئيا لهذا الانسان • فاذا اتفقت التي حاكت بها القوة المتخيلة تلك الأشياء ، محسوسات في نهاية الجمال والكمال ، قال الذي يرى ذلك ان لله عظمة جليلة عجيبة لا يمكن وجود شيء منها في سائر الموجودات أصلا • ولا يمتنع أن يكون الانسان ، اذا بلغت قوة المتخيلة نهاية الكمال ، فيقبل في يقظته ، عن العقل الفعال ، الجزئيات الحاضرة والمستقبلة ، أو محاكياتها من المحسوسات ، ويقبل محاكيات المعقولات المفارقة ، وسائر الموجودات الشريفة ، ويراها ، فيكون له بما قبله من المعقولات نبوة بالاشياء الالهية • فهذا هو أكمل المراتب التي تنتهي اليها القوة المتخيلة ، وأكمل المراتب التي يبلغها الانسان بقوته المتخيلة • » •

بعد ذلك يتكلم الفارابي عن اناس آخرين هم دون الأنبياء قوة في المخيلة ، وهم متفاوتون فيما بينهم في كيفية تلقي هذه المعارف ونوعيـة ما يتلقون منها ؛ لـكنه لا يحدد لنا هويات هؤلاء في المجتمع ، أهم اشراقيون متصوفة ، أو مجرد متعبدين زاهدين ، أو انهم من فئات أخرى غير هؤلاء وهؤلاء ·

وأخيرا فانه يشير الى من تختلط عليهم الرؤى والصور ويصبحون مجانين فيقول : « وقد تعرض أيضا للانسان عوارض ، فيفسد بها مزاجه وتفسد تخاييله فيرى أشياء مما تركبه القوة المتخيلة على تلك الوجوه مما ليس له وجود ، ولا هي محاكاة لموجـود ، وهؤلاء هم الممرورون والمجـانين وأشباههم · » ·

وفي « المدينة الفاضلة » يتكلم عن النفس أيضا · والنفس بصورة عامة لدى الفارابي ، تبدو على شكل توفيق بين آراء أفلاطون وارسطو فيها ، انه يعتبر النفس العاقلة « جوهر » الانسان الذي لا يفنى بفناء البدن ، وان المعرفة الحقة الصحيحة التي تتهيأ للنفس ، انما هي سبيلها للصعود الى العالم العلوي ؛ لكنه يرى في نفس الوقت ، كما ارتأى أرسطو ، بأنها « صورة وكمال » للبدن، وانها لا توجد قبله ·

ومن تخريجات الفارابي لهذا التوفيق بين ماهية النفس من حيث انها جوهر ، ومن حيث انها صورة ، رأيه في انها جوهر في ذاتها ؛ أما بالنسبة لعلاقتها بالبدن ، فهي صورة · وهو رأي أكد عليه من بعده ابن سينا · وفي ذلك يقول الفارابي في « عيون المسائل » :

« وهذه القوى التي تدرك المعقولات ، جوهر بسيط ، وليس بجسم · ولا يخرج من القوة الى الفعل ، ولا يصير عقلا تاما ، الا لسبب عقل مفارق ، وهو العقل الفعال الذي يخرجه الى الفعل ··· وهو مفارق للمادة يبقى بعد موت البدن ، وليس فيه قوة قبول الفساد · وهو جوهر احدي ، وهو الانسان على الحقيقة ، وله قوى تنبث منه في الاعضـاء · وظهوره من واهب الصور يكون عند ظهور الشيء الصالح لقبوله ، وهو البـدن ، فحينئذ يستحق الظهور · » · وواهب الصور هو العقل العاشر الفعال ·

واذن فالنفس كائن « حادث » يصدر عن فيوضات العقل العـاشر الفعال ، وهي « جوهر » علوي بسيط ، ذو قوى فعالة مدركة ، وهي «صورة» أيضا ، تصدر عن واهب الصور عند وجود البدن الصالح لقبوله ·

ان علاقة النفس التي هي جوهر الجسد ، بالجسد ذاته ، هي أشبه ما تكون بعلاقة الثياب الموجودة على بدن الانسان ، بالبدن ذاته :

« وان لك من بدنك غطاء ، فضلا عن لباسك من البدن · فاجتهد أن ترفع الحجاب وتتجرد · وحينئذ لا تسأل عما تباشره ، فان ألمت فويل لك ، وان سلمت فطوبى لك · وأنت في بدنك كأنك لست في بدنك » ·

ولهذه النفس الانسانية كما أشرنا ، قوى مختلفة ؛ منها ما يفعل بآلات

البدن ، ومنهـــا ما يفعل بغير هذه الآلات · وفي ذلك يقول أبو نصـر فيـ « عيون المسائل » ·

« وللانسان من جملة الحيوان خواص ، بأن له نفسا يظهر منها قوى بها تفعل افعــالها بالآلات الجسمانية ، وله زيادة قوة بأن يفعل لا بآلـة جسمانية ، وتلك قوة العقل · ومن تلك القوى ، الغاذية ، والمربية والمولدة ، ولكل واحدة من هذه قوة تخدمها ·· ومن قواها المدركة ، القوى الظاهرة ، والاحساس الباطن ، والمتخيلة والوهم ، والذاكرة والمفكرة ، والقوى المحركة الشهوانية والغضبية ، والتي تحرك الاعضاء · وكل واحدة من هذه القوى التي ذكرناها ، تنفعل بآلة ، ولا يمكن الا كذلك · وليس واحدة من هذه القوى بمفارقة ·

ومن هذه القوى العقل العملي ، وهو الذي يستنبط ما يجب فعله من الاعمال الانسانية ··· والعقـل العلمي ، وهو الذي يتم به جوهر النفس ويصير جوهرا عقليا بالفعل · ولهذا العقل مراتب · يكون مرة عقلا هيولانيا، ومرة عقلا بالملكة ، ومرة عقلا مستفادا · »

والنفس الانسانية عند الفارابي ، كما هو واضح في « عيون المسائل » من الكائنات الخالدة التي ستبقى موجودة بعد الموت ومفارقة البدن · لكنك تراه في مدينته الفاضلة يقتصر الخلود على فئتين فقط ، ويستثني فئة ثالثة : سكان المدينة الفاضلة الذين تمكنوا من معرفة صفات الله وآلائه عن طريق العقل المدرك ، وداوموا على ممارسة الاعمال الفاضلة ، وهؤلاء هم الخالدون بنفوسهم في النعيم · وفئة أخرى هم سكان المدن الفاسقة الذين استوعبوا علوم المدنية الفاضلة ثم طرحوها جانبا ، مفضلين عليها الامعان في الاعمال الشنيعة المرذولة ، وهؤلاء هم الذين سيخلدون بنفوسهم بعد الموت في شقاء عظيم وعذاب مقيم ·

أما الفئة الثالثة التي مصيرها العدم ، فهي نفوس سكان المدن الجاهلة الذين لم يعرفوا شيئا من العلوم العقلية ، ولا أدركوا عظمة الله في خلقه ، ولم يمارسوا الفضيلة في حياتهم ، فنفوسهم « غير مستكملة ، بل محتاجة في قوامها الى المادة ضرورة ، اذ لم يرتسم فيها رسم حقيقة بشيء من المعقولات أصلا ··· وهؤلاء الهالكون والصائرون الى العدم ، على مثال ما تكون عليه البهائم والسباع والأفاعي ·» ·

والظاهر من فلسفة الفارابي هذه هو انه كان يؤمن بخلود النفوس دون الأجسام ، وهو ما ينطوي على معنى عدم حشر الناس بأجسامهم يوم القيامة ، وعدم وجود لذائذ بدنية في اليوم الآخر ، وعدم تعرض الأبدان للنار · عليه كان من حق « الغزالي » أن يقيم له في هذه الدنيا « قيامة » مخيفة قبل حلول الآخرة ، وأن يستمطر عليه وعلى ابن سينا ، في «التهافت» ، غضب السماء ·

فالعلم والادراك العقلي الصحيح اذن ، والأفعال المبنية على التعقل ، ومشاركة الناس لبعضهم بهذه الأفعال ، والعمل الصالح ، وتقوى الله ، هو الطريق الوحيد الذي يتمكن به الانسان ، أو بالأحرى ، النفس الانسانية ، من الظفر بنعيم الوجود في العالم الأعلى • وخلاصة ما يمكن القول به حول نظرية الفارابي هذه في الخلود ، هو انه احتكر جنان السماوات للفلاسفة وحدهم ، بل وأقام في الدار الآخرة لهم دولة معمورة بمباهج العقل وفيوضاته، وكتب على بابها أن : « لا يدخلها الا المتفلسفون » •

والداخلون دولة الفارابي السماوية من هؤلاء الفلاسفة ، انما هم في نعيم مقيم ؛ لكن نعيمهم ومباهجهم والتذاذهم الروحي هو في ازدياد أبدي مستمر نظرا لامتزاج مباهجهم ولذاتهم بلذات المزيد من الفلاسفة الوافدين عليهم من عالم الأرض وفي ذلك يقول أبو نصر في مدينته الفاضلة :

[« وأهل المدينة الفاضلة لهم أشياء مشتركة « يعلمونها ويفعلونها » وأشياء أخرى من علم وعمل يخص كل رتبة • وكل واحد منهم انما يصير في حد السعادة بهذين ، أعني بالمشترك الذي له ولغيره معا ••• فاذا فعل ذلك كل واحد منهم ، أكسبته أفعاله تلك ، هيئة نفسانية جيدة فاضلة ، وتزايدت قوتها وفضيلتها ••• وتلك حال الأفعال التي ينال بها السعادة ، فانها كلما زيدت منها وتكررت وواظب الانسان عليها ، صيرت النفس التي من شأنها أن تسعد ، أقوى وأفضل وأكمل ، الى أن تصير من حد الكمال ، والى أن تستغني عن المادة ، فتحصل متبرئة منها « فلا تتلف بتلف المادة ، ولا اذا بقيت احتاجت الى مادة ••• فاذا مضت طائفة فبطلت أبدانها ، وخلصت أنفسها وسعدت ، فخلفهم ناس آخرون في مرتبتهم بعدهم ، قاموا مقامهم وفعلوا أفعالهم ؛ فاذا مضت هذه أيضا ، وخلصت ، صاروا أيضا في السعادة الى مراتب اولئك الماضين ، واتصل كل واحد بشبيهه في النوع والكمية والكيفية ولأنها كانت ليست بأجسام ، صار اجتماعها ، ولو بلغ ما بلغ ، غير مضيق بعضها على بعض مكانها ، ليس على النحو الذي توجد عليه الأجسام • وكلما كثرت الأنفس المتشابهة المفارقة ، واتصل بعضها ببعض ، وذلك على جهة اتصال معقول بمعقول ، كان التذاذ كل واحدة منها أزيد شديدا • وكلما لحق بهم من بعدهم ، زاد التذاذ من لحق الآن بمصادفة الماضين ، وزادت لذات الماضين باتصال اللاحقين بهم ••• ولأن المتلاحقين الى غير نهاية ، يكون تزايد قوى كل واحد ، ولذاته على غابر الزمان الى غير نهاية •] •

يظهر من هذا كله ان جنة الفلسفة التي غرس رياضها الفارابي في السماء ، سوف لا تزدهر بتفيض المباهج الأبدية المستمرة ما لم تقم مثلها جنة على الأرض تستطيع الأخذ بيد النفس الانسانية الى مدارج الرفعة والكمال بصورة تستطيع معها تخريج الأفواج المتلاحقة من الفلاسفة عبر الأجيال

لتدفع بنفوسهم الفاضلة الى رحاب السماوات حيث هذه الجنة ، وليكونوا من سكنتها الخالدين • فلنتفحص اذن بعض وجوه جنة الفارابي على الارض أو ما سماه هو ب « المدينة الفاضلة » •

ونقد تكلم الفارابي في مدينته عن المجتمعات وقال بأنها نوعان : كاملة، وناقصة • والمجتمعات الكاملة في نظره ثلاثة أقسام : (١) المجتمع الأكبر وهو العالم الارضي الذي تسكنه البشرية كلها (٢) والمجتمع الوسطي وهو الذي تعيش فيه أمة من الأمم في جزء معين من المعمورة • (٣) ثم المجتمع الصغير ، وهو الذي يعيش فيه أهل مدينة واحدة في جزء من رقعة تسكنها أمة واحدة •

أما المجتمعات الناقصة ، غير التامة ، فهي عنــده : مجتمع القرية ، ومجتمع المحلة ، ومجتمع السكة ، ثم مجتمع المنزل أو العائلة الذي هو أصغر المجتمعات ؛ وان هذه جميعا انما هي أجزاء تكون بمجموعها مجتمع المدينة وقد ارتأى الفارابي أن يكون مجتمع المدينة وحدة مثالية متكاملة العناصر تقوم على ضوئها ومثالها جميع المجتمعات •

ومجتمع المدينة الفاضلة ، في نظر الفارابي ، شبيه في تكوينه بجسم الانسان • فالناس فيه أشبه ما يكونون بخلايا الجسم الانساني وأعضائه والقلب الذي يكون منه بمنزلة العضو الرئيس • ولقد قسم الفارابي سكان المدينة الفاضلة الى مراتب ودرجات وطبقات ، وسلط عليهم حاكما فردا واحدا هو الرئيس الذي تحيط به صفوة مختارة ، وهو في ذلك يقول :

« والمدينة الفاضلة تشبه البدن التام الصحيح ، الذي تتعاون أعضاؤه كلها على تتميم حياة الحيوان وعلى حفظها عليه ، وكما ان البدن أعضاؤه مختلفة متفاضلة الفطرة والقوى وفيها عضو واحد رئيسي هو القلب •••• كذلك المدينة ، أجزاؤها مختلفة الفطرة ، متفاضلة الهيئات ، وفيها انسان هو رئيس ، وآخر يقرب مراتبها من الرئيس ، وفي كل واحد منهـا هيئة وملكة يفعل بها فعلا يقتضي به ما هو مقصود ذلك الرئيس ، وهؤلاء هم اولو المراتب الأول • ودون هؤلاء قوم يفعلون الأفعال على حسب هؤلاء ، وهؤلاء هم المرتبة الثانية • ودون هؤلاء أيضا من يفعل الأفعال على حسب أغراض هؤلاء • ثم هكذا تترتب أجزاء المدينة الى أن تنتهي الى أخر يفعلون أفعالهم على حسب أغراضهم فيكون هؤلاء هم الذين يخدمون ولا يخدمون ، ويكونون في أدنى المراتب ، ويكونون هم الأسفلون » •

ولا ندري ما اذا كان قادة الفكر الفاشست قد اطلعوا على نظرية الفارابي هذه أو لا • لكن الذي نعرفه على وجه التأكيد هو ان « ديتريشي » كان قد قام بترجمة « المدينة الفاضلة » وغيره من كتب الفارابي الى اللغة الالمانية في حياة « نيتشه » ويوم مولد شبنجلر في أواخر القرن التاسع عشر • فنظرية الفاشست في « الدولة » تكاد تكون نفسها نظرية الفارابي في دولة المدينة

الفاضلة • والدولة في نظر الفاشية ، موجود ذو كيان عضوي تتكون أجهزته من مختلف طبقات الامة ، كما تتكون حجيراته من الأفراد ، وان هذا الجسم العضوي يشبه في وجوده جسم الانسان دون أي اختلاف •

والفارابي يجعل من رئيس المدينة الفاضلة دكتاتورا حاكما بأمره على الرغم من انه اشترط أن يكون فيلسوفا يرقى بحكمته الى درجة الأنبياء ، أو على حد تعبير « دي بوز » ، « افلاطون في ثوب محمد » • فالفلاسفة الذين ينهجون نهج الانبياء لا يمكن أن يرضوا بوجود الناس الذين « يخدمون ولا يخدمون » في مجتمعاتهم كما فعل الفارابي في مدينته الفاضلة • وهملايرضون أيضا بوجود طبقة متميزة على طبقة مهما كانت الأسباب • والناس في نظر الأنبياء كما نعلم ، كأسنان المشط ، كلهم سواسية • بل وان الانبياء أنفسهم كانوا دائما وأبدا في خدمة الطبقة العامة من الشعب على وجه التخصيص ، والضعفاء من هذه الطبقة • فالفارابي على الرغم من اخلاصه للفضيلة وطموحه الى قيام مجتمع فاضل ، كان متأثرا عندما وضع نظريته في المدينة الفاضلة ، بنظرية استاذه أرسطو في العبودية الى حد بعيــد • انه كان يعتقد بقول أرسطو على ما يظهر : « ان من الناس من يخلق للعبودية ، وان منهم من يخلق ليسود » •

والرأي في المدينة الفاضلة ، هو رأي الرئيس • وارادتها من ارادته ، وقوتها من قوته ، بل وان حياتها ووجودها مستمدة من وجوده هو ، فتأمل ! وفي ذلك يقول الفارابي :

« وكما ان القلب يتكون أولا ، ثم يكون هو السبب في أن يكون سائر أعضاء البدن ، والسبب في أن يحصل لها قواها ، وأن تترتب مراتبها ، فاذا اختل منها عضو كان هو المرفد بما يزيل عنه ذلك الاختلال ، وكذلك رئيس هذه المدينة ينبغي أن يكون هو أولا ، ثم يكون هو السبب في أن تحصل المدينة وأجزاؤها ، والسبب في أن يحصل الملكات الارادية التي لأجزائها في أن تترتب مراتبها ؛ وان اختل منها جزء ، كان هو المرفد له بما يزيل عنه اختلاله » •

والرئيس في دولة مدينة الفارابي الفاضلة ، هو تماما ك « الزعيم » في الدولة الفاشية • فالنظرية الفاشية تقول بانه ما دام الأفراد جميعا لا أكثر من حجيرات في جسم الدولة ، فان شخصياتهم وحرياتهم ومقدراتهم ومصائرهم ستكون جميعها رهينة بارادة ورأي الزعيم ، يتصرف بها كيف يشاء • لكن الفارابي كان أكثر اعتدالا من الفاشست في الواقع ، عندما رفع رئيس مدينته الى منزلة الأنبياء • ذلك ان الفاشست قد رفعوه الى منزلة الآلهـة !

« زعيمنا ، مسيحنا ، هبنا خبزنا ليومنا ! » ••• نعم ، هكذا كان يقول هرمان غورنغ ، وزير طيران الرايخ ، في صلاته كل صباح • ولقـد

كانت النازية بالنسبة للنازيين ، ديناً حل محل العقيدة المسيحية · انها لم تكن تعترف بالمسيحية لانها ، كما ترى ، تدفع الناس طواعية الى ولاء جهة أجنبية غريبة عن العنصر الالماني ، وهي تعني بذلك الفاتيكان · عليه كان لابد في نظر قادة الفكر النازي أن يحل هتلر محل المسيح ·

و « الصفوة الممتازة » التي يقول عنها « شپنجلر » ، « بأنها كل شيء بعد الزعيم ، وان الخضوع يجب أن يتم لأفرادها المبدعين الذين يأتون بكل ماهو سام وجليل » ، لها شبيهها في نظرية الفارابي أيضا عندما يتحدث عن الطبقة التي تلي رئيس المدينة الفاضلة اذ يقول : « كذا الأجزاء التي تقترب في الرئاسة من رئيس المدينة ، تقوم من الأفعال الارادية بما هو أشرف ، ومن دونهم بما دون ذلك في الشـرف ، الى أن ينتهي الى الأجزاء التي تقوم من الأفعال بأخسها » · وهذه الطبقة التي تقترب في الرئاسة من الرئيس ، هي التي ترؤس بقية سكان المدينـــة ، كما يقول الفارابي ، بعد أن يرأسها الرئيس ؛ كما وصف أفرادها أيضا ، بأنهم « أولو المراتب الاول » ·

والفارابي عندما وضع كتابه « المدينة الفاضلة » كان متأثرا بثـاني استاذيه ، أفلاطون ، في كتـابه « الجمهورية » دونما شك · أما الترتيب الرئاسي السياسي النازل من أعلى ، مما وضعه للمدينة ، فقد ذكر بأنه جاء على نسق فلسفته في الفيض سواء بسواء ·

على ان الفارابي عندما يفرغ من تخطيط مدينته ، ينتبه الى نفسه ويبدأ يشعر في قرارة نفسه ان تحقيق مشروعه ضرب من المستحيل ، عند ذلك يلتفت ليصب جام غضبه على طبيعة الاجتماع القائم ، ويصف مدن الدنيـا كلها ، عدا مدينته النموذجية ، بالجهل والضلال ، ثم يبدأ يحدد معالم هذه المجتمعات الجاهلة التي لا يؤمن بصلاحها ، ويكشف عن طبيعة الانسان الذي أقام هذه المدن ، وذلك بكلام صارم حاد ، سمعنا صداه يدوي في أوربا بعد ألف عام على ألسنة نيتشه وشبنجلر وموللر ومان وكيسرلنغوروزنبرغ وهتلر ، وغيرهم من ورثة تعاليم اليمين الهيجلي · لكن الفارابي كان يشير في فلسفته هذه الى الحقائق الواقعة ، دن دعوة الناس الى اتخاذها شريعة يجب أن تسود حياة البشر كما فعله قادة الفكر الهيجلي من بعد ؛ انه كان يضع اصبعه على الحقيقة ، ثم يمضي مشمئزا منها ليمعن جهد استطاعته في اعتزال المجتمع ، والعيش معيشة الاتقياء الزاهدين ·

« ويل للضعفاء ، وسحقا لهم ، سحقا ! » ··· ذاك هو مفهوم الحقيقة التي تسود حياة هذه المجتمعات في كل مكان في الارض ، خلا مدينة الفارابي ، وهو ما سماه ب « الداء السبعي » ، وما نسميه اليوم بالنزاع من أجل البقاء· فما ينطبق على الحيوان الذي يبيد غيره لغير ما سبب أو نفع أحيانا سـوى فطرته وطبيعته التي طبع عليها ، ينطبق على عـالم الانسان أيضا في رأي الفارابي ، وأن من حق القوي أن يبيـد الضعيف ، أو يستعبده اذا رأى في

ذلك نفعا له ، في هذه المجتمعات الجاهلة ، كما يجب أن تكون هذه المدن في حالة صراع دائم فيما بينها ، وأن لا يمكن أن يتعايش اثنان سوية في الحياة الا بأن يكون أحدهما غالبا والآخر مغلوبا مستعبدا ، وان أسعد الناس طرا انما هو « الأقهر » ، وهو في ذلك يقول :

« ... فانا نرى كثيرا من الحيوان يثب على كثير من باقيها فيلتمس افسادها وابطالها ، من غير أن ينتفع بشيء من ذلك نفعا يظهر ، كأنه قد طبع على أن لا يكون موجود في العالم غيره ... ثم جعلت هذه الموجودات أن تتغالب وتتهارج ، فالأقهر منها لما سواه يكون أتم وجودا . والغالب أبدا أما أن يبطل بعضه ، لأنه في طباعه ان وجود ذلك الشيء نقص ومضرة في وجوده هو ، واما أن يستخدم بعضا ويستعبده لأنه يرى في ذلك الشيء ان وجوده لأجله هو ... وان هذه الحال طبيعة الموجودات ، وهذه فطرتها ، والتي تفعلها الأجسام الطبيعية بطبائعها ، هي التي ينبغي أن تفعلها الحيوانات المختارة باختياراتها وارادتها ، والمروية برويتها . ولذلك رأوا ان المدن ينبغي أن تكون متغالبة متهارجة ... وأن يكون كل انسان متوحدا بكل خير هو له ، وأن يلتمس أن يغالب غيره في كل خير يفيده . وان الانسان الأقهر لكل ما يناوئه هو الأسعد ... وأن ينافر كل واحد كل واحد ... ثم يكون اجتماعهما على ما يجتمعان عليه بأن يكون أحدهما القاهر ، والآخر مقهورا » .

ان فكرة الفارابي في ضرورة كون المدن « متغالبة متهارجة » ، هي نفسها التي انطوت عليها نظرية هيجل في الحرب بعد الفارابي بزمن طويل . فهيجل يقول ان الصراع بين الدول والاقوام يجري وفقا لنظام الطبيعة ، وانه لا يمكن أن تستمر الحياة على ظهر هذا الكوكب دونما صراع أو حرب، وما يراه هيجل في موضوع هذا التغالب والتهارج ، يراه أيضا من جاء بعده من أعلام الفكر الالماني . فشبنجلر مثلا ، يرى بأن الحرب ضرورة من ضرورات وجود الدولة ، وان الكوارث والدمار والخراب الذي تصاب به الحياة المدنية والافراد والثروات العامة انما هو شيء ضئيل ويسير بالنسبة لوحدة المجموع الحي الذي هو الدولة .

أما فكرة الفارابي في انطباق قانون الغاب على حياة المجتمع ، وأفكاره في العبودية والاستعباد والغالب والمغلوب والقهر والأبادة ، فقد ترددت أيضا على السنة هؤلاء المفكرين جميعا كما ألمعنا ، وبخاصة نيتشه الذي كان لا يرى حقا للضعفاء في البقاء ، كما كان يرى بأن البشر متفاوتون في القوة وان من الضروري استعباد الأقوياء للضعفاء واسترقاقهم ، وان ذلك ، في رأيه ، شيء تقتضيه الطبيعة وتفرضه نظاما في حياة الانسان . أما شبنجلر، فقد قال منذرا الدنيا بالويل : « ان أشرف الحيوانات هو أشدها بطشا وافتراسا . عليه فأن أشرف الناس هو أقواهم وأشدهم بلاءاً في سحق

الضعفاء في الحرب » ·

أما فكرة الفارابي في العدل ، فانها لا تقل تطرفا عن سابقتها - انه يرى أن كل ماهو موجود في طبع الانسان فهو عدل · وحيث ان طبع الانسان لا يعني غير التغالب ، « فالعدل اذن التغالب » · لذلك يعود الفارابي الى التأكيد على ضرورة « وجود التغالب والتهارج » والصراع بين قبيلة وقبيلة ، وبين المدن ، ثم بين الأمم · ثم انه يلتفت الى الأشياء التي يجب أن يجري هذا الصراع من أجلها فيقول بأنها : « السلامة والكرامة واليسار واللذات ، وكل ما يوصل الى هذه » · بعد ذلك يرى ان تحاول كل جهة متنازعة ، الاستيلاء على هذه الاسباب بالقوة فيقول : « وينبغي أن تروم كل طائفة أن تسلب جميع ما للأخرى من ذلك ، وتجعل ذلك لنفسها ··· فالقاهرة للأخرى على هذه ، هي الفائزة ، وهي المغبوطة ، وهي السعيدة ··· وهذه الأشياء التي في الطبع · فما في الطبع هو العدل » ·

بعد ذلك تراه يضفي صفة شرعية على العبودية والاستعباد ، فيقول : « فاستعباد القاهر للمقهور هو أيضا من العدل ، وأن يفعل المقهور ماهو الأنفع للقاهر هو أيضا عدل · فهذه كلها هي العدل الطبيعي ، وهي الفضيلة · وهذه الأفعال هي الأفعال الفاضلة » ·

أما هذا الذي يسمى عادة عدلا كمعاملات البيع والشراء التي تجري بعيدا عن استعمال القوة ، ورد الودائع الى أهلها ، وعدم الغضب والجور ، فان الفارابي يرده الى الضعف والعجز والخوف المتبادل بين هذه الجهة وتلك ، وهو ما يعني تعادل الطرفين المتنازعين في القوة · غير انه يقول بضرورة وثوب أحد الطرفين على الآخر وقهره متى شعر بأنه أصبح أقوى منه ··· وتلك هي حال العدل لدى أهل المدن الجاهلة الضالة ، فهم على هذه المقاييس اللاانسانية يجرون شرعة العدل ، لا يستجيبون في ذلك لشيء سوى مافي الطبع من شر ·

والتقوى والخشوع الذي يتظاهر به الروحانيون في المدن الجاهلة انما هو من باب الاحتيال والكيد لغرض الفوز بالعيش الهانيء والحصول على المركز والجاه بأيسر السبل بعد أن عجزوا عن الحصول عليها عن طريق المغالبة والقهر · وفي ذلك يقول الفارابي عن خشوعهم بأنه :

« ان يقال ان الهاً يدبر العالم ، وان الروحانيين مدبرون ، مشرفون على جميع الأفعال واستعمال تعظيم الاله ، والصلوات والتسابيح والتقاديس ، وان الانسان اذا فعل هذه ، وترك كثيرا من الخيرات المتشوقة في هذه الحياة ، وواظب على ذلك ، عوض عن ذلك ، وكوفيء بخيرات عظيمة يصل اليها بعد موته · وان هو لم يتمسك بشيء من هذه ، وأخذ الخيرات في حياته ، عوقب عليها بعد موته بشرور عظيمة ينالها في الآخرة · فان هذه

يعجز عن المغالبة على هذه الخيرات ••• فان المتمسك بهذه ـ يعني الروحانيين ـ يظن به انه غير حريص عليها ، ويظن به الخير فيركن اليه ، ولا يحذر ، ولا يتقى ، ولايتهم ، بل يخفي مقصده ، وتوصف سيرته انها الهية ، فيكون زيه وصورته صورة من لا يريد هذه الخيرات لنفسه ، فيكون سببا لان يكرم ويعظم ويؤمل بسائر الخيرات ، وتنقاد النفوس له فتحبه ، فلا تنكر ارتكاب هواه في كل شيء ، بل يحسن عند الجميع قبيح ما يعمله • ويصير بذلك الى غلبة الجميع على الكرامات والرئاسات والأموال واللذات ونيل الخيرات • » •

ذاك هو رأي الفارابي في روحانيي المجتمعات الأخرى خارج مدينته ، فهل عساه يصبر على العيش في مثل هذه المجتمعات ؟ واذا فعل ، فما الذي سيلقاه من سكان هذه المدن الشريرة ، ومن هؤلاء المنافقين وهو الذي لا يتعبد الا لوجه الله ، ولا يتعفف ويزدري هذا الجاه الزائل والمادة العارضة الا لتقوى الله ؟

لاشك ان انسانا مثل الفارابي سيكون موضع السخرية في مثل هذه المجتمعات • وفي ذلك يقول أبو نصر عن أمثاله من الأتقياء بين هؤلاء :

« ومتى كان يفعل ذلك لذاته لا ينال به هذه الخيرات ، كان عند الناس مخدوعا مغرورا شقيا أحمق عديم العقل ، جاهلا بحظ نفسه ، مهينا لا قدر له ، مذموما • غير ان كثيرا من الناس يظهرون مديحته لسخرية به ، وبعضهم بقويه لنفسه في ان لا يزاحم في شيء من الخيرات ، بل يتركها ليتوفر عليه وعلى غيره • » والآن ، فهل يحق لأحد أن يعود على أبي نصر باللائمة عندما يراه يقطع علاقته بالمجتمع ما امكنه ذلك ليعيش « ناطوراً » في بعض رياض دمشق ، وقد زهد حتى بالأهل والولد ؟ لا نظن ذلك وهذا العالم ذو طبع لا يقطر منه غير الشر •

وهكذا انعكس الكثير من الأذى والألم الذي عاناه الفيلسوف الكبير في عاصمة الخلافة يوم اتهم في دينه في مجتمع سيطرت على مقدراته الشهوة والمادة بعد أن أشاع الأعاجم فيه اسباب الفساد ، وبعد أن تصدر مكان الأمر والنهي فيه جهلاء راحوا يكفرون هذا ، ويتهمون ذاك تعزيزا لمراكزهم الدنيوية ، وتقرباً من السلطة الحاكمة في عصر كانت فيه السياسة ملهاة بأيدي بعض من كانوا يتصورون بأنهم من رجال الدين • ان فلسفة الفارابي في مدينته الفاضلة ، كانت دونما شك ، مرآة صقيلة انعكست عليها النقمة الشديدة والألم العميق والحزن المستعر ، مما كان يعتمل في صدر الفيلسوف • بل وان المدينة الفاضلة ، كانت متنفسا له من آلامه وأحزانه عندما راح يحدد هويات المجتمعات الشريرة القائمة بما نفثه قلمه من نقمة بتلك اللهجة الصارمة • لكن متنفسه الأكبر بالحقيقة ، كان في تأمله الطويل كلها أبواب من الحيل والمكايد على قوم ، ولقوم • فانها حيل ومصايد لمن

واستغراقه في التطلع الى سر الوجود ، ثم انخطافه كأروع ما ينخطف به متصوف عظيم •

على أن تصوف الفارابي لم يكن من قبيل تصوف غيره من أعلام المتصوفين كالبسطامي والحلاج وذي النون وابن الفارض وابن عربي والكيلاني والسهروردي وغيرهم ، انما كان اشراقا فلسفيا يرقى به الى العالم الألهي حيث يخيل له أنه قطعة منه ، في غيبوبة قد لا يصادفها في حياته من الفلاسفة الا هؤلاء الذين تجردوا من كل ميل نحو هذا العالم المادي وشهواته ولذائذه ، بعد أن صفت نفوسهم وسرائرهم وتربعوا على القمة من مجد الفلسفة •

فالاشراق الفلسفي ينتهي الى انتصار الذهن واشراق العقل وتزكية النفس لتكون مستعدة لتلقي فيض العقل الفعال • وهذا الاستعداد قد يشتد في بعض الناس حتى لا يحتاج في أن يتصل بالعقل الفعال الى كبير مشقة ، بل يكون كأنه يعرف كل شيء من نفسه • وان من الناس من هو على درجة عظيمة من نقاوة النفس وصفائها ، وعلى اتصال شديد بالمبادىء العقلية حتى ليشتعل حدسا ، أي قبولا لالهام العقل الفعال ، في كل شيء •

وكان من حسن حظ دنيا الفلسفة أن تظفر في كتاب « الربوبية » بوصف رائع لاشراقات هذا العقل النابه ، وانخطافه : « ربما خلوت أحيانا بنفسي ، وخلعت بدني ، فصرت كأني جوهر مجرد ، فأكون داخلا في ذاتي ، وراجعا اليها ، وخارجا من سائر الاشياء سواي ، واكون العلم والعالم والمعلوم جميعا ، وأرى في ذاتي من الحسن والبهاء ما أبقى معه متعجبا ، واعلم عند ذلك اني من العالم الشريف جزء صغير • وحين اوقن بذلك أرقى بذهني الى العالم الألهي ويخيل الي كأني قطعة منه • وعند ذلك يلمع لي من النور والبهاء ما تكل الألسن عن وصفه والآذان عن سماعه • » •

كذلك الفارابي بعد أن صفت نفسه من أوشاب هذه الدنيا الفانية المطبوعة على الشر • كنت لا تراه الا مستغرقا في التطلع الى فيض العقل السماوي عند مجتمع المياه ومشتبك الرياض في الغوطة ، ليخرج بعد تأملاته الطويلة على الدنيا بنبأ « المدنية الفاضلة » ، وهو نبأ كان في الواقع ، بالنسبة لدارسي الفلسفة والاجتماع ، جد عظيم •

والفارابي بعد أن بلغ وطره وأعطى المجتمعات القائمة حقها في هذا الكتاب ، يعود الى العطف على واقع حياة الناس والأشفاق عليهم ايمانا منه بأن ذلك الشر قد أصبح فيهم بقضائه ، سبحانه ، وقدره ، فيبدأ زيارة سيف الدولة في حلب من جديد نزولا عند دعواته له طلبا للمشورة والنصيحة • ولم يكن مثل الفارابي من هو انصح للناس وأرأف بهم ، من الناس • فهو رغم كل ما شهده منهم من عنت ومكابرة ، وما لمسه فيهم من شرور ، كان يلتمس لهم العذر في ان ذلك شيء ليس من ارادتهم في شيء •

انه كان يؤمن بما قاله يوما :

بأن « التوفيق في الأمور بيد الله ، وكل ميسر لما خلق له · وعناية الله تعالى محيطة بجميع الأشياء ، ومتصلة بكل أحد ، وكل كائن ، فبقضائه وقدره · والشرور أيضا بقدره وقضائه · لأن الشرور على سبيل التبع للأشياء التي لابد لها من الشر · » ·

وذات يوم ، عندما وصل ركب سيف الدولة الذي كان يضم الفارابي، مشارف دمشق التي قصدها من حلب ، كانت مشاق السفر قد أثرت كثيرا في صحة ابي نصر · وكان الفارابي يومها قد بلغ الثمانين وأصبح شيخا كبيرا · وعندما حط المسافرون رحالهم جنب الغوطة وقد أقبل الليل ، كان الذي يتطلع الى الشيخ المسجى على فراشه تحت سماء دمشق ذات البهاء والجمال الذي يخطف البصر ، يراه منخطفا وهو يتطلع بعينين مفتوحتين ، وذهن طامح ، الى الذات العلية التي فاض عنها هذا الجمال · لكن هذه الانخطافة التي خلع خلالها الفارابي عنه بدنه ، شأنه كلما كان ينخطف ، والتي استغرقت الليل بطوله أغلب الظن ، كانت الأخيرة بالنسبة له ، فلم تعد نفسه العظيمة التي بلغت الذروة في مدارج الرفعة والكمال لتقبل العودة الى سجن هذا الجسم المادي الذي سحقته الآلام والسنون ·

وعندما نهض الحمداني مع صفوة من امراء العرب وحكمائهم للصلاة عليه وقد أفجعهم المصاب ، كانت جنة الفلسفة التي شيدها الفارابي في رحاب السماوات ، تقيم أعراسا وأفراحا عظيمة ابتهاجا بمقدم امام المتفلسفين · واني لاقطع قبل أن أضع القلم جانبا ، بأن أبا نصر عندما كان يجتاز « باب المجد » ــ مجد الفلسفة ــ ليشارك المحتفلين مباهجهم في مهرجانهم الفلسفي في هذه الجنة ، كان يردد قوله سبحانه : « يا ايتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية ، فادخلي في عبادي وادخلي جنتي » صدق الله العظيم · أم هل دارت نظرية الفارابي في « النفس » في غير هذا المدار ؟ ألا غفر الله لأبي نصر ان كانت قدم الفكر قد زلت به يوما في بعض ما ذهب ، فقد كان الرجل موحدا ، ومؤمنا ، بكل جوارحه ، بالله، وانه لواحد من أعاظم رجال الفكر المسلمين· وكانت وفاته في رجب عام ٣٣٩هـ ، الموافق لعام ٩٥٠م ·

ونحن على ثقة من أن قيمة الكاتب والمفكر لا تنحصر في عدد ما ينتج من كتب وحسب ، انما في اصالة الكتب التي ينتجها · وكانت أوربا قد باهت الدنيا يوم خلف فولتير بعده تسعة وتسعين كتابا ، قال مفكرو العالم عنها بانها جسدت أفكار القرن الثامن عشر في شخص فولتير · لكن الفارابي قد خلف بعده أكثر من مائة وعشرة من الكتب التي فاق بعضها كتب فولتير اصالة ، وقد تجسدت فيها بشخص الفارابي افكار قرنين أو ما يزيد ·

ولقد عدت على كتب الفارابي عاديات الزمن بسبب ما تعرضت لــه

خزائن كتب الدنيا العربية من تلف وبوار ، بعد ما شهدته عاصمة الخلافة بصورة خاصة ، من محن وأهوال في أواخر أيام الدولة العباسية . ومع ذلك فان في الذي بقي من هذه الكتب مافيه الكفاية لأن نباهي به الدنيا على مر العصور والأزمان . كذلك فان أغلب هذه الكتب المتيسرة من كتبه ، قد ترجم الى مختلف اللغات العالمية الحية . وكان ممن عني بترجمتها المستشرق ديتريشي في نهاية القرن التاسع عشر . واليك ثبتا بكتب الفارابي علك تعثر يوما على مخطوط من المفقود منها ، فتبادر الى الخروج به على دنيا الفلسفة ، ويكون لك عندئذ شرف تخليد اسمك سوية مع اسم الفارابي في التاريخ .

١ ـ شرح كتاب المجسطي لبطليموس .
٢ ـ شرح كتاب البرهان لارسطوطاليس .
٣ ـ شرح كتاب الخطابة لارسطو .
٤ ـ شرح المقالة الثانية والثامنة من كتاب الجدل لارسطو .
٥ ـ شرح كتاب المغالطة لارسطو .
٦ ـ شرح كتاب القياس لارسطو وهو الشرح الكبير .
٧ ـ شرح كتاب باريمينياس لارسطو .
٨ ـ شرح كتاب المقولات لارسطو .
٩ ـ المختصر الكبير في المنطق .
١٠ ـ المختصر الصغير في المنطق .
١١ ـ المختصر الاوسط في القياس .
١٢ ـ التوطئة في المنطق .
١٣ ـ شرح كتاب ايساغوجى لفرفوريوس .
١٤ ـ املاء في معاني ايساغوجى .
١٥ ـ كتاب القياس الصغير .
١٦ ـ احصاء القضايا والقياسات التي تستعمل على العموم في جميع الصنائع القياسية .
١٧ ـ شروط القياس .
١٨ ـ البرهان .
١٨ ـ الجدل .
٢٠ ـ المواضع المنتزعة من المقالة الثامنة في الجدل .
٢١ ـ المواضع المغلطة .
٢٢ ـ اكتساب المقدمات .
٢٣ ـ كلام في المقدمات المختلطة من وجودي وضروري .
٢٤ ـ كلام في الخلاء .
٢٥ ـ صدر لكتاب الخطابة .

٢٦ ـ شرح كتاب السماع الطبيعي لارسطو ٠
٢٧ ـ شرح كتاب السماء والعالم لارسطو ٠
٢٨ ـ شرح كتاب الاثار العلوية لارسطو ٠
٢٩ ـ شرح مقالة الاسكندر الافروديسي في النفس ٠
٣٠ ـ شرح صدر كتاب الاخلاق لارسطو ٠
٣١ ـ النواميس ٠
٣٢ ـ احصاء العلوم وترتيبها ٠
٣٣ ـ كتاب الفلسفتين لافلاطون وارسطو ٠
٣٤ ـ المدينة الفاضلة ٠
٣٥ ـ مبادىء آراء أهل المدينة الفاضلة ٠
٣٦ ـ الالفاظ والحروف ٠
٣٧ ـ الموسيقى الكبير ٠
٣٨ ـ احصاء الايقاع ٠
٣٩ ـ النقلة مضافاً الى الايقاع ٠
٤٠ ـ في الموسيقى ٠
٤١ ـ مختصر فصول فلسفية من كتب الفلاسفة ٠
٤٢ ـ المبادىء الانسانية ٠
٤٣ ـ الرد على جالينوس فيما تأوله من كلام أرسطو على غير معناه ٠
٤٤ ـ الرد على ابن الراوندي في أدب الجدل ٠
٤٥ ـ الرد على يحيى النحوي فيما رد به على أرسطو ٠
٤٦ ـ الرد على الرازي في العلم الالهي
٤٧ ـ الواحد والوحدة ٠
٤٨ ـ الخير والمقدار ٠
٤٩ ـ كتاب في العقل صغير ٠
٥٠ ـ كتاب في العقل كبير ٠
٥١ ـ في معنى أسم الفلسفة ٠
٥٢ ـ الموجودات المتغيرة ٠
٥٣ ـ شرائط البرهان ٠
٥٤ ـ شرح المستغلق من مصادر المقالة الاولى والخامسة من اقليدس ٠
٥٥ ـ في أتفاق آراء ابقراط وأفلاطون ٠
٥٦ ـ التنبيه على أسباب السعادة ٠
٥٧ ـ الجزء وما لايتجزأ ٠
٥٨ ـ أسم الفلسفة وسبب ظهورها واسماء المبرزين فيها ، وعلى من قرأ منهم ٠
٥٩ ـ الجن ٠
٦٠ ـ الجوهر ٠
٦١ ـ الفحص المدني ٠

٦٢ ــ السياسات المدنية •
٦٣ ــ الملة والفقه المدني •
٦٤ ــ من أقاويل النبي (ص) •
٦٥ ــ الخطابة •
٦٦ ــ قواد الجيوش •
٦٧ ــ المعايش والحروب •
٦٨ ــ التأثيرات السلوية •
٦٩ ــ الجهة التي يصح عليها القول باحكام النجوم •
٧٠ ــ الفصول المنتزعة للاجتماعات •
٧١ ــ الحيل والنواميس •
٨٢ ــ الرؤيا •
٧٣ ــ صناعة الكتابة •
٧٤ ــ شرح كتاب البرهان لارسطو •
٧٥ ــ العلم الالهي •
٧٦ ــ شرح المواضع المستغلقة من كتاب قاطيغورياس لارسطو •
٧٧ ــ أعضاء الحيوان •
٧٨ ــ مختصر جميع الكتب المنطقية •
٧٩ ــ المدخل الى المنطق •
٨٠ ــ التوسط بين أرسطو وجالينوس •
٨١ ــ غرض المقولات •
٨٢ ــ الشعر والقوافي •
٨٣ ــ شرح كتاب العبارة لارسطو •
٨٤ ــ تعاليق على كتاب القياس •
٨٥ ــ القوة المتناهية وغير المتناهية •
٨٦ ــ النجوم •
٨٧ ــ الاشياء التي يحتاج أن تعلم قبل الفلسفة •
٨٨ ــ فصول مجموعة من كلام القدماء •
٨٩ ــ أغراض أرسطو في كتبه •
٩٠ ــ المقاييس •
٩١ ــ مختصر كتاب الهدى •
٩٢ ــ في اللغات •
٩٣ ــ الاجتماعات المدنية •
٩٤ ــ حركة الفلك الدائمة •
٩٥ ــ ما يصلح أن يذم المؤدب •
٩٦ ــ المعاليق والمجون •

٦٧ ـ لوازم الفلسفة ٠
٩٨ ـ وجوب صناعة الكيمياء والرد على مبطليها ٠
٩٩ ـ أغراض أرسطو في كتابه « الحروف » ٠
١٠٠ ـ الدعاوى المنسوبة الى أرسطو مجردة من بياناتها وحججها ٠
١٠١ ـ تعاليق في الحكمة ٠
١٠٢ ـ معاني الذات والجوهر والطبيعة ٠
١٠٣ ـ مختصر جوامع السياسة ٠
١٠٤ ـ شرح بايريمنياس لارسطو ٠
١٠٥ ـ المدخل الى الهندسة الوهمية ٠
١٠٦ ـ مختصر كتاب عيون المسائل على رأى ارسطو ٠
١٠٧ ـ أجوبة على ثلاث وعشرين مسألة ٠
١٠٨ ـ أصناف الاشياء البسيطة في الصنائع القياسية ٠
١٠٩ ـ جوامع كتاب النواميس لافلاطون ٠
١١٠ ـ جواب حول رأي أرسطو في الحار ٠
١١١ ـ تعليقات انالوطيقا الاولى لارسطو ٠
١١٢ ـ شرائط اليقين ٠
١١٣ ـ السماع الطبيعي ٠

من مراجع البحث

١ ـ الفارابي : مجموع فلسفة ابي نصر ٠
٢ ـ الفارابي : المدينة الفاضلة ٠
٣ ـ الفارابي : رسائل الفارابي ٠
٤ ـ ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ٠
٥ ـ ابن خلكان : وفيات الاعيان ٠
٦ ـ الغزالي : تهافت الفلاسفة ٠
٧ ـ القاضي صاعد الاندلسي : طبقات الامم ٠
٨ ـ دي بور : تاريخ الفلسفة في الاسلام ٠
٩ ـ محمد لطفي جمعة : تاريخ فلاسفة الاسلام ٠
١٠ ـ أحمد أمين وزكي نجيب محمود : قصة الفلسفة اليونانية ٠
١١ ـ الدكتور جميل صليبا : من افلاطون الى ابن سينا ٠
١٢ ـ الدكتور محمود قاسم : في النفس والعقل ٠
١٣ ـ الدكتور عثمان أمين : شخصيات ومذاهب فلسفية ٠

على الشاطئ المسحور

محمد هارون الحلو

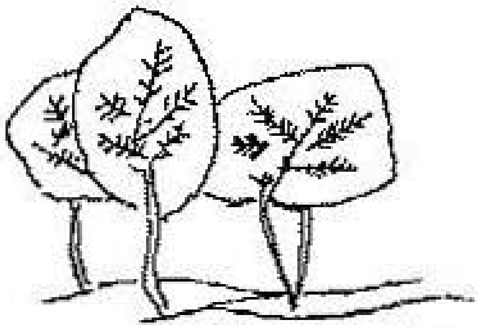
غدوت «برأس البر[1]» والعيش خلسة … وحلم بهيج ، يسعد المهجات
مررنا على وادي النخيل فأومأت … الينا ذوات الشدو فى العذبات
تغنت فهاجت فى الفؤاد بلابلا … وأشجت بأوتار من النغمات
ومالت مع الانسام ذات غدائر … وحيت بأفواف السنا العطرات[2]
فكبرت باسم الله ما شاء جنة … مطيبة الاعطاف ، والثمرات
وطار جناح الشوق للبحر ، واستوى … بنا زورق النجوى على عرفات
وفدنا على عيش هنيء وبهجة … وما قد يلذ القلب من لهوات
جزيرة أحلام بها تتق الهوى … أباريقه في مسكة النفحات
وراح بها يغشى الضفاف ودونه … الى البحر زاورق من النسمات
يفض عن الراح الختام فينتشي … برياه ظمآن الى الرشفات
وكم من عشاش شيدت بأناقة … على عذبات النخل والقصبات
بها يخلد القلب انشتيت لراحة … ويهنأ بما يلتذ من غفوات
وبالشاطيء المخموز أرسيت ظلي … على الرمل مزورا من اللفحات
ومن تحتي الامواج تسعى مواكبا … الى الشط في ترنيمة الصلوات
وحولى عراجين الجنى قد تهدلت … وقد راق وشي الزهر في الثمرات
خمار الهوى في البحر : رى ونشوة … تعب به الارواح روح حياة
ويدنى الى ثغر المشوق علالة … من الكأس تظميه الى الرشفات

---

(۱) رأس البر : أشهر مصطاف في الجمهورية العربية المتحدة ويقع شمال فرع دمياط من نهر النيل السعيد .

(۲) ذات غدائر : هي النخلة حيث يطالع الوافد على المصيف جنات من النخيل .

وكم ظبية زهراء رفت مع السنا … على الموج ، والآذي في سكرات
اذا لم ينل منهـا أفاويح ثغرها … وريا جنـاها ضـج بالحسرات
وفي البحـر آرام نفرن حواسراً … يمضين فيه أسعد اللحظـات
سبحن على الموج الطروب كواكبـا … ملألئة ، يسـمرن بالضحكات
جلست الى البحر المهيب جلالـة … وفي البحر ما فيـه من العبرات
بدائع مما يصنع السحر خطهـا … يد القـادر الجبار في الصفحات
وممـا يشوق القلب أفـق مكور … على الماء ، مرماه جنـاح قطـماة
تقوم على الماء السماء ، فما نرى … سـوى قبة قد أركزت بفـلاة
وان انس ، لا انس الاصيل وسحره … وموكبـه مستروح الفتيـات
وفدن على الشط البهيج عرائسا … مونقـة الاعطـاف كالـزهرات
وللشمس تجوى في الغروب تبثهـا … الى الشط في اغفـاءة وصـلاة
ترامت عـلى الآذي ، جوهرة السنا … وخرت الى الاذقان في سـجدات
وغاصت بعرش النور في الماء علها … تخفف عنهـا لفحة الجمـرات
وطير جناحاه من النور صـفقا … عـلى حائر في غمرة الظلمـات
يرف على الافق القصي جنـاحه … وعيناه برق سـاطع اللمحـات
وكم ذكريـات بالمصيف تركتهـا … ورائي مع الروحات والغـدوات
تبـاركت يا ربي فكـم لك آية … بدعت الورى من سـابغ الرحمات



حركة ايار الخالدة

عبدالرزاق الحسني

حقيقة المسألة الشرقية ـ المصالح البريطانيـــة في العراق ـ الفتح البريطانية للعراق ـ القوى المتصارعة في العراق عهود الحلفاء ووعـــودهم وعبثهم بعهودهم ووعودهم ـ نظام الانتداب وثورة العراق ضد الانتداب ـ ستر الانتداب بسياسة المعاهدات ـ تعدد المعاهدات بين بريطانية والعراق ـ ستر المصالح البريطانية بمعاهدة ٣٠ حزيران ١٩٣٠ دخول العراق عضوا في عصبة الامم وتخلصه من نظام الانتداب ـ بوادر الحرب العالمية الثانيـة ـ اختلاف العراقيين في موقفهم تجاه المتحاربين ـ مقتل الملك غازي ونصب الامير عبدالاله وصيـا على عرش العراق تحيز الامير للانكليز ـ اصطدام الامير بقادة الجيش وباقطاب السياسة ـ هربه الى الديوانية ـ استقالة الوزارة القائمة تأليف وزارة مؤقتة ـ قيام حكومة عسكرية اثر مقررات سرية ـ لجوء الامير الى القاعدتين البريطانيتين في الحبانية والبصرة ـ الاصطدام في الحبانية وفي البصرة ـ فقدان التكافؤ بين القوتين المتحاربتين ـ صمود الجيش صمودا هائلا تغلب الباطل على الحق ـ رجوع الامير الى العراق على أسنة الحراب البريطانية ـ النهاية المحزنة ٠

× × ×

كان للقرار السديد الذي اتخذته الجمهورية العراقية الخالدة بتشييع جنازة المغفور له السيد رشيد عالي الكيلاني تشييعا رسميا وتسميتها لاهم شارع في بغداد باسم « حركة أيار الخالدة » واعتزامها اصدار طوابع رسمية بالمناسبة ، كان لهذا القرار السديد رنة استحسان في دنيا العرب لانه حقق الرغبة العامة في ضرورة تخليد هذه الحركة الجبارة فرأينا ان نكتب فصلا مسهبا عن العوامل الحقيقية التي أدت الى قيام حركة أيار الخالدة وما لابسها من غموض وابهام مستندين في كتابته الى أهم المصادر الرسمية وغير الرسمية التي عالجت هذا الموضوع حتى الان فنقول وبالله المستعان :

× × ×

لما انفجر بركان الحرب العالمية الاولى في ٢٨ تموز ١٩١٤م كان مـن

وحي سياسة الامبراطورية العثمانية العامة الوقوف على الحياد حتى آخر لحظة ممكنة ، ولم يكن هذا الوحي ناشئا عن معرفة العثمانيين وضعهم الداخلي وما يتطلبه من اصلاح في نواحيه المتعددة وانما كان يعوزهم المال والسلاح لادارة ماكنة الحرب . وقد قدر ساستهم نتيجة الدخول في الحرب بانها ستؤدي الى حل « المسألة الشرقية »(١) فلا تكون فيه الانبراطورية العثمانية أولى ضحاياها فنصحوا بعدم المغامرة ، وارتأى قادتهم أن تحالفهم مع المانية لابد ان يجرهم عاجلا أم آجلا الى امتشاق الحسام « أملا في أن يحيوا في المستقبل حياة حرة خليقة بشعب أبي »(٢) لان المانية ستكسب الحرب حتما .

وفي الوقت الذي كانت دبلوماسية بريطانية وحلفائها تركن الى الضغط تارة والى التهديد طورا لحمل العثمانيين في الوقوف الى جانبهم ، كان السفير الالماني في اسطنبول يغري السلطات والقادة بمعسول الاماني ، ويظهر استعداد حكومته لتقديم الذهب والسلاح اللذين يحتاج اليهما العثمانيون فيما اذا وقفوا على الحياد . وانما اختارت المانية حياد الانبراطورية العثمانية وقتئذ لتؤمن حاجتها فيها من المواد الغذائية الاولية ولتتمكن من انجاز مشروع الخط الحديدي الذي يربط برلين بالكويت « وهو المشروع الذي تقرر جعل نهايته بغداد حسما للنزاع الذي قام حوله » فلا يحول الاسطول البريطاني دون اتصالها بالبلاد العثمانية برا .

ولما ظهر لوزارة الخارجية البريطانية وللسلطات العسكرية والسياسية في منتصف ايلول ١٩١٤ وجوب تحذير حكومة الهند من خطورة موقف العثمانيين حيال الانكليز وضرورة الركون الى تدابير الحيطة والحذر لم يسع الحكومة البريطانية غير الاقرار بواقع الحال « ففي أوائل شهر تشرين الاول عام ١٩١٤ صدرت الاوامر السرية الى لواء المشاة السادس عشر من الفرقة السادسة ـ وهي فرقة بونه ـ بالاقلاع من بومبي الى الخليج العربي »(٣) وقد سميت هذه القوة «حملة ·د» لانها انيطت بالجنرال ديلايين «وعلاوة على هذا تقرر ارسال ما تبقى من الفرقة الهندية لتقوية ·د في حالة اعلان الحرب على العثمانيين على ان تكون الحملة بأجمعها تحت ادارة حكومة الهند»(٤) .

وفي ٢٧ تشرين الاول ١٩١٤ قصفت البارجتان العثمانيتان «برسيلاوه» و « غوبن » الموانىء الروسية على البحر الاسود فأعلنت روسية الحرب على الانبراطورية العثمانية في الثاني من شهرين تشرين الثاني من هذه السنة وتلتها بريطانية وفرنسه فأعلنتاها في الخامس من الشهر المذكور ، وكانت حملة ·د· قد دخلت مياه شط العرب فأسرعت بقية الفرقة السادسة لتعزيزها وهكذا احتل الجيش البريطاني مدينة البصرة في ٢٢ من هذا الشهر وقبض على القنصل الالماني وحاشيته فيها فأرسلهم الى الهند فتكون هذه الحملة قد احتلت ميناء العراق الوحيد بيسر واستولت على مدينة تبلغ تجارتها

السنوية ستة ملايين من الباونات «يومئذ» وبددت بضربة واحدة أحلام الالمان المبتنية على ان تكون لهم مراكز نفوذ واسعة في الشرق الاوسط .

وكان السربرسي كوكس قد ألحق بحملة الجنرال ديلاماين هذه كمستشار سياسي فأبرق الى نائب الملك في الهند والى القائد العام فيهما يخبرهما بهذا الفتح ويحسن لهما فكرة التقدم نحو بغداد . ولما كانت الوصايا الصادرة الى الحملة تقضي بأن تكون البصرة هدفها ، جرت مراسلات طويلة بين نائب الملك في الهند ووزير الهند في لندن أسفرت عن تقدم الحملة نحو العمارة والناصرية فاحتلتهما بعد قتال غير بسيط . وكان احتلال العمارة في ٣ حزيران ١٩١٥ واحتلال الناصرية في ٢٥ تموز من هذه السنة .

وأبى الجيش البريطاني ان يكتفي بما احتله فزحف على مدينة الكوت واحتلها في ٣٠ ايلول ١٩١٥م وفي أواخر تشرين الثاني من السنة نفسها كانت رحى الحرب تدور بفظاعة في جوار « سلمان باك » واذا بالجيش العثماني يدحر الجيش البريطاني ويضطره للتراجع الى الكوت ثم يضرب عليه حصارا يطول أمده ويضطره للاستسلام في ٢٩ نيسان ١٩١٦ فكان ذلك أعظم فوز للعثمانيين اذ بلغ عدد الاسرى (١٣٣٠٩) بين ضابط وجندي وكان لذلك أسوء وقع في صفوف الحلفاء في شتى جبهات القتال .

وشعرت بريطانية أن من المحتمل ان يتقدم الجيش الروسي نحو بغداد ويحتلها فاستقر رأيها على احتلالها قبله لاغراض سياسية وعسكرية مما . فبدأ الجنرال مود يغالب العوائق ويهاجم مواقع العثمانيين بجوار الكوت. وفي ٢٨ شباط ١٩١٧م كانت القوات البريطانية في « سلمان باك » وفي فجر اليوم الحادي عشر من شهر آذار ١٩١٧ احتل بغداد وفي ٣٠ تشرين الاول من السنة التالية « ١٩١٨ » كانت تهدد مدينة الموصل بالاحتلال حين اعلنت «هدنة مندوس» وهكذا يكون الانكليز قد استولوا على العراق برمته بعد ان كلفهم من الضحايا مئة الف رجل أو ما يقرب من مجموع خسائر الامريكيين في الحرب(٥) أما نفقات حملتهم العسكرية فقد اربت على المائتي مليون جنيه(٦)

× × ×

لما اندلعت لهب الحرب العالمية الاولى سنة ١٨١٤م صرح الناطقون الرسميون باسم الحلفاء « ان الحلفاء لا يستهدفون من حربهم هذه ضم أراضي جديدة أو الحاق مدن اخرى بأراضيهم ، وانهم انما يحاربون لتحرير الشعوب التي ترزح تحت الطغيان الالماني والتركي وليست لهم أية نية في أي توسع اقليمي وزاد دخول امريكا الحرب الى جانب الحلفاء هذا المبدأ توكيدا»(٧) ولما احتل الجنرال مود بغداد أعلن باسم حكومته البريطانية في التاسع عشر من اذار ١٩١٧ « ان الجيش البريطاني لم يدخل العراق الا ليحرره من المظالم وانه لم يكن فاتحا بل محررا » وقد أعقب هذا التصريح تصريحات اخرى أهمها التصريح الانكليزي – الفرنسي بتاريخ ٧ تشرين الثاني ١٩١٨م القائل

« ان الغاية التي ترمي اليها كل من فرنسه وانكلتره من خوض غمار الحرب في الشرق من جراء اطماع المانية هي تحرير الشعوب التي طالما رزحت تحت أعباء استعباد الاتراك تحريرا نهائيا ، وتأسيس حكومات وادارات وطنية تستمد سلطتها من رغبة السكان الوطنيين أنفسهم وبمحض اختيارهم ٠٠ الخ »

فلما انتهت الحرب بنصر الحلفاء وجاء زمن توزيع الاسلاب تنكر هؤلاء الحلفاء لكافة وعودهم وعبثوا بكل عهودهم ٠ ولما صعب عليهم التوفيق بين قاعدة « الحق الفتح » القديمة وبين نظرية « تقرير المصير » التي كانوا يبشرون بها ابتدع الجنرال البويري جان سمطس فكرة انشاء « عصبة امم » تعمل على تجنب الحروب وتراعي الحقوق العامة ، وتتولى الانتداب على البلدان التي انسلخت من الانبراطورية لكي تكون « وديعة مقدسة من ودائع المدنية ٠٠٠ الى الامم الراقية التي تستطيع بفضل ثروتها او اختبارها او موقعها الجغرافي أن تتحمل هذه المسؤولية ٠ على ان تستمد الارشاد والمساعدة من دولة اخرى حتى يأتي الزمن الذى تصبح فيه قادرة على الوقوف بمفردها »(٨) أي انه جعل الانتداب اسما مستعارا للاستعمار وستارا له فقبل هذا الحل في الحال وأصبحت « عصبة الامم » حقيقة راهنة ٠

وفي ٢٥ نيسان من عام ١٩٢٠ اجتمع مجلس الحلفاء الاعلى في « سان ريمو » وعهد الى بريطانية بالانتداب على فلسطين والعراق والى فرنسه بالانتداب على سورية ولبنان بعد ان جزأ البلدان العربيـــة الى دويلات لا يقرها وضعها الجغرافي ولا يتفق مع مطامح الامة العربية في الوحدة الشاملة ٠ وكانت هذه التجزئة تنفيذا لمعاهدة سرية كانوا عقدوها فيما بينهم بتاريخ ١٥-١٧ ايار سنة ١٩١٦ « لتنظيم الاوضاع المقبلة في شرق البحر المتوسط بين الفرنسيين والانكليز وتثبيت السياسة الانكليزية المقبلة في الامور التي تنشأ من تفسير مراسلات الحسين-مكماهون »(٩) وهي المراسلات التي ضمنت استقـــلال البلدان العربية وحملت العرب على خوض غمار الحرب الى جانب الحلفاء ٠

× × ×

لم يرتض العراقيون نظام الانتداب الذي فرض عليهم فقاوموا مقاومة مسلحة واعلنوا « ثورتهم الكبرى » في ٣٠ حزيران ١٩٢٠ ٠ وقد تكبد العراقيون والبريطانيون معا فى هذه الثورة خسائر جسيمة في الاموال والانفس مما حمل البريطانيين على التفكير في وجوب ايجاد تسوية تحقق مطـــالب العراقيين في الحرية والاستقلال، وتجعل نظام الانتداب منفذا من وراء ستار ٠

وكان السوريون قد نادوا بالامير فيصل بن الملك حسين ملكا عـــلى سورية في ٨ اذار ١٩٢٠ فنادى العراقيون المقيمون في دمشق يومئذ بالامـير عبدالله شقيق الامير فيصل ملكا على العراق وقد توج الامير فيصل فعـلا ، وبقيت بيعة الامير عبدالله في عالم الخيال اذ كان « يصعب على العقل قبول قرار

او النزول على حكم قررته جماعة التآمت في بلاد غير بلادها بحق بلاد لا حول ولا طول لها بها »(١٠) وعلى كل فقد تنكر الفرنسيون لهذه القرارات وزحف الجنرال غورو على دمشق في ٢٤ تموز ٩٢٠ فقوض حكم الامير العربي واضطر الامير للسفر الى أوربا وكانت مجازر الانكليز في العراق تستفز الساسة البريطانيين وتحملهم على التفكير في وجوب ايجاد حل للمشكلة العراقية. فاقترح المستر مونتاكو وزير الهند في لندن على الحكومة البريطانية « ان تعقد مع العراق » معاهدة توضح الخطوط الاساسية للعلاقات بين الطرفين وتتضمن بنود الانتداب ومبادئه كما عهد به مجلس الحلفاء الاعلى لتقضي على الغموض الذي كان يكتنف هذه العلاقات وتؤسس حكما واضحا يدين لها بالولاء(١١) وقد رحب اللورد كرزن وزير الخارجية البريطانية بهذه الفكرة كما رحب بها المستر تشرشل الذي عهدت اليه وزارة المستعمرات في تلك الظروف الحرجة فاستدعى تشرشل فيصلا الى لندن وفاوضه بما يكنه ويرتأيه لحل مشكلة العراق وبعد ان اطلع على مشروع الانتداب البريطاني على العراق ومسؤوليات الحكومة المنتدبة تجاه عصبة الامم وعلى المصالح البريطانية فيه قال انه يعدم بعقد معاهدة بين بريطانية والعراق تقوم مقام الانتداب اذا ما قدر له ان يكون الحاكم على العراق فاستحسن الامير هذا الحل ووافق عليه ·

× × ×

هكذا نشأت فكرة عقد معاهدات حلفية بين العراق وبريطانية لتنظم العلاقات الانتدابية التي فرضها مجلس الحلفاء الاعلى على العراق فكيف كان السبيل لذلك ؟

عقد المستر تشرشل مؤتمرا في القاهرة في ١٢ اذار ١٩٢١ حضره الممثلون البريطانيون « من عسكريين وسياسيين » في مناطق الشرق الاوسط والشرق الادنى للمداولة في أمر انقاص النفقات البريطانية في المناطق المذكورة واعادة النظر في السياسة المتبعة فيها · وكان مما تقرر في هذا المؤتمر تنصيب الامير فيصل ملكا على العراق لانهاء الحكم العسكري المباشر الذي كان يكلف الخزانة البريطانية نحو ثلاثين مليون باون في السنة ، وفي حزيران من هذه السنة كان الامير قد وصل الى بغداد وفي ٢٣ اب ١٩٢١ نودي به ملكا على هذا الاساس ولما شرع في وضع المعاهدة العراقية ــ الاولى اتضح للمفاوض العراقي وللملك فيصل نفسه ان هذه المعاهدة يجب ان تتضمن مواد الانتداب كلها دون ان يذكر فيها اسم الانتداب ·

ولسنا في صدد بيان الازمات السياسية الحادة والاضطهادات التعسفية التي رافقت هذه المفاوضات فانها طويلة ، ومملة ، ولكننا نقول ان الحكومة البريطانية التي كانت تحكم العراق من وراء الستار استطاعت ان تكره « الوزارة النقيبية الثالثة » على اقرار المعاهدة المطلوبة في ١٠ تشرين الاول ١٩٢٢م كما استطاعت ان تحمل المجلس التأسيسي الذي اجتمع في ربيع

١٩٢٤ على تصديقها وتصديق ما الحق بها من بروتكول واتفاقيات مالية وعسكرية وعدلية مع اتفاقية الموظفين البريطانيين الواجب استخدامهم في العراق وكانت مدة هذه المعاهدة تقلص وتمدد بين حين وحين فقد كانت مدة المعاهدة عشرين عاما ، وفي سنة ١٩٢٣ انقصت الى أربع سنوات وفي ١٣ كانون الثاني ١٩٢٦ جعلت هذه المدة (٢٥) عاما وبموجب معاهدة كانون الاول ١٩٢٨ اعتبرت مدة المعاهدة منتهية بدخول العراق عضوا في عصبة الامم .

واتضح للانكليز وللملك فيصل معا ان الحالة العامة في العراق لايمكن ان تأخذ قرارا مستقرا ما لم تنته العلاقات الانتدابية بين بريطانية والعراق على صورة رسمية وهذا يتطلب دخول العراق عصبة الامم ، وضمان مصالح الانكليز في هذا الجزء من العالم . وكانت هذه المصالح تتمثل في المبادىء الاتية :

١ ـ الاعتراف باستقلال العراق التام على أساس المساواة مع دولة من أعظم دول العالم « آنئذ »

٢ ـ عقد تحالف وثيق مع بريطانية العظمى على أساس معاهدة مدتها ٢٥ سنة .

٣ ـ الاعتراف بحفظ وحماية المواصلات الجوية البريطانية في الحال وفي الاستقبال وبصورة دائمة .

وكان «الاعتراف بحفظ وحماية المواصلات الجوية البريطانية» يتطلب وجود قواعد عسكرية بريطانية في العراق مع هيأة عسكرية بحجة تدريب الجيش العراقي ، وتشاور مستمر في شؤون السياسة الخارجية وكيفية التعاون بين العراق وبريطانية في حالة حدوث حرب أو ظهور خطر حرب ، وغير ذلك من الامور التي كان العراق يعدها ثلما في استقلاله وطعنا في سيادته وانتقاصا لحريته ، وعلى الرغم من كل هذا فقد عقدت معاهدة ٣٠ حزيران ١٩٣٠ واعتبرت نافذة المفعول لمدة ٢٥ عاما اعتبارا من تاريخ دخول العراق عضوا في عصبة الامم وهو التاريخ الذي يوافق ٣ تشرين الاول ١٩٣٢ .

* * *

كان أهم ما في معاهدة ٣٠ حزيران ١٩٣٠م المادة الرابعة من المعاهدة ونصها :

« اذا اشتبك أحد الفريقين الساميين المتعاقدين في حرب ـ رغم أحكام المادة الثالثة أعلاه ـ يبادر حينئذ الفريق السامي المتعاقد الآخر فورا الى معونته بصفة كونه حليفا وذلك دائما وفق احكام المادة التاسعة . وفي حالة خطر حرب محدق يبادر الفريقان الساميان المتعاقدان فورا الى توحيد المساعي في اتخاذ تدابير الدفاع المشتركة .

« ان معونة صاحب الجلالة ملك العراق في حالة حرب أو خطر حرب محدق تنحصر في أن يقدم الى صاحب الجلالة البريطانية في الاراضي العراقية جميع ما في وسعه أن يقدمه من التسهيلات والمساعدات ومن ذلك استخدام السكك الحديدية والانهر والموانىء والمطارات ووسائل المواصلات » ، اهـ ٠

فلما أعلنت بريطانية الحرب على ألمانية في اليوم الثالث من شهر ايلول ١٩٣٩م وحذت فرانسة فأعلنتها على المانية أيضا قررت « الوزارة السعيدية الرابعة » :

« نظرا الى الوضع الدولي الراهن وما يمكن أن يتولد من وجود الرعايا الالمان في العراق من ارتباكات قرر مجلس الوزراء تسفير الرعايا المذكورين وقطع علاقات العراق مع الحكومة الالمانية وتخويل وزيري الخارجية والداخلية ما يلزم من التدابير لهذا الغرض » ٠

وفي ١٨ شباط ١٩٤٠ استقالت وزارة نوري السعيد الرابعة ، احتجاجا بما أصابها من وهن وضعف على أثر مقتل وزير المالية رستم حيدر ولكن نوري ما لبث أن ألف الوزارة للمرة الخامسة في الثاني والعشرين من شباط المذكور غير ان وزارته هذه لم تلبث طويلا فاستقالت في ٣١ آذار ١٩٤٠ وعهد الى رئيس الديوان الملكي السيد رشيد عالي الكيلاني بتأليف وزارة مؤتلفة فألفها في اليوم المذكور وكان نوري السعيد وزيرا للخارجية فيها ٠

وكان الوضع الحربي في ابان الحرب العالمية الثانية يسير في مصلحة الالمان كما كان في ابان الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٤م فقد انهارت بولندة وهولندة وبلجيكا والنرويج ، وأصبح انهيار فرانسة وشيكا واذا بالساسة العراقيين يصبحون ثلاثة فرقاء ٠

١ ـ فريق يجري مع بريطانية دون قيد وشرط ٠ فان تعارضت مصلحة العراق ومصلحة العرب مع المصلحة البريطانية ، ضغط على المصلحة الاولى ليساير الثانية ٠

٢ ـ وفريق يجري مع بريطانية بشيء من التحفظ اعتقادا منه أن مصلحة العراق تقضي بذلك ٠

٣ ـ وفريق يجري مع المصلحة العربية العامة والمصلحة العراقية الخاصة، فان تعارضت هاتان المصلحتان مع المصلحة البريطانية ضغط على هذه ليساير المصلحة العراقية ٠

ودل الوضع الدولي في أواسط أيار على أن ايطالية ستنضم بعد أيام قليلة الى ألمانية وتدخل الحرب في جانبها ٠ فقصد السر بازل نيوتن سفير بريطانية في العراق السيد نوري السعيد وزير الخارجية العراقية وبعد أن أبلغه أن ايطالية ستعلن الحرب على فرانسة وبريطانية خلال الـ ٤٨ ساعة المقبلة طلب اليه أن يعرف موقف العراق من ايطاليا ، ولمح الى ضرورة

قطع العراق مناسباته معها كما قطعها مع ألمانية من قبل ولما نقل الوزير العراقي معلومات السفير البريطاني الى رئيس الوزراء السيد رشيد عالي الكيلاني جمع هذا مجلس الوزراء في ٢٥ أيار ١٩٤١م واستحصل قرارا مآله « ان اتخاذ قرار ما بهذا الشأن يعد سابقا لأوانه ولا سيما وان ايطاليا لم تدخل الحرب » فلما شهرت ايطاليا الحرب على فرنسا وانكلترا في ١٠ حزيران من هذه السنة استأنف السفير البريطاني مقابلته وطلبه الى وزير الخارجية فاستأنف الوزير العراقي التبليغ الى رئيس الوزراء ولما اجتمع مجلس الوزراء لاستئناف البحث في هذا الموضوع ، عرض السيد نوري السعيد طلبه أن تبادر الحكومة العراقية لقطع مناسباتها السياسية مع ايطاليا كما فعلت ذلك مع ألمانيا من قبل فأيده فريق من الوزراء وعارض فريق . ولما طلب نوري أن يتخذ المجلس قرارا واضحا أجل المجلس جلسته الى اليوم التالي ليتخذ القرار المأمول .

وطلب الامير عبدالاله الوصي على عرش العراق(١٢) أن تعقد الجلسة المرتقبة لمجلس الوزراء تحت رئاسته في البلاط الملكي فعقدت في صباح اليوم الحادي عشر من حزيران ١٩٤٠م وبعد أن نوقشت القضية موضوعة البحث بكل صراحة ، ووقف الوصي على آراء الوزراء ، انتقل المجلس الى ديوانه الرسمي واتخذ هذا القرار :

« تداول مجلس الوزراء في الوضع الدولي الراهن الناشيء عن اعلان ايطاليا الحرب على الحلفاء ، وأخذ جميع العوامل والظروف بنظر الاعتبار بدقة وعناية ، وقرر :

١ ــ ان الحكومة العراقية متمسكة بمعاهدة التحالف المنعقدة بينها وبين الحكومة البريطانية وماضية في وفائها لعهودها بروح متشبعة بعطف وولاء .

٢ ــ ان الحكومة العراقية تقوم بكل ما يترتب عليها من واجبات وفق أحكام معاهدة التحالف لصيانة المواصلات والمنافع المشتركة العراقية ــ البريطانية في البلاد .

٣ ــ ترى الحكومة العراقية في الوقت نفسه أن تتريث في أمر النظر في قطع الصلات السياسية بينها وبين ايطاليا » اهـ .

فلما بلغ السفير البريطاني بهذا القرار ، قابل رئيس الوزراء في مكتبه الرسمي وقال له أنه تلقى برقية من وزارة الخارجية البريطانية تنبئه بدهشتها لتردد مجلس الوزراء العراقي في قطع علاقاته بايطاليا لانها تعتبر هذا القطع من الامور الحيوية لها فكل تردد في هذا السبيل يؤثر في الصداقة القائمة بين العراق وبريطانيا . واذا بالمستر ونستن تشرشل الذي رأس الوزارة البريطانية يصرح بما يلي :

« لما اعلنت الحرب قطع العراق علاقته الدبلوماسية بألمانيا لكنه لم

وتدل التتبعات التاريخية الدقيقة على أن السفير البريطاني فيالعراق أدرك منذ اللحظة الاولى صعوبة التعاون مع « الوزارة الكيلانية الثالثة » في مثل هذه الظروف الحرجة فأخذ يتحين الفرص للتخلص منها • مثال ذلك :

١ ـ سبق لوزارة نوري السعيد الرابعة أن وضعت عددا منالمراسيم والانظمة التي استدعى قيام الحرب العالمية الثانية وضعها • وكان من بينها قانون يخضع الصحافة والنشرات الى الرقابة الحكومية • وكان الوضع الحربي في ابان الحرب يسير في مصلحة الالمان فكان من الطبيعي أن تنشر الصحف العراقية أنباء القتال كما هي ، وتنقل عن المحطات الاذاعية المنوعة مختلف الانباء فكان هذا النقل يغيض السفير ويؤلمه •

٢ ـ طلبت السفارة البريطانية في بغداد أن يسمح لها بلصق صور على علب الكبريت واللفافات تحط من قدر الالمان والطليان فلم تقر الحكومة العراقية هذا الطلب •

٣ ـ أرادت السفارة المذكورة أن تشغل سينما جوالا يرى القبائل والريفيين صورا خلاعية لدولتي المحور فلم تر الحكومة مسوغا للقيام بهذا العمل •

٤ ـ أعدت السفارة كميات كبيرة من الرسائل والنشرات الشائنة للدولتين المذكورتين ، وطلبت السماح بتوزيعها على الاهلين فرفضت وزارة الداخلية ذلك •

٥ ـ استبدل الروس سفيرهم في أنقرة بسفير آخر • فاجتمع السفير الجديد بوزير العراق المفوض في أنقرة وقال له « ان حكومة موسكو تعطف على أماني العرب الاستقلالية عطفا خاصا ، وتؤيد جهادهم للحرية ، وتود تأسيس علاقات سياسيةبينها وبينالعراق فاذا كنتم تبادلونها هذا الشعور فان باب التبادل الدبلوماسي مفتوح » ولما نقل الوزير العراقي هذا الحديث الى حكومة بغداد واحيل على السفارة البريطانية لمعرفة رأيها كما تقضي المعاهدة القائمة بين الطرفين جن جنون الانكليز •

٦ ـ كانت الوزارة تلح على الجهات البريطانية بوجوب سد حاجة الجيش العراقي من السلاح تنفيذا لاحكام البند الخامس من الملحق العسكري لمعاهدة ٣٠ حزيران سنة ١٩٣٠ وكان هذا الالحاح يغيض السفير البريطاني ويستفزه ولا سيما بعد أن هددته الوزارة بتدارك هذا السلاح من أسواق أجنبية اخرى كجيكوسلوفاكيا مثلا •

٧ ـ وجاء ضغثا على ابالة اتفاق الوزارة مع حكومة طوكيو على بيعها محصول القطن العراقي من شركات يابانية بأسعار تفوق الاسعار التي اعتادت الشركات البريطانية أن تشتري بها هذا المحصول العراقي في كل عام •

وقد ضاق السفير البريطاني ذرعا بمواقف «الوزارة الكيلانية الثالثة» هذه فقابل وزير خارجيتها نوري السعيد في يوم ١٦ تشرين الثاني ١٩٤٠ وبلغه بحضور الوصي الامير عبدالاله « ان الحكومة البريطانية لا تثق بالوزارة الكيلانية القائمة ولا بكل وزارة يرأسها رشيد عالي الكيلاني ، وعلى العراق أن يختار أحد حلين : اما الاحتفاظ برشيد عالي رئيسا لحكومته واما الاحتفاظ بصداقة بريطانية العظمى » ٠

ولما أبرقت وزارة الخارجية العراقية الى مفوضيتها بلندن تحتج على هذا التصريح ، وتطلب لفت نظر وزارة الخارجية البريطانية الى ذلك ، جاء الجواب من لندن انهم على علم بذلك بعد الذي لمسوه من فقدان التعاون والتآزر بينهم وبين العراق ٠ وفي الوقت نفسه تسلمت الوزارة الكيلانية وساطات أمريكية وتركية ومصرية بوجوب سير العراق مع بريطانيا وضمان مصالحها في الشرق الاوسط ولا سيما في العراق ٠ ولما فشلت هذه المساعي تقدم وزير الخارجية العراقية بكتاب مطول شرح الموقف على حقيقته وطالب بوجوب مسايرة حليفته بريطانية وهدد بالاستقالة من منصبه ، وما لبث أن استقال فعلا في ١٩ كانون الثاني ١٩٤١ وكان الوصي خلال هذه الفترة يضغط على الوزراء لحملهم على الانسحاب من مناصبهم الوزارية فيختل النصاب القانوني بعدد الوزراء وتضطر الوزارة للاستقالة ولكن رئيس الوزراء كان يقاوم هذا التمحل بصورة قانونية فكان يقبل الاستقالات منفردة ويملأها بالانفراد حتى اذا ضاقت السبل ، وقف أعوان السفارة البريطانية في مجلس النواب العراقي يندون بموقف الوزارة من البلاط ، فيتقدم رئيس الوزراء بطلب حل مجلس النواب ، فيراوغ الوصي في قبول الطلب ثم يهرب الى قيادة الفرقة الرابعة في الديوانية سرا على أمل حمل الوزارة على الاستقالة فلم يسع رئيس الوزراء الا أن يطير اليه هذه البرقية:

صاحب السمو المعظم : الديوانية

سيدي ! لقد حاولت أن اسير بالبلاد نحو مثلها العليا منتهجا سياسة تتفق ومصلحتها العامة ولم أشك في ان سموكم كان يرغب في ازالة العقبات التي تعترض طريق المخلصين ٠ غير ان الايدي والمصالح الاجنبية التي لا يروقها ان تسود الثقة بين سموكم وبين حكومة اعتزمت المضي في خدمة البلاد بصدق واخلاص وفق خطتها المرسومة حملت سموكم على عدم الارتياح منها ٠ ولقد ظهر ذلك في ترك سموكم البلاط ، وانعكافكم في قصركم العامر ، الامر الذي أثر على حرية سير الوزارة في أعمالها ثم استمر عدم ارتياح سموكم في ابتعادكم عن عاصمة المملكة وايقاف الارادات المعروضة على سموكم ســيما الارادة المتعلقة بحل مجلس النواب اذ ان الوزارة التي أخذت عـلى عاتقها تحمل مسؤولية البلاد وادارة شؤونها في هذه الظروف العصيبة رأت ضرورة استفتاء الرأي العام عن خطتها السياسية لتأمين تعاون أوثق بين السلطتين التشريعية

والتنفيذية مما تقتضيه الظروف العالمية الحاضرة • وعليه فاني اعتذر عن الاستمرار في تحمل المسؤولية راجيا من سموكم قبول استقالتي من رئاسة الوزارة والله اسأل ان يمد سموكم بتوفيقاته •

بغداد في ٣١ كانون الثاني ١٩٤١ رئيس الوزراء رشيد عالي

وعلى أثر تلقي الوصي هذه الاستقالة استدعى بعض اعضاء الوزارة المستقيلة وشخصيات سياسية اخرى الى الديوانية وعهد الى وزير الدفاع في تلك الوزارة العميد الركن طه الهاشمي ان يأخذ على عاتقه تأليف الوزارة الجديدة بعد أن أخذ عليه عهدا بتشتيت القادة الذين كانوا يسندون الرئيس المستقيل في سياسته الخارجية ويرون رأيه في وجوب حمل الانكليز على تجهيز الجيش العراقي بالسلاح الذي كان في أمس الحاجة اليه ، وحملهم على اعطاء الضمانات بتحقيق أماني العرب المشروعة في سورية وفلسطين اذا ما انتهت الحرب في صالحهم •

× × ×

استطاع العميد أن يؤلف وزارة معتدلة في أول شباط ١٩٤١م لمدة قصيرة فكانت أيام وزارته فترة سادها السكون والهدوء في الظاهر ، ولكن عوامل الانتقاض كانت تتهيأ في الخفاء ، وعناصر العاصفة كانت تتجمع وتتكاثف في الفضاء ، وكانت الاحداث المنذرة بالخطر تمر سراعا ولكن بعد ان تترك أثرها في الاوساط العامة • فان قادة الجيش شعروا بما كان يبيته الانكليز للعراق من احتلال جديد فصاروا يرقبون الحوادث عن كثب ويتخذون للمواقف اهبتها فاجتمع لفيف منهم بفريق من الساسة واتخذوا المقررات التالية في يوم ٢٨ شباط ١٩٤١

١ ـ المحافظة على الوضع الراهن والتمسك بالمعاهدة العراقية ـ الانكليزية التي قررت ما لنا وما علينا •

٢ ـ التوسل بجميع الحجج المقنعة لحمل طه الهاشمي على العدول عن رأيه « الخاص بقطع علاقات العراق الدبلوماسية بايطالية » والانتظار ثلاثة أشهر ينجلي بعدها الموقف وتبين الحالة السوقية

٣ ـ اذا كان لابد من قطع العلاقات السياسية مع ايطالية والموافقة على مطالب الانكليز فورا فليوافق على ذلك مجلس نيابي حر ••

٤ ـ لما كانت الاكثرية في مجلس النواب الحالي لا تمثل الامة •• فمن الواجب حل المجلس وفسح المجال لانتخاب مجلس نيابي جديد ••

٥ ـ لما كان نوري وجميل وجودة هم دائما وأبدا سبب الخلاف واراقة الدماء فمن الواجب تعيين نوري سفيرا للعراق في أمريكا ، وجميلا في مصر ، وجودة في سفارة غيرها •••

٦ ـ لما كان الوصي غير مسؤول أمام القانون وهو مع ذلك يواصل القيام

بنشاط مخالف للدستور ... فمن الواجب أن تدون في الدستور مادة تنص على طريقة معالجة هذا الامر والسلطة التي تكلف بتنفيذها

٧ ــ التوسل بكل الوسائل لاستمالة هذا الوصي ليرضى على قادة الجيش .

٨ ــ يكلف الهاشمي بالاستقالة اذا فشل في تحقيق ما ورد أعلاه أو أمتنع عنه ...

٩ ــ بعد استقالة طه يقصد الوصي وفد من كرام رجالات العراق والعرب ومن قادة الجيش فيعرضون عليه توسلاتهم ليوافق على اسناد رئاسة الوزارة الى رشيد عالي الكيلاني وليوافق على حل المجلس النيسابي وانتخاب مجلس جديد فورا ليقول كلمته في طلبات الانكليز التي تخرج على المعاهدة .. وللاقتراع على الثقة بوزارة الكيلاني فيقرر بقاءها أو استقالتها وفق أحكام الدستور .

١٠ــ يقطع الجيش على نفسه عهدا صارما ان لا يتدخل في شؤون الحكومة القائمة ..(١٥)

ولما فوتح رئيس الوزراء طه الهاشمي بهذه المقررات قال « لابد من الموافقة على ما يريده الانكليز وأما رضى الوصي على قادة الجيش فمستحيل »(١٦)

عندئذ قرر العقداء : صلاح الدين الصباغ وفهمي سعيد ومحمود سلمان وكامل شبيب ان يضعوا يدهم في يد السيد الكيلاني وصحبه السادة : ناجي شوكت وناجي السويدي وعلي محمود الشيخ علي ويونس السبعاوي والمفتي الحاج محمد أمين الحسيني وغيرهم من رجالات العراق والعرب ، وان يجابهوا الوضع المتردي بحزم ونشاط ، فما كاد رئيس الوزراء الهاشمي يقرر في ٢٦ اذار ١٩٤١ نقل بعض القادة من مراكزهم تنفيذا لرغبة الوصي المبتنية على رغبة الانكليز ، حتى أنذرت القطعات ، واتخذت التدابير اللازمة لمجابهة الطوارىء وكان ذلك غسق الليلة الحادية والثلاثين من شهر مارث ١٩٤١م فاذا بالامير عبدالاله ينتقل من قصر رحاب في جانب الكرخ من بغداد الى دار عمته الاميرة صالحة على الضفة اليسرى من نهر دجلة بشارع أبي نؤاس ثم ثم « هيأ نفسه للتنكر بمساعدة عمته وذلك باستعارته عباءة نسائية وفستان وحذاء نسائي من العائلة وركب عربة تجرها الخيل الى المفوضية الامريكية ومن هنالك ركب سيارة الوزير المفوض التي كانت تحمل علم الولايات المتحدة الامريكية وكان الوصي مختبئا تحت سجادة السيارة بين ارجل تابنشو الوزير المفوض الامريكي وزوجته وكانت سيارة القوة الجوية البريطانية تحمل مرافق الوصي عبيد بن عبدالله متنكرا ببزة عسكرية بريطانية في مقدمة سيارة الوزير المفوض الامريكي فعبر الامير عبدالاله ومرافقه الجسر بهذه الطريقة ووصلا بالسلامة الى الحبانية ومنها ركب الوصي طائرة بريطانية حربية فوصل البصرة ثم التجأ الى باخرة بريطانية حربية »(١٧) .

تدعى « كوك شبير » حيث نصبت له الحكومة البريطانية محطة اذاعة خاصة كان يبث منها أحاديثه وبياناته ٠ وكان مما جاء في خطاب للوصي بعدئذ قوله:

« وقد حاولنا هناك ـ في البصرة ـ أن نستقدم أعضاء الوزارة لنعمل بعيدين عن الضغط الموجود في بغداد » ونقضي على حركة رشيد عالي الگيلاني ولكن الوزراء لم يستطيعوا الوصول الينا ، وكذلك علمت هناك بأن الضباط ارغموا طه الهاشمي على تقديم استقالة ولم تصلنا الاستقالة بل اطلعنا عليها في الصحف المحلية لذلك لم تؤلف وزارة جديدة كما ان الوصي اتصل برجال الجيش في المنطقة الجنوبية محاولا القيام بحركة مسندة من قبل الجيش البريطاني الذي كان يتجمع في البصرة فاذا بقائد الفرقة الرابعة في الديوانية اللواء الركن ابراهيم الراوي يؤكد لرئاسة الاركان في بغداد بانه يعتبر نفسه كقائد في الجيش العراقي تابع لرئاسة أركان الجيش ، وانه لا يخطر بباله قط ان يكون آلة او سببا في انشقاق الجيش ٠

وبعد أن فشلت المحاولات لشق الجيش على نفسه ، قررت الكتلة العسكرية في بغداد أن تعجل في اقامة حكومة عسكرية في البلاد باسم «حكومة الدفاع الوطني » يكون رئيس ومديرها السيد رشيد عالي الگيلاني ٠ وقد اذاع رئيس أركان الجيش بيانا خطيرا عن تشكيل هذه الحكومة في مساء اليوم الثالث من شهر نيسان ١٩٤١ كما اذاع السيد الگيلاني بيانا مماثلا وقد قررت هذه الحكومة دعوة مجلس الامة الى اجتماع طارىء ليقرر ما يراه مناسبا ، فاجتمع المجلس في يوم الخميس ١٠ نيسان وقرر عزل الامير عبدالاله عن منصب الوصاية وتعيين الشريف شرف وصيا فاستقالت الحكومة العسكرية في الحال وعهد الوصي الجديد الى السيد الگيلاني بتاليف وزارة جديدة فالفها من أبرز الزعماء المدنيين في الثاني عشر من نيسان ٠

× × ×

أما الحكومة البريطانية فقد أبدلت سفيرها في العراق السربازل نيوتن بالسر كورنواليس الذي كان قد جاء الى العراق مع الملك فيصل سنة ١٩٢١ ثم اشغل منصب مستشار وزارة الداخلية حتى عام ١٩٣٥ حيث أنهى السيد الگيلاني خدماته ٠ وفي ٨ نيسان ١٩٤١ أبرق المستر تشرشل رئيس الوزارة البريطانية هذه البرقية :

من رئيس الوزراء الى وزير الهند

كنتم قبل مدة ذكرتم انه قد يمكن ان يكون في استطاعتكم الاستغناء عن فرقة اخرى من جيش الحدود للشرق الاوسط ٠ لقد ساءت الحالة في العراق وعلينا ان نتأكد من سلامة البصرة لان الامريكيين يزدادون اهتماما بأمر انشاء قاعدة جوية كبرى هناك فيجري التسليم فيها دون واسطة ٠ يظهر ان لهذه الخطة أهميتها العظمى نظرا لاتجاه الحرب اتجاها شرقيا وهو مما لا

شك فيه . وسأبين لرؤساء الاركان انكم تدرسون هذه الاحتمالات كما ان الجنرال اوكلنك يفكر في امكان الاستعاضة عن قوة اضافية »(١٨)

وفي ١٠ نيسان اتصل القنصل البريطاني في البصرة بمقام المتصرفية وأعلمها بان فرقة من الجيش الهندي وفي ضمنها فوج واحد من الجيش البريطاني تحملها قافلة مؤلفة من ثلاث بواخر حربية وتحرسها طرادتان مع ثلاث طائرات مائية ستدخل المياه العراقية خلال ٤٨ ساعة وانه ليرجو ان يحيط السلطات العراقية بذلك علما لتوافق على نزول هذه القوة الى البصرة فلم ير مجلس الدفاع الاعلى مناصا من الموافقة على هذا النزول تنفيذا لاتفاق كان قد تم بين الجهتين العراقية والبريطانية في ٢١ حزيران ١٩٤٠م ونصه هـذا .

أ ـ يجوز لبريطانية ان تنزل الى أرض العراق لواء مختلطا في كل مرة

ب ـ أن يبقى اللواء المذكور مدة معقولة للاستراحة ثم يستأنف سفره الى الجهات المختصة خارج العراق « وقد قدرت هذه المدة بثلاثة ايام » .

جـ ـ لايجوز نزول قوات جديدة مالم تكن القوات السابقة قد بارحت أرض العراق .

د ـ على الجانب البريطاني أن يشعر الحكومة العراقية خلال مدة مناسبة عن القوات البريطانية المراد انزالها في العراق وذلك قبيل وصولها الى مياهه الساحلية لتهيء لها اسباب السفر والراحة ولم تكد القوة المذكورة تنزل الى البر العراقي في ١٧ و ١٨ نيسان ١٩٤١م حتى فاجأ رئيس الوزارة البريطانية بالبرقية المؤرخة ٢٠ نيسان وهي :

« يجب أن ترسل الجيوش الى البصرة بأسرع ما يمكن وعلى أقل تقدير يجب الاسراع في ارسال الالوية الثلاثة اليها كما سبق الوعد بارسالها »(١٩)

× × ×

بعد ان نزل اللواء المختلط أرض البصرة وتمركز فيها أخذ يؤسس قاعدة ثابتة خلافا للاتفاق المبرم في ٢١ حزيران ١٩٤٠م وفي الوقت نفسه أخذت محطة الاذاعة البريطانية في لندن تهاجم الحكم القائم في العراق واذا بمستشار السفارة البريطانية في بغداد يفاجيء وزارة الخارجية في ٢٨ نيسان ١٩٤١ بطلب الموافقة على انزال قوة بريطانية جديدة لتصل البصرة بثلاث بواخر تصل يوم ٢٩ من هذا الشهر فيقرر مجلس الدفاع الاعلى في الحال « عدم السماح لمجيء قوة بريطانية جديدة قبل مغادرة القوة البريطانية الموجودة أرض العراق » فيسوء هذا القرار وقعا في نفوس الانكليز ويفتحون النار على القطعات العسكرية العراقية المرابطة في البصرة . كما ان طائراتهم في الحبانية قامت بغارات شديدة على الجيش العراقي الذي ارسل الى جوار الحبانية على سبيل الاحتياط فكان لابد للجيش العراقي ان يرد على النار بالنار فكانت الحرب سجلا بين الطرفين طوال شهر ايار ١٩٤١ .

أما مجلس الوزراء العراقي فقد اجتمع في الحال وقرر تأسيس علاقات سياسية مع روسيا السوفياتية واستئناف العلاقات الدبلوماسية مع المانية وهي العلاقات التي كانت وزارة نوري السعيد الرابعة قطعتها في اوائل ايلول ١٩٣٩م ، ثم تكليف رئيس الوزراء نشر بيان عن الاصطدام وتحميل الحكومة البريطانية مسؤولية الاصطدام وما ينجم عنه • ولما شعرت الحكومةالبريطانية بفظاعة العمل الذى قام به جيشها في العراق ، ووجدت في الجيش العراقي صمودا عظيما وقتالا مستميتا ، أسرت الى كل من تركية ومصر أن تتوسطا في النزاع بينها وبين العراق فكانت قرارات وأسفار ،وكانتمفاوضات ومذاكرات منيت كلها بالفشل لانها لم تبن على حسن نية ولا اخلاص في الوساطة ، وقد سارعت المانية لنجدة العراق بثمان عشرة طائرة ايطالية واثنى عشرة طائرة المانية وبمقدار من سلاح الجيش الفرنسي المخزون في سورية على اثر استسلام فرانسه لالمانية النازية في ايار سنة ١٩٤١

× × ×

كان الجنرال ويفل قائد القوات البريطانية في الشرق الاوسط يلح على حكومته البريطانية ان تحل مشكلاتها السياسية مع العراق بطريق المفاوضة وان تتجنب الاصطدام بالجيش العراقي • فلما فتح الجيش البريطاني النار عليه في البصرة وفي الحبانية يوم ٢ مايس ١٩٤١ أبرق الى حكومته يقول :

« لقد نبهتكم مرارا عديدة الى انه لا تمكن مساعدة العراق من فلسطين في الظروف الحاضرة ، والححت عليكم بوجوب تحاشي الارتباك في العراق • ان قواتي موزعة الى أقصى حد في كل مكان ولا استطيع بالمرة المجازفة بالقسم منها فيما لا يمكن ان يعود علينا بفائدة »(٢٠)

ولكن المستر تشرشل لم يستسغ هذا الدفع من الجنرال ويفل فأبرق اليه يقول :

« لم يكن في الامكان تجنب التدخل في العراق • كان علينا ان نؤسس قاعدة في البصرة وان نراقب هذا الميناء بقصد المحافظة على نفط عبادان عند اللزوم »(٢١) • كان الاعتداء البريطاني على العراق اذا مبيتا ولم يكن لقضاياه الداخلية أية علاقة بالاعتداء المبيت ويقول تقرير بريطاني عسكري :

« لا يسوغ لمن عنده ذرة من الفطنة ان يدعى ان بريطانية قبلت المسؤولية في العراق حبا لمصلحة الغير حسب • اذ سبق ان اعلن ان لبريطانية في الشرق الاوسط مصلحة دائمة ورئيسية • بل ان لها هدفا أساسيا ضحت في سبيله ارواحا كثيرة خلال الحرب ١٩١٤ـ١٩١٨ ويقوم هذا المبدأ على أساس عدم فسح المجال لاية دولة معادية بتهديد المواصلات الانبراطورية • هذا الى ان لبريطانية منافع اقتصادية واسعة جدا اهمها حقول النفط في كركوك وقد اعترف العراق بهذه المنافع بصورة عامة »(٢٢)

× × ×

قاتل الجيش العراقي في مثل هذه الظروف ببسالة فائقة، وقاتلت بعده قوات الشرطة والمتطوعون من الاهلين على الرغم من الاغراءات والتهديدات التي قام بها الاعداء والموتورون . فالحالة المعنوية كانت عالية جدا غير ان المفاجأة التي تعرض الجيش اليها بهجوم القوات البريطانية ولا سيما الجوية منها ، وعدم توافر السلاح الكافي لهذا الجيش العراقي وعدم وصول امدادات كافية من السلاح من الخارج « لعدم وجود اتفاق سابق مع أية دولة » كل ذلك لعب دوره في التغلب على الحركة .

وكان الامير عبدالاله قد يئس من العراق والعراقيين فسافر الى فلسطين فجهزت الحكومة البريطانية جيشا له من قوات بادية الاردن التي كانت تحت امرة الجنرال كلوب وتوجه به نحو طريق الصحراء الى الحبانية كما ان جيشا بريطانيا كان يزحف من البصرة نحو بغداد فكان من الطبيعي ان يتغلب الباطل على الحق بعد قتال استمر شهرا كاملا وحين بدت لبعض القواد ضرورة اخلاء بغداد شعروا باليأس من نتيجة المعركة النظامية فقرروا الخروج من العراق مما أدى الى خروج الكيلاني وصحبه وكان الاتجاه نحو ايران فلما اخترق الجيشان الروسي والبريطاني حياد ايران في حزيران ١٩٤١ تمكنت السلطات البريطانية من القبض على لفيف من اللاجئين بينما التجأ الاخرون الى تركية فاوربا لمواصلة الجهاد ولما جيء بالمقبوض عليهم الى العراق جرت محاكمتهم أمام مجلس عرفي قضى باعدام البعض وحبس البعض الاخر . وفي ٥ ايار ١٩٤٢ نفذ حكم الاعدام شنقا في العقيدين فهمي سعيد ومحمود سلمان وفي وزير الشباب السيد محمد يونس السبعاوي فرثاهم الشاعر العراقي الخالد معروف الرصافي بقصيدة جاء فيها :

أيها الانجم التي قد رأينا … عبرا في افولهـا كالشموس
ان هذا الافول كان شروقا … في دياجير طالـع منحوس
وسيأتي الزمان منه بسعد … تتجلى من داجيات النحوس
شنقوكم ليلا على غير مهل … ثم دسوا جسومكم في الرموس
فاستحقوا اللعن الذي كررته … خاليـات القرون في ابليس
وستبقى الذكرى لكم ذات رمز … هو تعظيمكم بخفض الرؤوس
برئت ذمـة المروءة منا … ان نسي يوم شنقكم أو تنوسي

ومهما يكن من أمر فان البواعث لحركة ايار ١٩٤١ كانت بواعث قومية محضة وكذلك كانت أهدافها فهي حركة تحررية قامت على الحرص على ممارسة الاستقلال والسيادة ، واستهدفت تحرير العراق والبلاد العربية الاخرى ، وضمان استقلال فلسطين . ولو توافرت لها أسباب النجاح لقادت الحركات التحررية في البلدان العربية كافة . ولكن العوامل التي ألمعنا اليها فيما تقدم ، وأهمها عدم توافر مقومات روح الثورة لدى معظم القائمين بالحركة

أدت الى التغلب عليها ولا سيما في ظروف حرب عالمية وامام قوات متفوقة . ولكن حركة أيار العراقية هذه بذرت روح الثورة في البلاد العربية الاخرى فأحسنت كل من سورية ولبنان الانتفاع من الظرف الملائم للظفر بالاستقلال. كما انها كانت حافزا قويا للثورة في مصر، وللثورة في انجزائر . وانما امتازت الثورتان المصرية والجزائرية بالاعتبار بجميع أسباب فشل حركة العراق في ايار ١٩٤١ وعواملها كما امتازت بالطابع الثوري العميق في نفوس قادة الثورتين المذكورتين ونفوس قادة ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ العراقية الخالدة ؟

---

(١) يراد بالمسألة الشرقية بمعناها العام النزاع الذي دار بين الشرق والغرب في جميع العهود في سبيل الاستيلاء على بعض الاصقاع ، ويراد بها بمعناها الخاص النزاع بين الامبراطورية العثمانية والدول الاوربية ، وبين الدول الاوربية نفسها في سبيل اقتسام املاك الامبراطورية العثمانية وخيراتها . وقد مضى اكثر من قرنين والاوربيون يختلقون الاسباب لتمزيق امبراطورية العثمانيين لا لانها اسلامية وهم مسيحيون بل لاختلافها معهم في اللغة والخلق ولرغبتهم في التوسع والاستعمار .

(٢) مذكرات أحمد جمال باشا ص٤٩٩

(٣) كتاب « خواطر طاوزنند » ص٤١

(٤) كتاب « الخطوط الاساسية لحرب العراق » للمقدم ر. اي . فنس ص١٥

(٥) هنري فوستر في كتابه « تكوين العراق الحديث » ص٨٥ من الترجمة العربية

(٦) محاضر مجلس العموم البريطاني لسنة ١٩٢٢ ص١٥٤٦

(٧) تمبرلي في كتابه « تاريخ مؤتمر الصلح في باريس » ج٦ ص٥٠٠

(٨) الفقرات ١ ـ ٤ من المادة ٢٢ من عهد عصبة الامم

(٩) IRELANBL, A Study in Political Development P. 69

(١٠) اودر في كتابه « القول الحق في تاريخ فلسطين وسورية والعراق » ص٩٥

(١١) « تاريخ العراق السياسي الحديث » ج١ ص١٧١

(١٢) كان الملك غازي قد قتل في حادث سيارة ليلة اليوم الرابع من نيسان ١٩٣٩ فنصب ابن عمه الامير عبدالاله وصيا على وريثه الطفل الملك فيصل الثاني

(١٣) Churchill; The Second World War P. 224

(١٤) كاتب عربي في رسالته « الخلاف العراقي ـ البريطاني » ص١٠

(١٥) و (١٦) العقيد صلاح الدين الصباغ في كتابه « فرسان العروبة في العراق » ص ٢١٨ ـ ٢١٩

(١٧) الميجر ديكوري في كتابه Three Kings in Baghdad P. 118

(١٨) The Second World War P. 225.

(١٩) ونستن تشرشل في كتابه The Second World War V. 3 P. 225

(٢٠) و (٢١) المصدر نفسه ص٢٢٧ من المجلد الثالث

(٢٢) Paiforce, The Official Story of the Persia and Iraq Command 1941-1946.

السماع بين الحل والحرمة

عباس العزاوي

الاسلام يحض على العمل المثمر النافع ، ويدعو الى الصالحات . وان العرب المسلمين بعد ما توغلوا في الفتوح جابهتهم حوادث منها انشاد الشعر والحداء به والغناء(*) ، فكانت تعد من الزينة أو الطيبات المرغوب فيها من ملاذ الحياة ومنع الاسلام من التمادي في اللهو ، والملاهي ، والانهماك في الملذات ، وحرم الجائر منها ، وكل ما يعيق عن خير الأعمال ، ويؤخر عن فعل الفضيلة أو يمنع من الوصول اليها فهو مكروه أو محرم اذا أزرى بمكانة المرء . وانما يكون الحل في بعض حالاته معتدلا ، فلا يعمل ما يشين ، و يجلب السخط ، أو يكون خلاف المروءة ، ويحط من قدر المرء ، وما الى ذلك من الانحراف بالموبقات .

قال بعض الفلاسفة في محاسن السماع :

« أمهات لذات الدنيا أربع : لذة الطعام ، ولذة الشراب ، ولذة النكاح ، ولذة السماع . فاللذات الثلاث لا وصول الى كل منها الابحركة وتعب ومشقة ونصب . ولها مضار اذا استكثر منها . وأما لذة السماع فأنها قلت أو كثرت صافية من التعب ، خالصة من النصب ، خالية من الوصب » .

قال الكندي فيلسوف العرب من وصية لابنه أبي العباس أحمد :

« سماع الغناء برسام حاد . لان الانسان يسمع فيطرب ، وينفق فيسرف فيفتقر فيغتم فيعتل فيموت » وقال :

« أول ما نفخ في المزمار كان للتداوي من الآلام النفسية بهذه الالحان والايقاعات . وذلك ما يشفي السقام ويشفي الآلام النفسية وان مزامير(١) داود (ع) معروفة » .

ان بعض النفوس في شهواتها البهيمية تتحرك لاستماع النغمات ، وانها تلقي نفوسها في الهوى والهوس الى أسفل الدركات ، فالموسيقى على هذا يكون نافعا لأخص الخواص ، ومضرا للعامة . وان الفقهاء أدركوا ذلك

لا سيما فقهاء العراق فقد شددوا في تحريم الغنــاء[٢] • الا أن مشـايخ الصوفية وافقوا مسلك الحكماء المتألهين فمالوا الى التصفية وأخذوا بنظر الاعتبار تأثير الموسيقي فأوصوا بالغناء والناي •••

ان استماع الالحان يولد لكل واحد ذوقا منها ما ينبيء عن عظمة العزة ويشم منه عبير الروحانية • وحسن الصوت يمكن من الصحة[٣] » •

وفي كتاب الظرائف واللطائف في المحاسن والأضداد للشيخ أبي نصر أحمد بن عبدالرزاق المقدسي من رجال القرن السابع الهجري جاء ما نصه : « ومن خصائص السماع أنه لا يحجزه ، ، ولا يحجبه شيء ، وان الجمع بينه وبين كل عمل ممكن • وأن الابل والخيل تستطيبه وترقص عليه ، والصبيان الرضع تستلذه وتسكن اليه ، والوحوش والطيور تميل الى فائقه وتعرج عليه •

وكان بعض الفقهاء المتكلمين يقول :

قد اختلف الناس في السماع ، فأباحه قوم ، وحظره آخرون • وأنا أخالف الفريقين فاقول : انه واجب لكثرة منافعه ، ومرافقه ، وحاجة الناس اليه ، وحسن أثر استمتاعها به •

وكان عبدالله بن جعفر يقول : لأجد للسماع أريحية ، ولو سئلت عندها أعطيت ، ولو قاتلت أبليت •

وسمع معاوية عند عبدالله بن جعفر غناء فحرك رأسه ورجليـه ، وصفق بيديه ، ثم لما أناب رأيه اليه قال ـ كالمعتذر منه ـ :

ان الكريم طروب ، ولا خير فيمن لا يطرب[٤] •••!

وقال بعضهم :

غنت فلم تبق في جارحـة ... الا تمنيت أنهـا اذن

وقال آخر :

لا تعـذلـوني وقت السـماع اذا
طربت وجدا فخير الناس من عـذرا

حتى الجمـاد اذا غنت لهـا طربت
أما ترى العود طـورا يقطع الـوترا

وعد آخرون مساوىء كثيرة له منها أنه رقية الزنا ، والتمادي في الملاهي • وفيه صد عن أداء الواجب ، وضياع للوقت فيما لا يعني ، أو انغمار وانجراف[٥] •• »

ولا تزال النظرات في السماع مختلفة ووجهـات النظر متباينة في القبول والرد وفي الحل والحرمة • وكل أمر اذا كان افراطه وتفريطه غير مقبولين أو اذا صد عن سبيل الله • أو أخل بالواجبات الدينية ، او

الأعمال الحياتية فهو منهي عنه قطعا ، فالفساد يلتمس من هذه الجهة ، والاصل انه (لن يشاد أحد في هذا الدين الا غلبه) فلا تسوغ المشادة بمن لا يؤمل منه أن ينجرف ولا يجوز بوجه الاسترسال فيها ولا أن يتقشف المرء بحيث يترك الطيبات ، وما أحل الله من ملاذ الدنيا .. وتباينت واختلفت وجهات النظر . منهم :

١ ـ أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الاندلسي (ولد في ١٠ شهر رمضان سنة ٢٤٦ هـ ـ ٨٦٠م وتوفي في ١٨ جمادي الاولى سنة ٣٢٨هـ ـ ٩٤٠م) .

روى ابن دحية الكلبي قصة له في السماع جرت له مع الكاتب أبي حفص عمر بن قلهيل في التسمع على جاريته مصابيح قال :

« اتفق ان اجتاز أحمد بن محمد بن عبد ربه بدار أبي حفص عشية فقرع سمعه من طيب الغناء ما استوقفه ، وأراد الدنو من الباب . وقيل أنه صب عليه من العلية ماء بل ثيابه ، فلم يردعه ذلك من طلب الازدياد في السماع . فعدل الى مسجد بقرب الدار وسأل المعلم فيه أن يأتيه بدواة وبياض يكتب فيه فجاءه بهما فكتب ، الى ابن قلهيل رقعة فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم . طاولتك النعم وطالت بك . انا لمسنا سماء لهوك « فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا . وانا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن[٦] » الى آخر الآية وفي ذلك أقول :

يا من يضن بصوت الطائر الغرد ... ما كنت أحسب هذا الضن في أحد
لو أن اسماع اهل الأرض قاطبة ... أصغت الى الصوت لم ينقص ولم يزد
لولا اتقائي شهابا منك يحرقني ... بناره لاسترقت السمع من بعد
لو كان زرياب حيا ثم أسمعه ... لمات من حسد أو ذاب من كمد
فلا تضن على أذني تقرطها ... صوتا يجول مجال الروح في الجسد
أما الشراب فاني لست أقربه ... ولست آتيك الا كسرتي بيدي

وسأل البواب فأوصل الرقعة اليه ، فلما قرأها وعرف موضعه جاء حافيا اليه ، وسأله الحضور ففعل . ثم قال ممازحا : هات الكسرة التي زعمت أنك ترفع عنا مئونتها . فقال أنصرف فآتيك بها . فأقام احمد عنده اياما . وقد ذكر هذه الحكاية الحميدي في جذوة المقتبس له مبتورة مصحفة[٧] .

يفهم من هذه القصة أن ابن عبد ربه كان من المحبذين للسماع المجوزين له ولم يتناولها في كتابه العقد الفريد عند البحث عن الألحان واختلاف الناس في الغناء حيث جازه عامة أهل الحجاز وكرهه عامة أهل العراق وبين وجهات نظر كل من الفريقين[٨] .

٢ ـ أبو الفضل محمد بن طاهر بن علي الشيباني المقدسي القيسراني :

ولد سنة ٤٤٨هـ ـ ١٠٥٦م وتوفي ببغداد سنة ٥٠٧هـ ـ١١١٣م(٩) ٠ وقد رحل الى بلاد كثيرة لطلب الحديث ، الا أنه كان يقول بحل السماع مع العلم بأنه لم يكن من الغلاة في التصوف ، بل كان محدثا وله كتاب السماع وهو كتاب كبير منه نسخة مخطوطة رأيتها في خزانة الاستاذ أحمد عبيد في دمشق ٠ وقد رد عليه ابن قدامة المقدسي في مجلد ضخم كما أن شيخ الاسلام ابن تيمية نقده نقدا مرا في أنه جمع ما لا قول فيه ٠ وذكر اخبارا واهية السند لا يعول عليها ٠

٣ ـ الشيخ أحمد بن محمد الغزالي المتوفى سنة ٥٢٠هـ ـ١١٣٧م ٠ وله كتاب (بوارق الالماع في الرد على من ينكر السماع) ٠ أوله (الحمد لله الذي سمع العباد في الميثاق الاول ٠٠٠) مستندا فيه الى الآيات والأحاديث الشريفة ، وأقوال الصحابة ٠ رد فيه على منكري السماع وما يلزم من ذلك ، من المحذورات الشرعية وكأنه غفل عما تجر اليه أو أغفل امر ذلك ، ولم يدر أن باب الذرائع يلزم سده حذر أن يجر الى أمر محرم ٠ وهذا ملتزم شرعا ، مع العلم بأن المؤلف متهم بالغلو، وصار قدوة للمتصوفة الغلاة وأمثاله ٠ ويقال فيه ما قيل في كتاب القيسراني ٠

رأيت نسخة من كتاب البوارق مؤرخة في ١٠ شهر رمضان سنة ٩٨١ هـ في مجموعة رقم ٧٩٥٩ في خزانة بايزيد العامة في استنبول كما توجد منه نسخة في دار الكتب المصرية برقم ٢٢٦ مجاميع وبدار الكتب الظاهرية بدمشق برقم ٧٥٢٦ عام ٠ وقد عده الاستاذ الدكتور عبدالرحمن بدوي من كتب الامام محمد الغزالي في كتابه مؤلفات محمد الغزالي(١٠) والصواب أنه لأخيه محمد الغزالي ٠

٤ ـ الامام العالم المحقق شيخ الاسلام موفق الدين أبي محمد عبدالله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي (ولد في شعبان سنة ٥٤١ هـ ـ ١١٤٧م ، وتوفي في عيد الفطر سنة ٦٢٠هـ ـ١٢٢٣م) رحمه الله تعالى وله كتاب (ذم ما عليه مدعو التصوف) من الغناء والرقص والتواجد وضرب الدف وسماع المزامير ورفع الاصوات المنكرة بما يسمونه ذكرا بدعوى أنها من أنواع القرب الى الله تعالى ٠ وقف على تصحيحه محمد حامد الفقي رئيس جماعة أنصار السنة المحمدية بمصر ٠ وطبع في مطبعة المنار سنة ١٣٤٩هـ ـ١٩٣١م بين (مجموعة رسائل من دفائن الكنوز) ٠ أوله : الحمد لله وصلى على محمد وآله وسلم ٠٠٠ وكان قد وجه عليه سؤال فيمن يسمع الدف والشبابة (المزمار) والغناء ، ويتواجد ، حتى أنه يرقص فهل يحل له ذلك أم لا ؟ مع أن اعتقاده أنه محب لله تعالى ، وأن سماعه وتواجده ورقصه في الله ؟

وفي أي حال اذا حل الضرب بالدف هل يحل مطلقا ؟ أو في حال مخصوصة ؟ وهل يحل (سماع الشعر بالالحان) في الاماكن الشريفة مثل المساجد وغيرها ؟

كان جواب الشيخ أن فاعل هذا مخطىء ، ساقط المروءة ٠ والدائم على هذا الفعل مردود الشهادة في الشرع ، غير مقبول القول ، فلا تقبل روايته ولا شهادته فهذه معصية ولعب ، وبدعة ، ولا يتقرب الى الله بمعاصيه ، ولا يطاع بمناهيه ٠

وفيه عن الامام أحمد بن حنبل أنه يقول (التغبير محدث) ٠ والمغبرة قوم يغبرون بذكر الله أي يهللون، ويرددون الصوت بالقراءة ونحوها ، يرغبون الناس في الغابرة أي الباقية ٠ والتغبير اسم لهذا السماع ٠ وقد كرهه الائمة ، ولم تنضم اليه هذه المكروهات من الدفوف ، والشبابات فكيف به اذا انضمت اليه واتخذوه دينا ٠

قال : وهم أشبه بمن عابهم الله تعالى بقوله : « وما كان صلاتهم عند البيت الا مكاء وتصدية »(١١) قيل المكاء التصفير ، والتصدية التصفيق ٠ وقال سبحانه وتعالى لنبيه : (وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا ، وغرتهم الحياة الدنيا(١٢)٠ ولم يسلك أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام هذه الطريقة ٠ وكذا الأمر في الدف والشبابة والرقص ٠ ومثلها المزامير فهي كالطنبور بل هي أغلظ ٠

وأما الغناء فقد اختلف العلماء فيه ٠ وعلى كل حال فهو مكروه ليس من شأن أهل الدين ٠ وأما فعله في المساجد فلا يجوز ٠ فان المساجد لم تبن لهذا ٠ ويجب صونها عما هو أدنى منه ٠ وأما الدف فهو أسهل هذه الخصال وقد أمر به النبي عليه الصلاة والسلام في النكاح ٠ وجاءت الرخصة فيه في غير النكاح ٠ ولم يتبين لي تحريمه ٠

وكان أصحاب عبدالله بن مسعود يخرقون الدفوف ويشددون فيها ٠ وعند الامام أحمد بن حنبل وردت السنة بالرخصة فيه وهي أحق ما اتبع ٠ والتفليس الضرب بالدف ٠

وقال الفضيل بن عياض : (الغناء رقية الزنا) ٠ فاذا اجتمعت رقية الزنا وداعيته ورائده فقد استكملت أسبابه ٠

وفي هذا الكتاب من النصائح الجليلة والوصايا الفاضلة ما يرشد الى الخير ويجنب عن الشر ٠ (انتهى ملخصا) ٠

٥ ـ سيف الدين أبو العباس أحمد بن مجدالدين عيسى بن عبدالله المقدسي الصالحي الحنبلي الدمشقي (ولد بدمشق سنة ٦٠٥هـ ـ ١٢٠٨م وتوفي سنة ٦٤٣هـ ـ ١٢٤٥م) وكتابه في السماع من الكتب المهمة وهو في مجلد ضخم تناول فيه الرد على كتاب القيسراني وكتاب البوارق ٠ ورسائل اخوان الصفا ٠

٦ ـ شيخ الاسلام تقي‌الدين أبو العبــاس أحمد بن الشيخ شهاب الدين عبدالحليم المعروف بـ (ابن تيمية) • (ولـد ١٠ ربيـع الاول سنة ٦٦١هـ ـ ١٢٦٣م وتوفي في ٢٠ شوال سنة ٧٢٨ هـ ـ ١٣٢٨م) نشرت رسالته في حكم السماع والرقص في مجموعة رسائله الـكبرى المطبوعة سنة ١٣٢٢هـ ـ ١٣٢٣(١٣) • وفيها تفصيل مهم جدا لانجده في غيرها وأبطل الكثير من الاخبار التي يتمسك بها القيسراني وغيره من الاحاديث الموضوعة أو المكذوبة مما هي غير ثابتة السند • ولا شك أنه جواب لصاحب البوارق ومن كان على شاكلته •

وذكر أن الحل والحرمة لم يكونا لذاتهما • وانما يعينهما القصـد والنية • وأطنب في البحث وعين الملاهي ، وما يصد عن العمل الصالح فأنكره وبالغ في لزوم متابعة الشرع •

٧ ـ الشيخ العلامة نورالدين علي بن سلطان محمد القاريء الهروي الفقيه الحنفي نزيل مكة المكرمة • وتوفي بها سنة ١٠١٤هـ ـ ١٦٠٥م وهو صاحب التصانيف العديدة منها :

(١) رسالة في السماع والغناء : ذكر المؤلف في هذه الرسالة الآيات والأحاديث في السماع ، ورجـح سماع القرآن الـكريم ، وان التمسك بالشرع أمر ضروري لا يسوغ العدول عنه • وان مايفعله بعض المنتسبين الى المشـايخ المتقـدمين من الجمع بين الذكر والشبابة والدف والتصفيق والترقيص ففتنة عظيمة في هذا الزمان فيجب انكارها لمن قدر عليها ، أما باليد أو باللسان أو بالجنان ، وذلك أضعف الايمان وهذه الرسالة ضمن مجموعة مع الرسالة التالية كتبت سنة ١١٩٢هـ • وهي في خزانة بايزيد في استنبول •

(٢) رسالة سماع الغناء : للمؤلف نفسه ورجح فيها ذم السماع من وجوه عديدة اشار اليها في رسالته •

هذا • والكتب في حل السماع وحرمته كثيرة ولم تقف عند هؤلاء وخير من استوعب الموضوع من أطرافه من العلماء شيخ الاسلام أحمد بن تيمية لا في كثرة ما كتب ولكنه الم ببحوثه بسعة وسيطرة تامة لا يوازيها غيره • وفي كشف الظنون ورائد الموسيقى العربية(١٤) وصف لجملة من كتب السماع • كما لا تخلو خزانة عامة أو خاصة من كتب ورسائل في هذا الموضوع •

السماع والرقص عند غلاة التصوف :

وهذا أصبح مألوفا عند الترك منذ عهودهم الاولى حتى الغاء التكايا في ٣٠ تشرين الثاني سنة ١٩٢٥م • وممن ألف في هذا الموضوع :

١ ـ عبدالغني النابلسي الدمشقي (ولد بدمشق سنة ١٠٥٠هـ ـ ١٦٤٠م وتوفي بها سنة ١١٤٣هـ ـ ١٧٣٠م) : صنف في جواز السماع رسالة

سماها (ايضاح الدلالات في سماع الآلات) · أتم تاليفهـــا في ٢٧ شعبان سنة ١٠٨٨هـ ـ ١٦٧٧م · وطبعت في دمشق سنة ١٣٠٢هـ وفي خزانتي بضعة مخطوطات من هذه ومن غيرها في هذا الموضوع · وله أيضا (فتـــح الكريم الوهاب في العلوم المستفادة من النساي والشاب)(١٥) ·

٢ ـ اسماعيل حقي البرسوي (ولـد سنة ١٠٦٣هـ ـ ١٦٥٣م ، وتوفي ببروسة سنة ١١٣٧هـ ـ ١٧٢٤م) · وفي كتاب (تصوف تاريخي) باللغة التركية أي تاريخ التصوف · تفصيل زائد لخصنا منه :

قال العلماء : ان السماع والدوران بدعة · وأدى عند الترك أحيانا الى وقائع مؤلمة وفتن حدثت في استنبول نتيجة جدال بين المتصوفة والعلماء الذين دعوهم بأهل الظاهر · وفي أيام قاضي زاده اشتد الجدال بين الفريقين وكاد يؤدي الأمر الى قتال فتدخل في الأمر الصدر الأعظم محمد باشا الكوبريلي ، فأسكن الغائلة بنفي البعض الى جزيرة قبرص · ثم عادت بين أعوانهم تارة أخرى ·

ويحكي المتصوفة ان الامام جعفر الصادق كان يصلي في بعض الأيام فصاح صيحة عالية على أثرها أغمي عليه · ولما صحا من اغمائه سئل عن ذلك فقال كنت أقرأ القرآن العظيم وكأني أسمعه من الخالق جل وعلا · ذلك ما دعا ان أصيح ويغمى علي رهبة من ذي الجلال · وبهذا يستدلون على جواز السماع وحله بهـــذا الخبر · وذلك أنه يجتمع نفر منهـــم في محل ويستمعون الى النغمات اللطيفة ، والالحان البهيجة ، ومثلها الاستماع الى الناي والدف ·

ولهـــذا السماع كما في (منهـــاج الفقراء) لاسماعيل حقي المولوي الانقروي(١٦) آداب ظاهرة وباطنة وان عبدالغني النابلسي في (جمع الاسرار) يدافع عن رأي المتصوفة وان الاستاذ اسماعيل حقي(١٧) في كتاب (النجاة) بحث في التغني وشرح به الأصوات الرخيمة في قراءتهـــا وسماعها · وبين بتفصيل فوائد ذلك عقلا وحكمة ، وشرعا وتحامل على خصومهم حيث قال :

ما أقل المعرفة ، وانعدام الذوق ، وما أكثر الغباوة ممن لا يسمع : ارحنا يا بلال ! وكلميني يا حميراء ! هفت العقول فلم تبصر ما حولها · سر في جنان الدنيا لتفهم ما يغرده البلبل ، وتجول في الأزهار الخالية من الأشواك ، لتبصر بهجة الأوراد ، وألوانها الزاهية الجميلة(١٨) ··!

وبهذا علمنا اختلاف وجهات النظر ، وتحامل المتصوفة على العلماء · والناي معروف عند المولوية ، والافراط عند البكتاشية ، وتفصيل ذلك في كتاب الخطاب ص٢٧٥ للاستاذ اسماعيل حقي ·

ومن الكتب المؤلفة في دوران الصوفية :

١ ـ رسالة في دوران الصوفية لشيخ الاسلام علي فيضي الشهير ب (سنبلي)

أولها : الحمد لله الملك المنان ... وهي رسالة صغيرة يهاجم فيها على من حرم (الدوران) مثل صاحب كتاب البزازية · والدوران متعارف عند أرباب الطريقة الخلوتية · منها نسخة في خزانة أسعد باستنبول برقم ١٤٥٦ ·.

٢ ـ رسالة في الدوران باللغة التركية منها نسخة في خزانة أسعد باستنبول برقم ١٤٨٢ ·

٣ ـ العقود اللؤلؤية في طريق المولوية : لعبدالغني النابلسي في خزانتي مخطوطة منها تناول فيها الدوران عند المولوية · والمولوية طريقة كانت معروفة في العراق وفي بغداد خاصة(١٩) ·

٤ ـ رسالة في الدوران والرقص : أولها : الحمد لله الذي هدانا لهذا ...

تحامل فيها على القرطبي والبزازي وغيرهما لافتائهم بأن ما عندالاحمدية من الدوران والرقص حرام بالاجماع وبين أنهم كانوا في غفلة · وأورد بأن الذكر الجهري والمخفي مباح · وهذه الرسالة للسيد لطف الله بن صنع الله من كتاب محاسبة الحرمين الشريفين وكتب مثل هذه الرسالة بالتركية · واستحصل فتاوى في الاباحة · كان الرأي العام ضد المتصوفة بشدة أيام السلطان سليم الياوز ومدة حكمه من ١٠ ربيع الاول أو الآخر سنة ٩١٨هـ ـ ١٥١٢م الى وفاته في ٩ شوال سنة ٩٢٦هـ ـ ١٥٢٠م · وفي أيام السلطان سليمان القانوني المتوفى في ٢٢ صفر سنة ٩٧٤هـ ـ ١٥٦٦م ، انفسح المجال للمتصوفة · وهذه الرسالة في خزانة أسعد باستنبول برقم ١٤٣٤ ضمن مجموعة تحتوي على :

(١) بوارق الالماع في تكفير السماع لأحمد الغزالي ·

(٢) السماعية النورية : رسالة في التركية في الدوران لم يذكر اسم مؤلفها ·

(٣) رسالة في دوران الصوفية ·

هذا · وفي رائد الموسيقى العربية وصف لجملة كتب في الرقص عند الصوفية ·

(*) انشاد الشعر والحداء به والغناء كان معروفا لدى العرب قبل توغلهم في الفتوح وقبل ظهور الاسلام « الافلام » ·

(١) المزامير جمع مزمار على وزن مفعال آلة الزمر ويسميه الترك بالناي ، وكان داود (ع) جميل الصوت جدا وان نايه كثير التأثير · وقراءته الزبور تشبه بالناي ويقال لأنواع الأدعية مزامير ومفردها عند اليهود مزمور ·

(٢) الذكر والتهليل وقراءة القرآن يقال لها (التغبير) وهو يذكر بأحوال الآخرة وما يتعلق بالعشق والشوق من أشعار يقال له الترنم والغناء ·

وجاء في تاج العروس عن الليث : المغبرة قوم يغبرون بذكر الله أي يهللون ويرددون الصوت بالقراءة وغيرها · وقال ابن دريد : التغبير تهليل أو ترديد صوت يردد بقراءة وغيرها ·· وقد سموا ما يطربون فيه من الشعر في ذكر الله تغبيرا كأنهم اذا تناشدوه بالألحان

طربوا فرقصوا وارهجوا فسموا المغبرة .

وقال الاستاذ جميل العظم في كتابه الأسفار عن العلوم والاسفار المخطوط في خزانتي بخط مؤلفه ص٦٤ « كان للعرب نوع من الترنم يسمونه تغبيرا عليه الزجاج بانه سمي بذلك لأنه يذكر بالغابر ويرغب به أي بالباقي الذي هو عمل الآخرة والنعيم المقيم » .

(٣) كتاب فيلسوف العرب يعقوب بن اسحاق الكندي تاليف المرحوم الاستاذ اسماعيل حقي الازميري ونقلته عن التركية وطبع بمطبعة أسعد سنة ١٩٦٣م ص٢٢ و٨٠ و٨١ وفيه تفصيل .

(٤) تفصيل هذه القصة في كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه ج٤ ص١١٣-١١٥ مطبعة مصطفى محمد سنة ١٣٥٣هـ - ١٩٣٥م .

(٥) كتاب الظرائف واللطائف ص ١٤٦ - ١٤٩ وفيه تفصيل طبع في أواخر شهر ربيع الاول سنة ١٢٨٢هـ بمطبعة الكامل التبريزي على الحجر في بغداد . صححه وهذبه ونقحه وزاد عليه بعض الأبيات المفيدة في الهوامش الاستاذ الحاج محمد أمين الزند ، وكان قد ولي الافتاء في بغداد بعد الاستاذ أبي الثناء محمود شهاب الدين الألوسي وتوفي الاستاذ الزند في ١٣ صفر سنة ١٢٨٥هـ - ١٨٦٨م في استنبول .

(٦) سورة الجن/٨ و ٩ .

(٧) المطرب من أشعار أهل المغرب تاليف الامام العلامة الحافظ المحدث أبي الخطاب عمر ابن الشيخ الامام أبي علي حسن بن علي سبط الامام أبي البسام الفاطمي المعروف بابن دحية الكلبي (ولد في مستهل ذي القعدة سنة ٥٤٤هـ - ١١٥٠م وتوفي بالقاهرة يوم الثلاثاء ١٤ ربيع الاول سنة ٦٣٣هـ - ١٢٣٥م) طبع بالمطبعة الاميرية بالقاهرة سنة ١٩٥٤ بتحقيق الاستاذ ابراهيم الابياري والدكتور حامد عبدالمجيد ص١٥٢ و١٥٣ .

(٨) العقد الفريد ج٤ ص١٠٤ - ١١٣ مطبعة مصطفى محمد ١٣٥٣هـ - ١٩٣٥م .

(٩) هدية العارفين ج٢ ص٨٢ و٨٣ وفيها قائمة مؤلفاته .

(١٠) مؤلفات الغزالي للدكتور عبدالرحمن بدوي طبع سنة ١٣٨٠هـ - ١٩٦١م في مطابع دار القلم بالقاهرة . ص٣٦٦ . وفاته أن يشير الى أن الكتاب قد طبع .

(١١) سورة الانفال/٣٥ .

(١٢) سورة الانعام/٧٠ .

(١٣) مجموعة رسائل شيخ الاسلام ابن تيمية ج٢ ص٢٧٨-٣١٥ .

(١٤) رائد الموسيقى العربية للاستاذ عبدالحميد العلوجي ص١٣٥-١٤٢ طبع بمطبعة دار الجمهورية سنة ١٩٦٤م .

(١٥) هدية العارفين ج١ ص٥٩٣ وفيه قائمة مؤلفاته .

(١٦) هو اسماعيل بن أحمد البيرامي (توفي سنة ١٠٤٠هـ - ١٦٣٠م) وفي هدية العارفين ج١ ص٢١٨ قائمة مؤلفاته .

(١٧) اسماعيل حقي هو ابن الشيخ مصطفى الاستانبولي (ولد سنة ١٠٦٣هـ - ١٦٥٣م وتوفي ببروسة سنة ١١٣٧هـ - ١٧٢٤م) وفي هدية العارفين ج١ ص٢١٩ قائمة مؤلفاته .

(١٨) تصوف تاريخي للاستاذ محمدعلي عيني استاذ تاريخ الفلسفة في مدرسة دارالارشاد باستنبول ص١٧٢ . طبع باستنبول سنة ١٣٤١هـ في مطبعة وطن .

(١٩) تاريخ العراق بين احتلالين ج٤ ص١٢٩-١٣٢ .

شوق

للكاتب الهنكاري
تيبور ديري

ترجمة
عبدالله نيازي

تعريف موجز بالمؤلف :

- يعتبر تيبور ديري من أهم كتاب هنكاريا في القرن العشرين .
- ولد في عام ١٨٩٤
- التحق بمدرسة تجارية ثم سافر الى سويسرا لدراسة اللغات .
- تعتبر روايته Unfinished Sentence التي كتبها في عام ١٩٣٣ سببا في اشتهاره .
- له عدة روايات وتمثيليات ناجحة ، وقد قدم بعضها للسينما .

فتح السجان باب « الزنزانة » والقى بشيء ما وقال :

ـ خذ هذا ..

واستقر كيس عليه رقم في الجانب الايمن من السجين ، فنهض « بي » وهو يسحب نفسا عميقا وجعل ينظر الى السجان الذي أردف يقول :

ـ ملابسك .. لك أن ترتديها .. كما ان الحلاق في طريقه اليك ..

كان الكيس يضم الملابس والحذائين التي كان قد خلعهما منذ سبع سنوات ، وكانت الملابس معفرة جدا والعفن يبدو واضحا في الحذائين وفي قميصه الذي نشره أمامه .. وفي اللحظة التي انتهى فيها من ارتداء ملابسه أقبل حلاق السجن وقص له شعره ..

ولم تمض ساعة حتى اخرج من الحجرة الصغيرة واقتيد الى مكتب مأمور السجن ، وكان هناك ثمانية أو عشرة سجناء خلعوا ملابس السجن وارتدوا الملابس المدنية ينتظرون بالقرب من المكتب . وما كاد يصل حتى نودي عليه بالدخول .. كان أحد رجال الشرطة يجلس وراء منضدة والى جانبه يجلس آخر ، في حين كان مأمور السجن يقطع المسافة الصغيرة المتبقية ذهابا وايابا .. وقال له الذي يجلس وراء المنضدة : « اقترب .. ما اسمك ؟ ما اسم امك ؟.. الى أين تنوي الذهاب ؟ » فرد « بي » : « لا أدري » وسأل

الرجل « ماذا تعني بذلك ٠٠ ألا تدري الى أين تذهب ؟ » فقال « بي » : « كلا ٠٠ فلست أعلم الى أين سأقاد في هذه المرة ٠٠ »

فحدجه الرجل بنظرة صارمة وقال بعبوس : « انك لن تؤخذ الى مكان ما ، وانما سيكون بامكانك الذهاب الى البيت وتتغدى مع زوجتك » ٠ ولم ينطق السجين بحرف واستمر الرجل يقول :

ـ حسنا ٠٠ الى أين أنت ذاهب ؟٠

ـ شارع سزلفا رقم ١٧

ـ رقم مقاطعة بودابست ؟٠٠

ـ اثنان ٠٠ ولكن لماذا ، هل سيخلى سبيلي ؟!٠٠

فزمجر الرجل قائلا :

ـ لماذا تكثر من الاسئلة !٠ لقد تقرر اطلاق سراحك ، هذا كل ماهنالك ٠٠ ولك أن تفرح لتخلصك من قبضتنا ٠٠

وفي تلك الاثناء احضرت له اشياؤه الثمينة من الغرفة المجاورة ، وهي ساعة نيكل ، وقلم حبر ، ومحفظة رثة فارغة لونها أزرق يميل الى السواد كان قد ورثها من أبيه ، وقال له الرجل وهو يسلمها له « وقع هنا » وكان وصلا يعترف به بتسلمه الساعة وقلم الحبر والمحفظة ، « وهنا أيضا » وكان وصلا آخر يؤيد فيه تسلمه مائة وستة وأربعين « فورنيت » المبلغ الذي تجمع له في أثناء وجوده في السجن ، وكان قد وضع أمامه على الطاولة٠ وقال له الرجل : « ضعه في جيبك » فأخرج « بي » ثانية المحفظة التي كانت عفنة هي الاخرى من جيبه ودس في أحد جيوبها الايصالين والنقود معا ٠٠ ثم لم يلبث أن تسلم ورقة اطلاق سراحه ولاحظ ان النقاط الموجودة أمام « سبب التوقيف » تركت فارغة لم تملأ ٠٠ ولقد ظل واقفا في الممر مايقارب الساعة قبل أن يقاد مخفورا مع ثلاثة آخرين الى باب السجن الرئيس ، غير انه ما كاد يصل حتى وجد ان أحد رجال الشــرطة يسرع اليهم ويوقفهم ويشير الى رجل من بينهم كان قد حلق لحيته توا ٠ وسرعان ما امتقع وجهه وغدا شاحبا كما لو انه قد اصيب فجأة باضطراب معوي قوي ، وزاغت عيناه وغدتا رجراجتين كحلوى « الجلي » وأعاده الى السجن بحراسة اثنين من الشــرطة يحملان المدافع الرشاشة ٠ ثم استأنف الثلاثة الآخرون الســير ووصلوا الباب الخارجي للسجن ٠ وهناك ، وبعد أن فحص السجان أوراق « بي » وأعادها اليه قال له : « هذا هو القطار اسرع وانحشر فيه ٠٠» فلم يغادر « بي » مكانه وظل مطرقا برأسه ، « ماذا تنتظر ؟ » ولكن « بي » لم يلتفت اليه وظل ينظر الى الارض ، فقال له السجان غاضبا « الى الجحيم٠٠ ماذا تنتظر ؟ » أجاب « بي » « سأذهب ٠٠ ولكن ، هل أستطيع الذهاب حقا ؟٠٠ » ولما لم يجبه السجان بشيء دس « بي » أوراقه في جيبه ومضى مجتازا باب السجن ٠ وما كاد يخطو بضع خطوات حتى تملكته رغبة في أن

ينظر وراءه ، ولكنه قاوم رغبته هذه ومضى قدما الى الامام وهو يصغي بانتباه ، ولما لم يسمع وقعا لخطوات تتعقبه خمن انه لو استطاع أن يصل القطار ولم يسمع أحدا يستدعيه ، أو تمتد يد فتوضع على كتفه من الخلف فان بامكانه أن يتظاهر انه قد نجا أخيرا !٠

وفي اللحظة التي وصل فيها القطار استدار فجأة الى الخلف ، وحين لم يجد من يتعقبه دس يده في جيب بنطاله ليخرج منه منديلا يمسح به العرق الذي بدأ يتجمع فجأة فوق حاجبيه فلم يعثر على شيء ٠ وسرعان ما حشر نفسه في القطار الذي يقف أمامه في المحطة ، ثم لمح سجانا يخرج من عربة القطار الاخير بغتة ويتوجه الى العربة الاولى ويلقي عليه نظرة فاحصة في أثناء مروره به من خلال عينيه الضيقتين ووجهه المجدور ، ولكن « بي » لم يحييه وشرع القطار بالحركة ٠٠

ولقد خامر « بي » احساس يؤكد له انه منذ هذه الدقيقة ، أو اللحظة التي تحرك فيها القطار ولم يستعد ليؤدي التحية الى السجان ، منذ هذه اللحظة ، بدأت الحياة تدب قوية رائعة في العالم الذي يحيط به ٠٠ كانت الاحاسيس التي تمور بداخله أشبه ما تكون بجهاز يعرض رقا سينمائيا يعتريه خلل طارىء فينقطع الصوت لفترة ، ثم فجأة ، وفي منتصف الكلمة أو الجملة يعود الصوت الى أفــواه الممثلين التي كانت تدور في الفراغ ، وتمتلىء القاعة ، التي كانت تبدو صماء بكماء ـ برغم الحاضرين الذين كانوا يتظاهرون بالضجر وفقدان الصبر ـ بموسيقى صاخبة ومقاطع من الاغاني ٠ وخيل اليه ان جميع الموجودات التي كانت تحيط به أو التي حوله بدأت تكتسب ألوانها الحقيقية ٠ واستدار القطار الى جهة معاكسة جد صفراء لم يسبق له أن شاهد شيئا بمثل هذا الاصفرار من قبل ، ثم اجتاز وهو يزأر دارا ذات طابق واحد بسرعة فائقة جعلت « بي » يعتقد انه ليس بمقدور أحد أن يوقفه ٠ وكان هناك ، في الجانب الآخر من الشارع ، مهران شقراوان يجران عربة فارغة ينبعث منها صرير أشبه ما يكون باغنية رقيقة تهدهد ملاكا عائما مع الغيوم في السماء ٠٠ وكان ضــوء ينفذ من الزجاج الامامي لاحدى الحدائق يعكس أشعة خضراء اللون تتماوج مع العشب النــامي ويتسلل الى نافذة المطبخ المفتوحة ٠

وكانت أرصفة الشوارع تموج بملايين النــاس وهم يرتدون ملابس مدنية متباينة ذات جمال يختلف بعضها عن بعض ٠ وكان عدد منهم يبدون ذوي قامة قصيرة قصرا غير مألوف حتى ان بعضهم ما كان يبلغ سيقان المارة في حين كان البعض الآخر يحمل على الأذرع ٠ وكذا الشأن كان مع النساء٠٠

وأحس « بي » بالدموع تغلي في عينيه وهو يرتقي أحد الباصات ٠ وكانت عاملة الباص تتكلم بصوت عذب ذي رنين أخاذ يخال للمرء انه ينبعث من قلب دافىء مرح ، فابتاع « بي » تذكرة ومضى ليجلس في المقعد الخلفي

منه ، وما كاد يستقر في مكانه حتى أغلق عينيه ، فقد كان يخشى ان هو أبقاهما مفتوحتين ، أن يفقد السيطرة على نفسه ، وحين اختلس النظر بعد هنيهة من خلال النافذة ، أبصر رجلا لدى الباب الرئيس لاحدى الخمارات يضرب امرأة شابة على وجهها • ودونما شعور منه مد يده الى جيبه ثانية ليبحث عن منديل يجفف به قطرات العرق المتجمعة فوق حاجبيه • فاصطدم بذات الخيبة التي اصطدم بها في أول مرة •• وكان هناك عامل يجلس في الجهة المقابلة منه ومعه عشر زجاجات من البيرة في صندوق صغير• وضحكت العاملة قائلة :

ـ ألا تظن انها أكثر مما ينبغي ؟••

فرد الرجل قائلا :

ـ انني رب اسرة يا سيدتي ، ويسر زوجتي أن تراقب زوجها وهو يشرب ••

فضحكت العاملة ثم قالت :

ـ تراقبك ؟••

ـ تماما ••

ـ أهي سمراء ؟

ـ نعم ••

ـ انها أفضل من النوع الآخر ••

ـ زوجتي تحب التطلع الى النوع الاسمر ••

وضحكت ثانية وقالت :

ـ لك أن تتخلى لي عن زجاجة واحدة ••

ـ سمراء ؟••

ـ لم لا •• أجل •

ـ ولكن لماذا ؟••

فابتسمت قائلة :

ـ آخذها معي الى البيت وأضعها أمام زوجي ••

ـ وما جدوى ذلك بالنسبة اليه اذا كان يفضل الشقر ؟••

واكتفت المرأة بأن أرسلت قهقهة عذبة ، وكانوا قد وصلوا احدى المحطات ، فانسل « بي » بهدوء من الباص واتجه الى احدى سيارات الاجرة واستقر فيها •• هيأ السائق العداد وانتظر من الراكب أن يرشده الى المكان الذي يقصده ، وحيث انه لم يفعل بالرغم من مرور برهة من الوقت قال له « الى أين ؟ » فتمتم بي « الى بودابست » والتفت السائق اليه وحدجه بنظرة فاحصة وقال « من أي جسر ؟ » وكان « بي » ينظر باستقامة الى الامام وردد بدوره « أي جسر ؟! » وتساءل السائق « ألا تعرف بودابست يا سيدي ؟ » فقال بي « باتجاه جسر ماركريت » •

ومضت السيارة تعدو ، وكان « بي » يجلس منتصبا دون أن يريح ظهره على المسند انخلفي ، وكانت رائحة النفط المختلطة بغبـار الشارع تتسلل الى داخل السيارة من خلال نافذتها المفتوحة مع قعقعة القطارات • وكانت الشمس تلقي باشعتها الذهبية على رصيفي الشارع بشكل متساو •• وكانت ظلال الاشخاص والأشياء التي تتراقص على بلاط الرصيف تضاعف من حركة المرور في الشارع • وكانت هناك امرأة شابة تمتص دخينة تحت مضلة ارجوانية في احـدى « الكازينوات » وعلى بعد منها شجرة كستناء تنتصب في احدى زوايا الرصيف ، وتنشر براعمها الطرية ظلا مرتعشا بحجم الكف ما يكاد يظهر حتى يختفي •

وقال « بي » للسـائق يرجوه « اذا استطعت أن تجد دكانا يبيع السكاير ! » وتوقفا على بعـد ثلاث دور ، ونظر « بي » من خلال نافـذة السيارة ، كانا يقفـان أمام مخزن وضع أمام بابه المفتوح ثلاثة أكوام من الفجل الطري الاحمر ، والخس ، والتفاح • وكان الباب الآخر له يؤدي الى ممر ضيق تباع فيه السكاير • واستدار السائق نحو « بي » وقال : « ابق حيث أنت ، يا سيدي •• سأجلبها لك •• أي نوع من السكاير تفضل !•• كوسات ؟ » وكان « بي » يحملق في رؤوس الفجل الطرية ويده ترتجف ، وقال « أجل ، وعلبة كبريت » وفتح السائق باب السيارة وقال « لا تأبه للأمر ، سأضيف الثمن الى الاجرة • علبة واحدة ؟ » أجاب « بي » « نعم • اذا تفضلت » وحين عاد السائق قال لبي « هل أشعل لك واحدة •• حين أمضى أخي في السجن سنتين وخرج منـه اتجه كذلك رأسا الى دكان للسكاير •• ولقد شرب علبتين من سكاير الكوسات دفعة واحدة • سيكارة أثر اخرى قبل أن يذهب الى البيت » وسأل « بي » بعد فترة وجيزة « هل يبدو علي ذلك واضحا ؟ » أجاب السائق « حسنا ، نعم ، ربما يلوح عليك ذلك بعض الشيء ، فقد كان لاخي نفس الشحوب الذي لك الآن حين خرج من السجن ، ومن المحتمل أيضا أن تكون خرجت من المستشفى ، ولـكنهم لا يدعكون الثياب هناك هكذا •• كم أمضيت هناك ؟ » فقال « بي » سبع سنوات قضيت منها سنة ونصف السنة في السجن الانفرادي » وقال السائق « وهل أطلقوا سراحك الآن ؟ » أجاب بي « هكذا يبدو •• أليست المـدة كافية ؟ » وهز السائق كتفيه وتمتم « سبع سنوات •• ولكن ما وجـه الغرابة ؟•• »

ونزل « بي » في محطة « فانيكيولر » وفضل أن يقطع بقيـة الطريق مشياً على الاقدام ، فقد شعر انه بحاجة لان يعتاد السير بحرية قبل أن يذهب الى زوجه ، وامتنع السائق أن يتناول أجره وقال « انك بحاجة الى مزيد من الدراهم يا صـديقي ، وينبغي ألا تبعثر النقـود الا فيما يساعد صحتك ، تناول اللحم كل يوم مع شيء من النبيذ الجيد ، وبذلك تستعيد

قواك بمرور الزمن » فشكره بي وقال « الى اللقاء » ٠

ولقد توقف « بي » هنيهة أمام مرآة ترى من نافذة أحد مخازن الازياء في الجهة المقابلة ثم واصل السير ٠٠ وكان شارع « باسارتي » ما يزال مزدحما بالناس وعابري السبيل ، فسلك طريقا يؤدي الى تل يقع بجانب ساحة للتنس ويفضي في الوقت ذاته الى شارع « اوتوهيرمان » ٠٠ ووجد هناك ساحة شاسعة تطل مباشرة على التلال الواقعة في الاتجاه المقابل لها ٠ وأحس كما لو أن رأسه يدور ، فجلس على الحشائش هناك ٠٠ ان زوجه لم تكن تتوقع قدومه أبدا ٠ لذا فهو يستطيع أن يتملى الطبيعة ويتطلع الى الاشجار والاعشاب لمدة نصف ساعة على الاقل ٠٠ ثم راح يتطلع الى شجرة تفاح مزهرة تنتصب بعيدا عبر الشارع برهة من الزمن ثم نهض متجهـا اليها ٠ كانت الزهور البيضاء البراقة تملأ أغصانها الطرية اليانعة حتى انه يتعذر عليك أن ترى من خلال تاجها الثلجي شيئا سوى ومض خاطف يكاد يكون أزرق داكنا ، للسماء ٠٠ أما اذا أمعنت النظر في الزهور ذاتها التي تغطي الشجرة كلها فانك تلمح في داخلها خيوطا ارجوانية رائعة تمنحهـا لونا فخما يزيد من جمالها ٠٠ وكانت زنابير النحل التي تطن فوق الزهور تنشر خيوطا ذهبية حول النسيج الابيض فتبدو الشجرة كلها تتماوج كما لو ان غطاء رقيقا منشورا في الهواء ٠٠ وكاد « بي » ينسى نفسه وهو ينصت الى حديث الشجرة السحري ٠ ولمح في اثناء ما كان غارقا في تمليه لهـا ، غصنين متباعدين بعض الشيء حزر انه يستطيع أن يرى من خلالهما السماء ٠٠ وعبرهما ، في المدى البعيد ، خيل اليه انه يرى غيمتين قطنيتين أشبه ما تكونا بشجرة تفاح اخرى مسمرة في الفضاء ٠ فغمره احساس بالسعادة عنيف واستحوذ عليه المنظران ٠٠ المحسوس وغير المحسوس ٠٠ ولقد كان ما يزال يحس بالدوار في رأسه ٠٠

ولم يستطع « بي » أن يعلم كم مضى عليه منذ أن غادر السيارة ، فقد نسي ان يملأ ساعته ، ثم استدار ليواصل السير الى الدار ٠ وما كاد يخطو بضع خطوات حتى انحنى خلف الاعشاب الموجودة هناك وقاء ما بجوفه فأحس بشيء من الراحة يسوده ٠٠ وخلال نصف ساعة من السير تحت اشـعة الشمس وبين التلال والاشجار استطاع « بي » أن يصـل الدار ، وكانوا يسكنون في الطابق الاول منها ، فتوقف أمامها ينظر اليها بسكون ، وكانت هناك بعض الزنابق تنمو في جانبي الباب الامامي من الحديقة ، ثم لم يلبث أن مضى يرتقي السلم ٠

ولم يجبه أحد حين طرق « بي » الباب ، كما ان البطاقة التي تحمل اسمه لم تكن موجودة ، فنزل مسرعاً الى زوجة الحارس التي تسكن في الطابق الاسفل وقال للمرأة التي فتحت الباب وكانت قد كبرت بعض الشيء وبان عليها الشحوب :

ـ كيف حالك ؟٠٠

ـ عمن تبحث ؟٠٠

ـ أنا بي ٠٠ هل ما زالت زوجتي تسكن هنا ؟٠٠

ـ سيدي العزيز ٠٠

فأطرق « بي » ببصره وقال :

ـ هل ما زالت زوجتي تسكن هنا ؟٠٠

ـ سيدي العزيز ٠٠ هل عدت الى الدار ؟٠٠

ـ أجل ، هل مازالت زوجتي تسكن هنا ؟٠٠

تركت المرأة اكرة الباب واتكأت عليه ثم تمتمت :

ـ هل عدت الى البيت يا سيدي ؟٠ طبعا انها تسكن هنا ٠٠ انهـا لاتعلم بعد ٠٠ هل تعلم انك عدت الى البيت ؟ ٠٠ يا للسماء ! ٠٠ طبعا انها تسكن هنا ٠٠

ـ وكذلك ابني ؟٠٠

وفهمت المرأة ما يقصد وقالت :

ـ انه جميل ويتمتع بصحة جيدة ٠٠ سيصبح شابا قويا محبوبا ٠٠ سيدي العزيز ٠٠

وكان « بي » صامتا واستمرت المرأة تقول بصوت مرتعش :

ـ هل تدخل يا سيدي ٠٠ أرجو أن تفعل ذلك ٠٠ أنا أعلم انك بريء، وكنت واثقة من انك ستعود الى البيت في يوم ما ٠٠

وقال بي :

ـ طرقت الباب ثلاث مرات فلم يرد علي أحد ٠٠

ـ أرجو أن تتفضل بالدخول يا سيدي ٠٠ لا يوجد أحد في المسكن٠٠ وحتى الذين استأجروا الشقة خرجوا أيضا ٠٠

وأطرق بي برأسه صامتا ، وقالت المرأة :

ـ ذهبت زوجتك الى العمل ، كما ان « جيوريكا » ما يزال في المدرسة ٠٠ ألا تتفضل بالدخول ٠٠ سيكونان هنا بعد الظهر ٠٠

ـ هل هناك اناس آخرون في الشقة ؟٠٠

ـ انهم جد طيبون ٠٠ وان زوجتك في اتفاق تام معهم ٠٠ يا سيدي العزيز !٠٠ هل لك أن تدخل أخيرا ؟٠٠

وظل بي صامتا ، وقالت المرأة بعد هنيهة قصيرة :

ـ انني أحتفظ بمفتاح الشقة ، وبمقدورك يا سيدي أن ترتقي السلم وتستريح حتى تعود زوجتك ٠٠

وانتزعت المرأة مفتاحا كان معلقا على الحائط الى جانب مفتاح آخر ثم قالت وهي تغلق الباب :

ـ هيا معي الى أعلى وتمتع بشيء من الراحة ..

وتردد « بي » لحظة ثم أطرق قائلا :

ـ هل ستأتين معي ؟

ـ طبعا لأريك الغرفة التي تسكن فيها زوجتك ..

ـ في أية غرفة تسكن ؟..

ـ ان العائلة التي تشارك زوجتـــك الشقة تتكون ، كما تعلم ، من أربعة أشخاص ، وقد استقلوا بغرفتين وانتقلت زوجتـك مع جيووريكا الى غرفة الخدم .. ولكنهم يشتركون معا في استخدام المطبخ والحمام ..

ولم يجب « بي » وسألت المرأة :

ـ هل نصعد ، أم انك تفضل الانتظار هنا حتى يعودوا ؟.. انك تستطيع أن تستلقي على الكنبة وتنال قسطا من الراحة حتى يعودوا ..

وسأل بي :

ـ هل قلت انهم يشتركون معا في استخدام المطبخ والحمام ؟..

ـ أجل .. طبعا ..

ورفع « بي » رأسه وراح ينظر الى المرأة ثم قال :

ـ اذن فأنا أستطيع أن أستخدم الحمام .. أليس كذلك ؟..

فوضعت المرأة يدها بلطف على ذراع « بي » كما لو كانت تريـد مساعدته ، ثم قالت وهي تبتسم :

ـ طبعا . ان لك الحق في أن تستحم .. لماذا لا ؟.. انها شقتك بقدر ما هي شقتهم ، وكما أخبرتك ، انكم تشتركون معا في استخدام الحمام والمطبخ .. وسأكون مسرورة اذا طلبت مني أن أضع لك ماء على النار ، فنحن مازلنا نحتفظ في المخزن ، بشيء من الخشب منذ الشتاء .. ولكنني اخمن ان الذين يشاركونكم الشقة يغلقون باب الحمام في أثناء النهار ..

وكان « بي » ما يزال صامتا وعاد ينظر ثانية الى الارض .. وسألت المرأة :

ـ هل نصعد أم تعود معي .. لا تتردد .. هيا !.. سأكون في المطبخ ولن ازعجك .. فقط تستلقي على الكنبة فلربما تحظى باغفاءة قصيرة ..

فقال بي :

ـ أشكرك .. افضل أن أصعد الى أعلى ..

وكان شباك الغرفة الصغيرة يقع في الناحية الشمالية كما هو متبع في غرف الخدم كافة .. وكانت هناك شجرة دردار تنتصب في الجهة المقابلة لها تماما ، والى اليسار ، كانت تلوح قمة سوداء لأحد التلال ، في حين كانت أغصان الشجرة تعكس ظلالا خضرا الى داخل الغرفة .. وفي اللحظة التي

استطاع « بي » أن يكون وحيدا ويشعر بانتظام أنفاسه استطاع أن يميز رائحة زوجته في الجو المحيط به ، ثم لم يلبث أن جلس بالقرب من النافذة وجعل يستنشق الهواء الرطب وينظر الى الفضاء من خلال أغصان الشجرة ·· كانت الغرفة خالية الا من دولاب أبيض وسخ وسرير حديد ومنضدة وكرسي ، وضيقة جدا حتى انه يتحتم عليك أن تبعد الكرسي جانبا اذا أردت الذهاب الى السرير ·· ولم يجد « بي » رغبة في الاستلقاء وانما جلس فقط بثقله كله يتنفس ويستنشق عبير زوجته ·· كانت الاشياء كلها مكومة على المنضدة ، الكتب ، والملابس ، ولعب الاطفال ·· وكان هناك أيضا مرآة صغيرة جعل « بي » ينظر فيها فعكست له الصورة ذاتها التي عكستها زجاجة مرآة أحد المخازن في محطة «فانيكيولر » ثم لم يلبث ان أعادها الى المنضدة على قفاها ·· فهو لم يكن يريد أن ينقب في أشياء زوجته الموجودة فوق المنضدة ·· وكان هناك أيضا قلم « أحمر شفاه » ملقى في نفاضة للسكاير ·· ولقد استطاع « بي » أن يجد كذلك رائحة زوجته فوق المنضدة ··

وما كاد « بي » يعود ويجلس الى جانب النافذة حتى فتحت زوجة الحارس الباب وقدمت له قدحا كبيرا من الحليب الممزوج بالبن وفطيرتين سميكتين ، فتناولها « بي » ثم عاد الى وحدته من جديد ، ولم تمض فترة اخرى حتى طرقت زوجة مستأجر الطابق الأسفل عليه الباب وقدمت له قدحا من البن وخبزا وزبدا وسكرا وشيئا من ذات التفاح الذي شاهده في نافذة المخزن في أثناء عودته ، وما كادت المرأة تضع الصينية على المنضدة حتى امتلأت عيناها بالدموع وانصرفت بعد هنيهة ·· ولقد تناول « بي » ما جاءت به المرأة الثانية أيضا ·· وحيث انه لم يملأ ساعته فلم يستطع ان يعلم كم مضى عليه وهو جالس الى جانب النافذة ·· كانت النافذة تطل على الجانب الخلفي المهمل من الحديقة ، وكان النحل يرفرف بأجنحته الصغيرة حول أوراق شجرة الدردار الخضر فيشوش ضياء الظهيرة الذي كان يملأ حيطان غرفة الخدم البيض ··

وما كاد « بي » يحس انه يتنفس رائحة زوجته بصورة أقوى حتى قفز الى الشارع مجتازا الباب الخارجي للحديقة ، وهناك لمح زوجته تقبل من زاوية الشارع مع أربعة أو خمسة أطفال ·· وفي اللحظة التي اقتربت فيها من باب الحديقة راحت خطواتها تتعثر فجأة وتبطء من تلقاء ذاتها ، فتوقفت للحظة ثم جعلت تعدو نحوه ·· ودونما شعور راح « بي » يعدو نحوها هو الآخر ·· وما كادا يقتربان من بعضهما حتى توقفت زوجته ثانية كما لو انها لم تكن متأكدة تماما من أن الشخص الذي تتجه نحوه هو « بي » نفسه ثم استمرت تعدو ··ولقد لاحظ « بي » انها ما زالت ترتدي الثوب الصوفي ذا الاردان الذي سبق أن اشتراه لها من مخزن ما في المدينة قبل أن يلقى عليه القبض بفترة وجيزة ·· كانت هيئتها تبدو ذات طابع فريد من نوعه

لم يسبق له أن شاهد مثيلا له ، فشعر ان الأخيلة التي كانت تطوف به طيلة السنوات السبع التي قضاها في السجن وتصور له زوجته في وحدته أثنـــاء ما كان يتملاها ، تذوب فجأة وتتلاشى ٠

وما كادا ينتهيان من العناق حتى اتكأ « بي » على السياج يتطلع الى زوجته وخلفهما كان يقف أربعة أو خمسة أطفال تتراوح أعمارهم بين السابعة والتاسعة يحدقون باستغراب كما لو انهم قد اصيبوا بهزة عاطفية على حين غرة ، وكان « بي » يدقق النظر فيهم واحدا واحدا ثم سأل :

ـ أيهم ابني ؟٠٠

وانفجرت زوجته بالبكاء ثم قالت وهي تشرق بدموعها :

ـ دعنا نصعد ٠٠

ووضع بي يده على كتفها وهمس :

ـ لا تبكي ٠٠

فقالت وهي تشهق بقوة :

ـ دعنا نصعد ٠٠

ـ لا تبكي ٠٠ أيهم ابني ؟٠٠

وفتحت باب الحديقة واندفعت تعدو الى الدار ، ورآها بي تختفي في الممر بين شجرتين من أشجار الزنبق الابيض ٠٠ كانت تبدو رقيقة ناعمة كما افترقا تماما ٠٠ ثم راحت تركض بذات الخطوات الطويلة اللينة في أثناء ما كانت فتاة يانعـــة تعدو خلفه بقوة بخطوات متعثرة يملاها الخوف ٠٠ واستطاع « بي » أن يمسك بها في الطابق الاعلى بالقرب من باب الشقة ٠٠ كانت قد هدأت بعض الشيء سوى ان ثدييها الشابين كانا يرتجفان تحت قميصها الاسود ، ومع انها لم تكن تبكي الا أن موقيها كانا ما يزالان نديين بالدموع ٠٠ وهمست :

ـ حبي الوحيد ٠٠

كانت تهمس بنعومة فائقة تجعل المستمع اليها لا يملك الا أن يلتقط كلماتها بشفاهه كلمة ، كلمة وقال :

ـ دعينا ندخل ٠٠

ـ هناك اناس آخرون يسكنون معنا ٠٠

ـ أعرف ذلك ٠٠ دعينا ندخل ٠٠

ـ هل كنت هنا ؟٠٠

ـ نعم ٠٠ أيهم ابني ؟٠٠

وفي داخل الغرفة وضعت رأسها في حضنه وطفقت تبكي ٠٠ وكانت خصلات من شعرها الرمادي تلمع بشكل واضح في شعرها الاشـــقر المائل الى السواد ٠

ـ يا رجلي الوحيد ٠٠ لقد انتظرتك طويلا ٠٠

فتمتم « بي » وهو يمسد شعرها :
ـ أكان الأمر صعبا بالنسبة اليك ؟..
ـ رجلي الوحيد ..
ـ هل شخت كثيرا ؟..
ـ بالنسبة لي .. لم تتغير منذ أن افترقنا ..
ـ هل تقدمت بي السن أكثر مما يجب ؟..
فتمتمت :
ـ سأحبك ما حييت ..
ـ هل حقا ما زلت تحبينني ؟..
وكان ظهرها يرتجف وهي تشهق بصوت مرتفع ، فرفع « بي » يده عن رأسها وقال :
ـ هل سيكون بامكانك أن تعتادي وجودي ثانية ؟..
ـ لم أحب أحدا سواك ..
ـ هل انتظرتني ؟..
ـ كنت أحيا معك .. لم يمض يوم دون أن أتذكرك فيه .. كنت واثقة من انك ستعود .. والا فانني كنت سأموت وحيدة ..
وسأل بي :
ـ هل تحبينني ؟..
ـ لم أحب أحدا سواك أبدا .. ان شيئا فيك لم يتغير ليتبدل شعوري نحوك ..
ـ لقد تغيرت ..
وطفقت تبكي وهي تحتضن ساقي زوجها بذراعيها ، فجعل « بي » يمسد شعرها ثانية .. وسألت :
ـ هل سيكون لنا ولد آخر ؟..
ـ ربما .. اذا كنت ما زلت تحبينني .. انهضي ..
فقالت وهي تقف :
ـ هل أدعوه ؟..
ـ لم يحن الوقت بعد .. أريد أن أكون بقربك فترة اخرى .. انه ما زال غريبا بالنسبة لي .. هل هو في الحديقة ؟..
ـ سأذهب وأقول له أن ينتظر قليلا ..
وحين عادت كان « بي » يقف بالقرب من النافذة . وكان ظهره يبدو ضيقا ومنحنيا بعض الشيء .. ولم يستدر ، وظلت هنيهة واقفة لدى الباب تنظر الى ظهره ثم قالت بصوت متحشرج يغلبه الانفعال :
ـ أخبرته أن يجمع باقة من الزهور الى أبيه .. ان زهور الزنبق تتفتح على جانبي الباب .

وسأل بي :

ـ هل تحبينني ؟

فركضت اليه واحتضنته ثم همست وجسدها يلتصق به :

ـ يا رجلي الوحيد ..

ـ هل سيكون بامكانك ان تعتادي وجودي ثانية ؟..

ـ لم أحب أحدا سواك .. كنت دائماً معي .. وكنت احدث ابنك عنك كل يوم ..

واستدار « بي » واحتضنها بين ذراعيه ثم راح يمعن النظر في وجهها . ولقد استطاع أن يرى ، من خلال ضوء الشفق المتسلل من النافذة انها قد كبرت هي الأخرى عما كانت عليه ، الا انها ، رغم ذلك ، تبدو أكثر جمالا مما كان يصورها لهخياله طوال السنوات السبع التي قضاها في السجن . كانت عيناها مغلقتين وفمها نصف مفتوح تنبعث من خلال أسنانها الناصعة أنفاسها الحارة فتلفح وجهه . وكانت أجفانها الرطبة السوداء تضفي عليها مسحة من انجمال الحزين فتبدو كما لو انها في حالة من التوله المطلق .. قبل « بي » عينيها ثم أبعدها عنه بلطف ، فوشوشت بخفوت وأجفانها ما تزال مطبقة :

ـ هل تحب طفلك أيضا ؟..

ـ أجل ، سأحاول أن أعتاده ..

ـ انه ابنك ..

ـ وابنك ..

وطوقت عنقه بذراعيها وهمست :

ـ سأدلك لك جسدك حين تستحم ..

ـ سيكون الأمر حسنا ..

وجعل « بي » يخلع ملابسه ، وانهمكت هي في تهيئة الفراش ، ثم جاءت بأناء من الصفيح فيه ماء دافيء وصابونة ، ومنشفتين .. وأجلست زوجها على لوح من الخشب وجعلت تدلك جسده كله بمنشفة غمستها في الماء والصابون .. وكانت يدا « بي » ترتجفان بين الحين والحين ، الا أن وجهه كان هادئا الآن . وتمتم :

ـ هل سيكون بامكانك أن تعتادي وجودي ؟

ـ يا رجلي الوحيد ..

ـ تنامين معي الليلة ؟..

ـ نعم ..

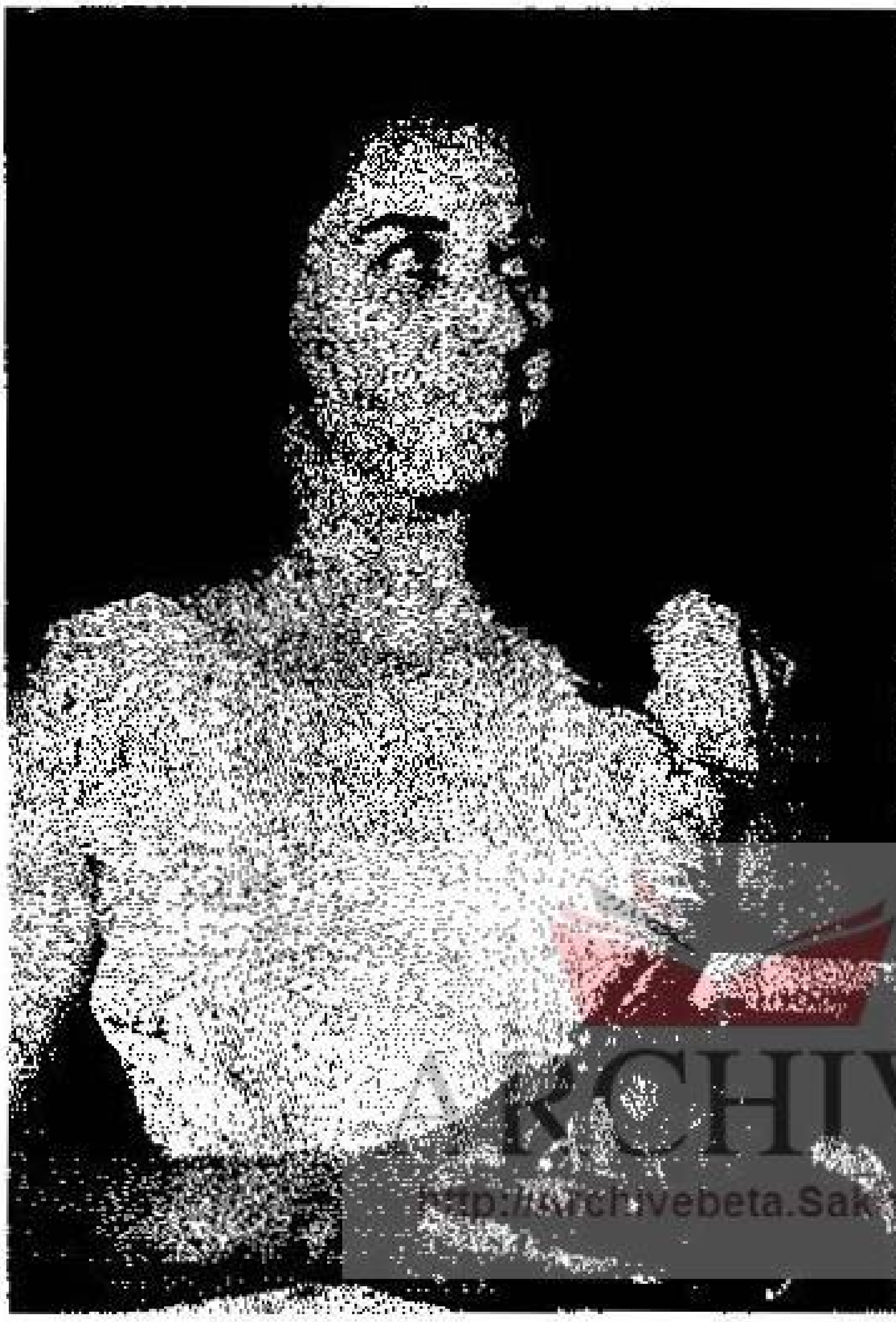
ـ والولد ؟..

ـ سأفرش له في الارض .. ان نومه عميق ..

ـ هل ستبقين الى جواري الليل كله ؟..

ـ أجل .. الليل كله .. بل العمر كله .. ما دمنا أحياء .

فنانون عراقيون



- ولدت في مدينة الموصل عام ١٩٢٧ .
- تخرجت في مدرسة الفنون البيتية ببغداد عام ١٩٤٦ .
- اكملت دراستها الفنية في انكلترا ، حيث التحقت بالكلية المركزية للفنون في لندن عام ١٩٥٧ ـ وتخرجت فيها عام ١٩٦٠.
- ساهمت في معظم المعارض الفنية التي اقيمت ببغداد منذ عام تخرجها حتى الآن .
- اقامت معرضين شخصيين لأعمالها أولهما في بيروت (١٩٦٤) وثانيهما في لندن (١٩٦٥) .
- تنحو نحو التجريد في تعبيرها عن المعاني .

سقاك الحيا

حسين جليل

أبعد الذي لاقيت يا قلب ترجع
تغني الصبايا ما يلذ ، ويوجع
وأنت الذي غنيت ألف قصيدة
لألف ، ولم يمرح لحبك مربع
أتنسى جراحاً في حناياك لم تزل
تساقط منها بين جفني أدمع !
.. ألومك الا أنه اللوم ضائع
وهيهات مجد لوم من ليس يسمع
وأزجيك نصحاً غير أنك سادر
تساوى لديه ما يضر ... وينفع ..
وانك لا يلويك خطب ، وان دجت
لياليك ضوى في سماها الترفع
وانك أسمى من قلوب كثيرة
تطير شعاعاً كلما هب زعزع
فيا ويح قلب مارد متجبر
ولكنه للحسن أندى وأطوع !

* * *

كتاب ، ونهد ظللته ظفيرة
قصيد له ورد الصبا العذب مطلع
يرن بأعماقي ، ويهدر في دمي ..

وأسمعه من جرح قلبي ينبـــع
٠٠ صدى ذكريات ، ذاهبـــات زواجع
أراهـــا ، مع الشمس الوضيئة ، تطلع

* * *

عشقتك يا مجرى الظفـــائر والشذى
وان غـــذ بي ركب ، وان عز مطمع[1]
ســقاك الحيا يا ملتقى الحسن بالصبا
وروى ظبـــاء فيـــك تعـدو وتمرع
ولا غابت « الأقمار » عنـك ، ولا خبت
« نجوم » على آفاقـــك الغر تسـطع
٠٠٠ كأن الربيـــع الطلق ألقى وروده
عليهـــا ، ولم يبخل بما يتضـــوع
ولا أقفرت تلك « المعـــاهد » انهـــا
مشـــاتل أزهار تشب ٠٠ وتينـع
ولا غاض فيهـــا للبراءة جـدول
من الفجـــر أسنى والأصـــائل أروع

* * *

أيا درب أســـراب القطا ان لي عـــلى
جوانبـــك النعماء قلبـــا يـــوزع
ستبقى ، ويبقى الحب يسترق الخطى
على أرضك الخضراء طورا ٠٠٠ ويسرع !

---

(١) غذ بي ركب : أسرع وابتعد بي عن صباي وشبابي ٠

بمناسبة الذكرى الالفية
ـ بحساب الميلادي ـ

المتنبي بين الحمداني والاخشيدي

نعمان ماهر الكنعاني

أكثر النقاد ومؤرخو الادب في الحديث عن المتنبي وشعره وحياته وتقلب الاحوال به وتقلبه هو بالاحوال ·

وأود ان اشير الى ناحية محدودة في حياة الشاعر العظيم ونواحيها العريضة هي علاقته بسيف الدولة الحمداني وبكافور الاخشيدي ومقارنة شعره في كل من موقفه بين هذين الحاكمين ·

لقد مدح المتنبي سيف الدولة وهجاه فما هي حقيقة مشاعره أو ما هو صدق الشعور في شعره هذا ·

مدح المتنبي سيف فقال من قصيدة مطلعها :

على قدر اهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

يقوله :ـ

وقفت وما في الموت شك لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمر بك الابطال كلمى هزيمة ووجهك وضاح وثغرك باسم
تجاوزت مقدار الشجاعة والنهى الى قول قوم انت بالغيب عالم

ومنها :ـ

ولست مليكا هازما لنظيره ولكنك التوحيد للشرك هازم
تشرف عدنان به لا ربيعة وتفتخر الدنيا به لا العواصم

يقول هذا في الحمداني ·

ويقول في كافور بعد مفارقته سيف الدولة من قصيدة مدح :ـ

كفى بك داء ان ترى الموت شافيا وحسب المنايا ان يكن امانيا
تمنيتها لما تمنيت أن ترى صديقا فأعيا أو عدوا مداجيا

وهذان البيتان من أسوء ما يستهل به المديح الى جانب التعريض الخفي بالممدوح ·

ثم يقول مادحا كافورا في القصيدة هذه :ــ

قواصــــد كافــور توارك غــيره ... ومن قصد البحر استقل السواقيا
فجـاءت بنـا انسان عـين زمـانه ... وخلـت بياضـا خلفهـا وماقيـا

ان خلاصة القول في هذا الشعر هي ، صدق العاطفة الى جانب براعة الصنعة في مدح الحمداني ، وافتعال المشاعر والاستعانة بالقدرة الشعرية في مديح الاخشيدي ولا ننسى ان تشبيه كافور الاسود بانسان العين ليس من المديح الحقيقي فالفرق واضح بين قوله :ــ

وقفت وما في المـوت شـك لواقف ... كانك في جفـن الردى وهـو نائم

وبين قوله :ــ

فجـاءت بنـا انسان عـين زمـانه ... وخلـت بياضـا خلفهـا ومآقيـا

فذاك عاطفة ومقدرة ، وهذا عقل ومقدرة

بل نجد هذا التباين في القصيدة الواحدة فهو يقول عند فراقه الحمداني قاصدا كافورا من قصيدة مطلعها :ــ

بم التعلل لا أهـل ولا وطـن ... ولا نـديم ولا كـاس ولا سـكن
سهـرت بعـد رحيـلي فرقة لـكم ... ثم استمر مريري وارعوى الوسن

ــ والخطاب هنـا في قوله فرقة لـكم موجه الى سيف الدولة ــ فهـو يكشف عن ألمه على فراق سيف الدولة وسهده وحزنه لهذا الفراق بينما سياق القصيدة يدل على رغبة الشاعر في الهجاء اذ سبق ذلك قوله :ــ

جـزاء كـل قـريب منكـم ملـل ... وحظ كـل محـب منـكم ضغـن

فلم تطاوعه عاطفته في ان يقول في الهجاء أكثر من التعريض أو بالاحرى العتاب بل لعله ينسى نفسه فينساق الى العتاب وهو قاصد الهجاء ·

وحين يختتم هذه القصيدة بمدح كافور تراه لا يستطيع ان يأتي بذي بال حيث يقول والخطاب هنا أيضا موجه الى سيف الدولة :ــ

أبلى الأجلـة مهـري عنـد غـيركم ... وبدل العـذر بالفسـطاط والرسـن
عند الهمام أبي المسك الذي غرقت ... في جوده مضـر الحمراء واليمـن

يتضح من هذه النماذج القليلة ان مديح الشاعر للحمـداني غـيره للاخشيدي وان صدق العاطفة في مديحـه للرجلين متباين بل لعله في مديح الاخير ضعيف أو لا أثر له ·

اما اذا انتقلنا الى الهجاء فان الصورة تكون صارخة ·

هجا المتنبي سيف الدولة فماذا قال ؟!

اننا لو تصفحنا ديوان المتنبي كله لما وقفنا على ما يصح ان نسميه هجاء لسيف الدولة بل نرى العتاب والالم والندم في أكثر من قصيدة ٠

وحتى الابيات التي قيل انها وجدت في ثيابه عند مقتله واعتبرت آخر ما نظم تؤيد ما نقول ٠

فلندع هجاء المتنبي الفاضح لكافور في قصائده عيد بأية حال عدت يا عيد والتي يقول فيها :ـ

أكلما اغتال عبد السوء سيده	أو خانه فله في مصر تمهيد
صار الخصي امام الآبقين بها	فالحر مستعبد والعبد معبود

أو أمثال قوله في مقصورته التي قالها عند تركه مصر :ـ

بها نبطي من أهل السواد	يعلم أنساب اهل الفلا
واسود مشفره نصفه	يقال له انت بدر الدجى
وشعر مدحت به الكركدن	بين القريض وبين الرقى

وفي هذا البيت يعترف المتنبي بان مديحه لكافور لم يكن مديحا بل هو كلام حائر بين الشعر والتعويذة والتي سببها السخرية لا الاشفاق ٠

نعود الى قصيدته التي قيل انها آخر ما نظم فتحدث بها عن الحاكمين الحمداني والاخشيدي وهي مقطوعة من أروع الشعر فيقول :ـ

أفيقا خمار انهم بغضني الخمرا	وسكري من الايام جنبني السكرا
تسر خليلي المدامة والذي	بقلبي يأبى أن أسر كما سرا
بمستصروف الدهر أخشن ملبس	فعرقني نابا ومزقني ظفرا

حتى يقول :ـ

عثرت بسيري نحو مصر فلا لعا	بها ولعا بالسير عنها ولا عثرا
وفارقت خير الناس قاصد شرهم	واكرمهم طرا لألأمهم طرا
فعاقبني المخصي بالغدر جازيا	لان رحيلي كان عن حلب غدرا

لقد وجدت هذه القصيدة في ثياب الشاعر بعد عودته من شيراز حيث كان لدى عضد الدولة البويهي وحيث مر زمان على فراقه الحمداني والاخشيدي ولكن مكانة كل منهما اوحت اليه بهذا الشعر الذي دل على ان شعر المتنبي في الحمداني نابع من القلب سواء ما كان مديحا أو عتابا أو ألما أو ندما ٠

وان شعره في الاخشيدي يختلف كليا فهو شعر من القلب حين هجا كافورا ٠

وهو شعر من الصنعة والخبرة حين مدحه ٠

وفي هذه الابيات ضوء آخر على هذا الرأي ، قال يمدح سيف الدولة من قصيدة :ـ

قد زرته وسيوف الهند مغمدة   وقد نظرت اليه والسيوف دم
فكان أحسن خلق الله كلهم   وكان أحسن ما في الاحسن الشيم

وقال يمدح كافورا من قصيدة بمناسبة بنائه دارا :ـ

نزلت اذ نزلتها الدار في أحسن   منها من السنى والسناء
تفضح الشمس كلما ذرت الشمس   بشمس منيرة سوداء
انما الجلد ملبس وابيضاض النفس   خير من ابيضاض القباء

وهذا لعمري مديح يدعو الى الاشفاق ٠

اما هجاؤه لكل من الحمداني ـ ان جاز انقول انه هجا الحمداني ـ والاخشيدي فهو في الاول يقول :ـ

فان دموع العين غدر بربها   اذا كن اثر الغادرين جواريا
اذا الجود لم يرزق خلاصا من الاذى   فلا الحمد مكسوباً ولا المال باقيا
أقل اشتياقا أيها القلب ربما   رأيتك تصفى الود من ليس جازيا

وفي كافور يقول :ـ

أمينا واخلافا وغدراً وخسة   وجبنا؟ أشخصا لحت لي أم مخازيا؟
تظن ابتساماتي رجاء وغبطة   وما أنا الا ضاحك من رجائيا
وتعجبني رجلاك في النعل انني   رأيتك ذا نعل اذا كنت حافيا

* * *

لاشك في ان المتنبي كان معجبا بسيف الدولة الحمداني فمدحه صادقا وهجاه عاتبا ٠

لاشك في ان المتنبي كان ساخرا بكافور الاخشيدي فمدحه متحذلقا وهجاه مخلصا ٠

وهذا هو المتنبي بين الحمداني والاخشيدي ٠

●
●
●

أزمة البرجوازي في أزمة العبثية

دراسة للوحة نجيب محفوظ في ـ الشحاذ ـ

صلاح الانصاري

لا آتي بجديد عندما اتحدث عن انتقال نجيب محفوظ بعد مرحلة الثلاثية من الواقعية والتطور النفسي الى المواقف الفكرية وذلك بعد صمت طويل دام تسع سنوات أنتهى بـ « اللص والكلاب » الرواية التي عدت انقلابا في فكر محفوظ واسلوب محفوظ وبنائه الفني ، فسعيد مهران في هذه الرواية وعيسى في « السمان والخريف » وصابر في « الطريق » وعمر في « الشحاذ » ليسوا مجرد ابطال يحركهم حدث بل هم حركة منهجية فلسفية ، كل منهم يبحث عن خلاص ابدي ، هذا في درب الفوضى وذاك في اللا انتماء وآخر في الميتافيزيق كل في طريق ضال لانهم لم يستطيعوا ان يتفهموا الحل وسط عالم كثيف غامض متناقض كما يصوره كبار الكتاب الوجوديين .

وهذا الانتقال في أدب محفوظ لم يكن اعتباطا لانه وليد وعي كاتبنا الذكي ، القلق كجيلنا والدائب باستمرار من أجل فهم العصر . استطيع أن اقول عن « الشحاذ » انها ابدع ما انتجه الاستاذ نجيب محفوظ واعمق رواياته فلسفة وأكثرها رمزا ، اذ اختار لعمر الحمزاوي ازمة وسط الواقع الشرقي الجديد ، واقع التحول الاشتراكي ليمثل حركة الصراع الذي يدور اليوم بعد التحرر في معركة البناء ، ومع هذا يبرز تخبط البرجوازية وعبثها وتفاهتها مع تسجيل المرحلة التاريخية المهمة في تأريخ التطور الاجتماعي للشعوب النامية في عصر الفكر .

(عمر) مناضل أشتراكي في الامس « عهد التلمذة والشباب » ، محامي خطير ، مالك عمارات وصاحب حسابات كبيرة في البنوك « اليوم » حيث الشهرة والثراء وكل زمان جميل الا « الآن » لان التحول الاشتراكي بدأ . شتان بين ماضيه وحاضره . « اشعر بخمود غريب » . « ماتت رغبتي في العمل » . « أضيق بالدنيا ، بالناس ، بالاسرة نفسها » . « لا أريد ان افكر او ان أشعر أو أن اتحرك ، كل شيء يموت ويتمزق » ـ ص ٨ ، ٩ ـ هذا التبرم بالحياة ، اضطراب الحواس تحسسنا به براعة الكاتب من الصفحة الاولى في الرواية ومن خلال لوحة زيتية رخيصة كل ما فيها أفق وطفل وبقر ، يرى الافق الذي ينطبق على الارض جدار السجن في هذه الدنيا ولا يدري من أي موقف يرصده ، يتساءل عن سر طمأنينة الابقار كأن لا راحة

بين البشر ، يجد في عيني الطفل ابتسامة غامضة فتلوح له صورة المرأة المتهمة بسرقة الاطفال . كل شيء قاتم . والمصير ؟ .. لا أحد يدري ما يخبىء الغد . ويأتي علاج الطبيب وقد عرف داءه الذى لا يتعدى البرجوازية فيحدد له الدواء « أعتدل في الطعام » . « اتبع نظاما مناسبا في الغداء » . « مارس نظام معيشتك الجديد وسوف تبدأ بعد ذلك متجددا » . « استمع الى نذير الطبيعة » . « عليك أن تنقص وزنك عشرين كيلو ولكن على مهل ودون عنف » . السمنة هي العلة ... التخمة هي المرض ، فاى دسم يقصده نجيب محفوظ ؟.. انقاص الوزن .. اتباع نظام المعيشة الجديد .. الاستماع الى نذر الطبيعة هو الحل . أي حل يقصده الكاتب الذي آمن بالثورة ويسعي لتطويرها بهذه الرمزية ؟ .. نعم العدالة ، الاشتراكية ، ما مرض (عمر الحمزاوي) الا القلق على مستقبل عمله ومصير أمواله في عصر بدأ فيه التحول الاشتراكي ، ترى ما غده لو أممت عماراته وصودرت أمواله ؟ .. انه بلا سلاح يجابه به الحياة . نصحه الطبيب ــ رمز العصر ــ بالمشي على أقدامه بدل الكاديلاك السوداء الفخمة ليعيش مع الناس . طلب منه الاستجابة لنداء الطبيعة وتغيير نظامه الاقتصادي لان المشاكل الخطيرة لا تحل بحبة بعد الاكل أو ملعقة قبل النوم فاذا به بعد ان يغادر العيادة يأكل شريحة من صدر الدجاج وفاكهة ويشرب كأسا واحدة من الويسكي ويتحدث مع صديقه مصطفى عن افطار « مستر تشرشل » الذي نوهت به احدى الصحف أثناء زيارته لقبرص . لقد ذهب الماضي وولت ايام السياسة والاضراب والمدينة الفاضلة ولم يبق غير المواد الدهنية وسوء السمعة . ويأتي كلام الطبيب حاسما « انت تبحث عن الحب المفقود » .

الماضي يلتصق به ، يعايشه بالوجه الغائب ، بعيني (عثمان) رفيق خليته الاشتراكية ايام زمان والشبح الذي يعيش في مخيلته رغم العشرين عاما التي ينتظر انتهاءها ليغادر السجن ، القوا قنبلة على خنزير من المولعين بمص الدماء ، لكن رصاصة طائشة في ساق السجين وهرب هو ومصطفى .

مصطفى المنياوي الوجه الآخر للماضى وثالث افراد الخلية وأول من يرتاح له بطلنا حيث ركن معه الى الصمت في سنوات الارهاب والعنف وزميله اليوم في البرجوازية باعتباره بائع اللب والفنان الكبير في الاذاعة والتلفزيون ، ومن لا زالت دماء الفن تجري في عروقه حيث جفت عنده هو فترك الشعر والحماسة . هذا الماضى الذي يلح عليه يزيد الازمة تجسيدا ، هل يقف ضد التحول الذي ناضل من أجله ؟ .. هل يقتنع به فيترك كل ثرائه ، ولو عاف مجده فكيف يعيش ؟ . المحاماة فن وما من قيمة الفن وقد أمسى الفنان الناجح هو من يبيع « فشارا » أكثر ؟ .

كلما يفكر يجد ان المستقبل وحده للعلماء فيبحث عن معادلة دون تحصيل علمي لان القانون مات قبل الفن وعهد الفن أنقضى لان الفن الممكن في زمن العلم هو التسلية والتهريج . اين اجد مستقبلي ؟ . نحن قوتنا

مستمدة من المال الذي يفقدشرعيته يوما بعد يوم ، « ولو تملكت الارض اليوم تستولي عليها الحكومة غدا ، ولكن ٠٠٠ السنا نعيش حياتنا ونحن نعلم ان الله سيأخذها » ٠

من هذا التناقض تنفجر أزمة البرجوازية ، ازمة الرمز (عمر الحمزاوي) عن ينبوع ضجر ٠ اننا ننتمي في الواقع الى عصر قديم بال ، والحيرة تحملنا احيانا على تجربة اي شيء ٠ رفع حاجبيه الكثيفين في دهش ، (بثينه) ابنته الشابة ، طالبة الهندسة تكتب الشعر !٠٠ انه يحبها ، يخاف عليها ، ترى ما الباعث الى هذا ؟ ٠٠ فيعزي نفسه بمداراة تراجيدية « لماذا نضطرب اذا كور الابناء سيرتنا ؟ » ٠

« ـ أنت متفوقة في العلوم ولكن كيف اتجهت نحو الشعر ؟

قرأت له بعض شعرها ، نظر في عينيها ثم سأل باسما :

ـ ولكن من هو ؟ ٠٠٠ « من المقصود بالترانيم » ٠٠٠ « لم يعرف السر مكانا بيننا » ٠

ـ لعله ٠٠٠ هو غاية كل شيء ٠

ـ اذن فانت تعشقين سر هذا الوجود ؟ » ـ ص ٤١ ، ٤٢ ـ

الاكتشاف الجديد زاد من لهيب صراعه المضطرم في ذاته ، لقد تجدد ماضيه في حاضر ابنته ، كان للفن قيمة ولم يسمع لغنائي أحد واليوم عصر العلم فمن يسمع نشيد ابنتي ؟ ، انها تفسد على نفسها الحياة ٠

ويأتيه صوت (عثمان) عبر ربع قرن مضى ٠

ـ أقذف بشعرك في المعركة تظفر بآلاف المستمعين ٠

هذه المرة ، ابنته تبعث الماضي الذى لم يستطع التحرر منه ، تبرز له وجه (عثمان) الذي يعذبه من الظلمات فتزيد تمزقه العنيف ، وتستجيب نفسه للهرب فيفكر في رحلة فضائية يركب فيها الضوء ٠ ويهتز باطلـه بموجة قاسية عندما تخبره زوجته بانها حبلى ، انه يشم في الجو الشيء الخطير ، يرعبه الاحساس الداخلي بأن بناء قائما سيتهدم ويهدمه فكيف يحمل مسؤولية جديدة ؟ يزداد تلهفه على مفتاح الهرب السحري وقال لنفسه انه بشيء من الشراب سيطرد الفتور ويمثل دور الحب ، لكنه لم ينجح ، يتضايق من شخيرهـا المتواصل « بعـد الحب القديم والعشرة الطويلـة والذكريات المليئة بالوفاء لم أعد أحبك ، لم تبق ذرة حب واحدة ٠ ليكن عرضا يزول بزوال المرض ولكني الآن لا احبك ، وهو اشقى ما ألاقي من مر التجارب ٠ وها انت تسمع شخيرها فلا تعطف ولا يبتسم القلب » ـ ص ٥٣ ـ ٠ عندما فشل في الشعر وضاع الجهاد وجد في حرارة حبها عزاءه واتخذها رمز الجنس والنجاح وعندما أثرى هدده تحسسول المجتمع « تمتلك الارض اليوم وتستولي عليها الحكومة غدا ٠٠٠ السنا نعيش حياتنا ونحن نعلم ان الله سيأخذها » ٠ الجماهير تبحث بجنون عن النشوة ، اذا

كان للاشتراكية نشوة لدى البعض فلتكن لي نشوتي الخاصة · اين اجد الحب المفقود ؟ · يتحتم علي ان أذوق كنه الحياة فأنا مريض ، لا المال يفيد ولا التفكير بالحسابات يجدي ولا العمارات تنفع ، الحياة زائلة فلا تذوقها قبل فوات الاوان ·

كلما رأيتـك كثيرا ازددت شهوة
وكلما ازدادت شهوتي زاد لهيبي

لعل من الخطوط الرشيقة على صفحة وجه مغنية « باريس الجديدة » ومن عينيها الملونتين وخفة حركتها تنبثق نشوته المستعصية ؟ ولم يظفر منها بغير لثمة خفيفة من خدها في طريق الهرم اعلان انهزامه امام القوانين الانثوية مؤملا بموعد الغد ·

والجسد الذي عشقه ، مفاجأة غير سارة ، سافرت خارج القطر ، لتبحث عن غيرها ، سباق مع الجنون وغايتك ان تنطق غصون الشـجر مؤمنا بان الدواء في الجنس والعربدة وترك العالم خلفه وتحل ورده مكان مرجريت · عينان واسعتان رماديتان ، بشرة صافية ، خصلة ياسمين تنشر شذاها مرشوقة في أسورتها وهو حضر لا لأنه يحب بل ليحبها ، ليشيد معها دنياه الخاصة ، الخد على الخد ينظران الى القمر الناعس ، انفق بلا حساب كأنه يتخلص من ورمه المالي الاليم ، وهذا الاسراف مفروض عليـه « غدا تستولي الحكومة عليها » فلأعبث وليبحد العالم من حولي ، مغامرات سائمة يضج منها الليل ، يركض لاهثا وراء نداء غامض مخلفا وراءه المدينة الفاضلة ·· الشعر ·· مسرات للاسرة ، حفنات من تراب ، رجل قديم انسلخ من جلده وعبر كل ليلة عند اختلاط الخيط الابيض بالظلمة يجد زوجتـه ترنو اليه بعينيها الخضراوين الكسيرتين ملؤهما حزن وأمل فلا يمنحها غير « نامي ملء جفنيك ·· الحب يهزأ بالمخاوف » · ولكن الى متى ؟ ينكر على ابنته أن هناك امرأة ، أول كذبة في حياته على صعيد الاسرة التي لم تعرف سرا بين أفرادها ، ثم يهجر بيته ليقيم مع ورده في العش الشرقي المؤثث فيجدد معها مغامرات الهوى وتظهر (مرجريت) من جديد « كلما رأيتـك ازددت شهوة » فاستفحل مللـه المتردد فيزهد بورده ، و (مرجريت) سـراب لا يبلغه ··· يستبد به ضجر واع مدمر فيطلق صرخته الجديدة « نشـوة الحب لا تدوم ونشوة الجنس أقصر من أن يكون لها أثر » ·· الاستقرار مات ولا سبيل الى بعثه لأن كبرياءه يمنعه من العودة الى بيته ·· لابد من شيء · الشيء أو الجنون أو الموت ولكن ما هو الشيء ؟ انه لايدرى · لقد كره النساء · ضياع تام وعند اليأس تنطلق القوى المدمرة · انه يبحث عن وجوده من زمان فلم يجده في كل تجاربه ، الطبيب هو الانسان الوحيد الذي صادفه ولا وقت عنده ليفكر في سبب وجوده ، القوادون واسراب من ساقطات الليل كلهم لا يعرفون الجواب الشافي · لا الشعر ولا المدينـة الفاضلة

ولا الخمر ولا الحب ولا اي شيء وجد فيه معنى وجوده فاي نداء يلبيه ليبلغ نشوته • لقد شمل الغثيان كل كيانه • انه يعدو وراء المجهول دون مبتغى فاذا به بلا عمل غير الخروج وحده بعد منتصف الليل في طريق صحراوي مقفر ليجلس في ظلمة غريبة كثيفة بلا ضوء انساني واحد • انه لم ير مثل هذا المنظر من قبل ، منظر بلا أرض بلا بشر ، بلا فراغ • كان يفكر عن سبب ألمه ولا ألم بلا سبب • كان ينظر نحو الافق (واطال وامعن النظر وثمة تغير جذب البصر • رق الظلام • وانبثقت شفافيه • وتكون خط في بطء شديد ومضى ينضج بلون وضيء عجيب •• ثم توكد فانبعثت دفقات من البهجة والضياء النعسان وفجأة رقص القلب بفرحة ثملة •• ملأته ثقة لا عهد له بها ووعدته بتحقيق اي شيء يريد » ص ١٣٢-١٣٤ • ماذا يعني هذا • وكيف وصل الى هذه النشوة ؟ حياته المظلمة كمنظره القاتم الذي هواه كنفسه ، ثم انبعاث الفجر ••• لاول مرة يرى الفجر عن عمق وتفرغ فوجد النشوة لا تحتاج الى طول بحث ، لقد وجدها هنا صدفة ، النور اجتاح المكان المعتم ورأى الافق يضحك ، أحس بالراحـة تلف جوانحه ، اليقين لا يحتاج الى منطق • لقد زهد بالحياة • ويتصل به صديقه مصطفى ليخبره بان زينب في مستشفى الولادة • مرت لحظات لايفقه المعنى ثم تذكر انه زوج واب ويلتقي بابنته في المستشفى ليجد نفسه لم يكن في يوم أقرب اليها من اليوم ، ليكتشف انه يحوم معها حول منبع واحد « رجعت الى الشعر أقرأه واحاوله » ويشعر أن زوجته قادرة على الخلق في حين يعجز هو ، ويأتيه طفل • « لو لم تكن عاجزا عن التعبير كأبيك لسألتك عن مشاعرك وعن ذكرياتك عن العالم الذي منه جئت لتوك » - ص ١٤٢ - اي لا زال أحساسه بالضياع يتردد في نفسه ، الضجر يغلفه فيحن الى الفجر في الصحراء • ويعود الى بيته بشرط ان لا يضيقوا به ، انقطع عن المغامرات الخائبة ووهبته اسرته وطفله الجديد مسرات لا تذكر ، اعتكف في حجرته طوال الليـــل يقرأ ويتأمل حتى يجيء الفجر فيمضي الى الشرفة ينظر نحو الافق وهمس يتردد في أذنيه « انك ضيف غريب موشك على الرحيل » • في هذا الجو النسبي الطمأنينة تنفجر القنبلة (عثمان) يخرج من السجن ليبدد هدوءه الطارىء ، لقد حلت لحظة اللقاء التي عمل لها الـــف حساب ، لو كانت الرصاصة بساقه لكان اليوم هو المحتفى به ، حلت المفاجأة على غير توقع • كلمات الترحيب والتهنئة لا تتوقف على لسان بطلنا و (عثمان) يبتسـم بصمت ، انه يريد ان يسمع طوال الاعوام التي كان يومها بسنه ، فاذا به غير آسف على مافات « اخترت مصيري بوعي كامل » ، انه لا يتزحزح عن موقفه ، لا يدري بأن كتب الغيب حلت مكان الاشتراكية في مكتبتي ، ويفهم (عثمان) بعض تطورات صاحبه « من الحق التعلق بماض مسلول ما دام المستقبل ينهض راسخا بصورة اقوى ملايين المرات من جبن الجبناء » ، « المؤسف ان المرضى لا يفكرون الا في المرض » • لا تنفع كل تبريرات الانهزام

وبعد جدال يقول له « لا أفهم سوى انك لم تعد انت » . نفس كلمات زوجته ووردة ، الكل يتهمه بالتغير نحو الاسوأ ، حتى (مصطفى) ،فيشمله الضيق والتبرم وعند وليمة العشاء سرعان ما ينسجم (عثمان) الرجل العلمي مع (بثينة) ذات الحس المرهف في لقائهما الاول ، تعبير عن سرعة تمازج العلم بالفن فيتهدم كل بناء (عمر) و (مصطفى) في هذا الموضوع ويقف الفن شامخا صديقا للعلم . (عثمان) رجل يؤمن بالحقيقة لانها الوحيدة التي لا تتغير والانسان اما ان يكون كل الانسانية واما ان يكون لا شيء لان دولة الملايين لم تقم بعد .

لقد طالعنا طبيب رمزي في بداية الرواية وهنا يظهر (عثمان) طبيبا آخر في نهايتها فيحدثنا عن أزمة عمر « أنت تتطلع الى نشوة ، ربما ما يسمى بالحقيقة المطلقة ، ولكنك لاتملك وسيلة ناجعة للبحث فتلوذ بالقلب كصخرة نجاة اخيرة ولكنه مجرد صخرة ، وسوف تتقهقر بك الى ما وراء التاريخ وبذلك يضيع عمرك هدرا ، حتى عمري الذي ضاع وراء الاسوار لم يضع هدرا ، ولكن عمرك انت سيضيع هدرا ، ولن تبلغ أية حقيقة جديرة بهذا الاسم الا بالعقل والعلم والعمل » - ص ١٦٢ - تجارب الفشل مريرة ، لقد فشل في الصمود مناضلا من اجل المدينة الفاضلة ، فشل في الشعر واستعصى عليه العلم ، فشل في ايجاد ضالته داخل الاسرة ، فشل في ايجاد معنى وجوده وطرد سامه بالخمر والنساء والليالي الحمراء والشقة المؤثثة ، ها هو يفشل في الحفاظ على صديقه فيستسلم لجنون السرعة ويندفع بسيارته بلا هدف الى الاسكندرية .. طنطا .. اطراف القاهرة .. الفيوم ، لا شيء .. لا شيء غير الفراغ .. يشيع جنازة لا يعرف احدا فيها وبعد انتهاء الموكب لم يبق غير اللاشيء .. يدخل دكانا يسكر فلا يستسلم لغير النوم . عاد اليه (عثمان) فجأة يضرم فيه شتى الانفعالات ، يقحم نفسه طبيبا آخر عليه يبدد فرحته بالفجر ، لقد صمم ان لا يستشير أحد فيما يجهله وعليه وحده أن يعرف « نشوة الفجر شيء ام لا شيء ؟ وهل تكمن حقيقة كل شيء في اللاشيء ؟ » .

هجر البيت ثانية بعد ان لعن الهدنة التي ارجعته اليه ثم هجر الدنيا الى منفى لا يعرفه احد . لقد يأس من المستقبل فلم يبق غير الاعتزال ، هناك يفكر بمعنى الحياة ووجوده لا ينغص تأملاته بشر فماذا منحته العزلة ؟. شريط سينمائي للماضي تعرضه مخيلته ، (بثينة) تحدثه عن (عثمان) فيجيبها (ألم تفطني يا بنيتي بعد الى انني اصم) ثم يتساءل عن معنى هذا الحلم . لقد قطع كل صلته بالماضي الذي يلح عليه ، يريد ان ينس كل شيء ويبحث عن المجهول ، يرى (مصطفى) وقد نبت الشعر الاسود غزيرا مكان صلعته ليخبره ان (زينب) تعمل بقوة عشرة رجال ثم يتسلق شجرة سرو أعلى من البدر ويهز جرسا بيده فترقص حوله الشجر والحشرات والقمر فيتساءل عن معنى الحلم ، تعبير عن حبه لمصطفى واحتقاره للفن الذي أصبح

أستعراض حشرات • ثم يرى (عثمان) يعبر سطح الترعة بدراجة مزركشة يصرخ اننا في عصر المعجزات وليخبره ان اسرته ظهر لها فروع في القارات الخمس فيرد عليه بان اسرتنا الحقيقية هي اللاشيء فيطارده بفرقة من الكلاب المدربة ، ويتساءل عن معنى هذا الحلم • (عثمان) رجل لا يقنع الا بالحقيقة والشمول والثورة ، يدعوه للمشاركة في البناء والا لا حياة للسلبين في دولته • يعرض له نجم متالق أفلاما شتى تصور تطور الانسان منذ قبل التاريخ حيث يترنح الانسان بدمائه في معاركه مع الوحوش وهو يبتسم فلا يقنع لان هذا ليس هو ما تتوق له نفسه • ويعرض له النجم المتالق عصر الجماعات والغزو والمعارك فينهزم أهل الغابة امام الجبليين ، لكن هذا ليس هو ما يود رؤيته فيعرض له جموعا تحرث الارض وتزرعها وقوافل تحمل البضائع ــ عصر الاقطاع وبداية الرأسمالية التجارية ــ وطائفة تمتطي الخيول المدججة بالسلاح لحماية تلك القافلة فلا يقنع ، يريه الجبهة المفكرة التي ينكب صاحبها على الاوراق يخط ارقاما لا نهاية لها فتعوف نفسه المنظر ويتساءل عن معنى الحلم ، يغمره شعور بالسعادة ، يتذكر احساسه الذي سبق رؤية الفجر بالصحراء • اما التطور البشري منذ العصر الحجري الى زمن العلم تعبير عن الرحلة الطويلة لعمر الانسانية كلها حيث وجدت اللذة بالعلم • وتجارب الدماء رغبته في القتل التي انتابته اثناء مسيرة الفشل • ثم ينعدم الزمن ، ابنه الطفل يتخذ من رأس عثمان رأسا وكذا الاخير يتخذ من رأس ابنه رأسا له يعدوان وراءه ، يحد من سرعته ، يقفز من فوق السور حتى يهوى على الارض فيتساءل عن معنى الحلم • عثمان الاشتراكي بماضيه يعيش في عصر التحول دون ان يقتنع به وابنه سمير ليس زمن التحول بل يمثل دنيا الاشتراكية لان الجماهير تبحث بجنون عن نشوتها فرأس (عثمان) هو الماضي وجسم (سمير) هو الحاضر اتحدا سوية وطارداه هو البرجوازي الكبير لانه لا يستحق ان يعيش في دنيا لا يحياها الا من يعمل بشرف ، أما هواة الكسل فلهم الموت ولا مكان للا أنتماء في بلد الانسانية جمعاء • ثم يسمع الصفصافة تترنم بالشعر وتقترب منه بقرة لتخبره انها سوف تتوقف عن در اللبن لتتعلم الكيمياء ، وتبرز افعى انيابها السامة لترقص والثعلب حارسا للدجاج والعقوب في لباس ممرضة • ماذا يعني هذا الحلم • انه سيطرة الانسان على الطبيعة وتسخيرها لمصلحته • هكذا الدنيا يتصورها في تطورها وهو عاجز لانه ليس عالما ويبحث عن معادلة دون تاهيل علمي ففشل •

رجل وحيد لا عمل له غير التفكير فتختلط احلام اليقظة بالمنام اختلاط ماضيه بحاضره • هجر الدنيا معتزلا في مكان ناء بعد ان سحقه التقدم لانه نسي المشى على الاقدام وضاع في الطرق المسدودة ، مع ذلك يبحث عن معنى وجوده ، يبغي الوصول الى الحقيقة وادراك مغزى الحياة ، فهل وصل الخلاص في هروبه هذا ؟ ••

احلام واحلام واستلام خدر سكران وهو في عزلته لا يقترب من التصوف الا طمأنينته ، فالمتصوفون يبغون الوصول الى حالة (النرفانا) اي السعي للوصول الى درجة السكر الروحي الذي تتحدبه النفس البشرية بالقوةالالهيه وبطلنا لا زال يبحث عن الايمان « الوجود ٠٠ الحقيقة ٠٠ معنى الحياة » وعشقه للفجر الصحراوي اشاع فيه الامل في الخلاص من ظلمة نفسه وعفونتها ٠ انه ضاع بلا هدف واضح يذوب نفسه فيه فكيف نعطيه صفة نوع التصوف ؟ ٠

ويأتيه (عثمان) ولكن هذه المرة ليس حلما ، لقد وقع المحذور وقاوم السلطة وانه مطارد وموقفه خطير يؤدي الى الهلاك فلا يصغي له ، يهزه : ابنتك بثينة « رغم فارق السن تزوجنا ، هو الحب كما تعلم ، وفي بطنها الان ينبض جنين هو ابني وحفيدك » ـ ص ١٨٥ ـ فلا يهتز للخبر العجيب ، يتوسل به ان يعود لاسرته لانها بحاجة اليه ، (بثينة) تنتظر وليدا وما من سميع فيصرخ به :

ـ الا تريد ان تفهم ؟ ٠٠

ـ أموت كل يوم عشرات المرات كي افهم ولكني لا أفهم ٠

فهز (عثمان) رأسه في أسف وقال : « يالك من أحمق ، بددت مجدك في البحث عن شيء غير محدود » ، ويحاصر البوليس المكان ، يقبض على عثمان ، يصاب عمر برصاصة في ساقه ، السيارة تنطلق به وهو لايدري ان ما حدث حلم أو واقع ٠

يتأوه : ـ انت بخير ٠

فقلت بتحد : ـ انى بخير ما أنتصرت عليكم ٠

ـ أهدأ سيراك الطبيب فورا ٠

ـ لا حاجة بي الى انسان ٠٠٠ ـ ص ١٩١ ـ ٠

الم يهجر الدنيا من اجل الانسان وتردد الشعر في وعيه بوضوح عجيب ، تغمره السعادة ، لقد عاد الى وعيه فيتساءل مخاطبا شعره « ان تكن تريدني حقا فلم هجرتني » أتصل بطلنا بالحياة بعد طول آللا انتماء اتصال « عيسى » في « السمان والخريف » بها بعد طول لا انتمائه ٠ فبرجوازينا أصبح مستقبله مجهولا غامضا بعد بدأ التحول الاشتراكي والثاني (أحد رجالات الاحزاب الملكية) غدا مستقبله مبهما بعد ان قامت ثورة يوليو ،كل منهما تخبط في دروب العبث من جنس وضياع ـ نفس دروب صابر برواية (الطريق) ـ في بحثهما عن خلاص ابدى ٠ ان ازمة البطلين واحدة وان اختلف المضمون ذلك لان لعصر واحد وشخصيات ما بعد الثلاثية واحدة ، كل منهم يتكلم بفلسفة محفوظ لان محفوظ اليوم فيلسوف تحول الى روائي فنجد ابطاله يتكلمون لغة الواقع ويعبرون بتصرفاتهم عن فلسفة المؤلف

كما يفعل كبار الكتاب الذين يعبرون عن مشاكل الازل في مناقشة الميتافيزيين رالازل والموت والوجود وكل ما اقلق الانسان منذ عصره الحجري حتى اليوم و (عمر الحمزاوي) بطل واع في كل تصرفاته التي لا تحتاج الى ناقد لانه هو الذي يقوم بمهمة الشرح والتفسير فيقول عن بحثه الدائب عن معنى وجوده « هذا السؤال لا يلح علينا الا حينما يفرغ قلبنا » فهو يدرك سر أزمته ، انه كمخلوقات سارتر وكامو وبوفوار فمارسو غريب كامو يحس برتابة الحياة ، يدرك ان لا معنى لحياته على الاطلاق ويندفع لقتل العـربي وهو يعلم جيدا ان لامبرر لفعله هذا وعندما يجد نفسه وجها لوجه ازاء الموت تزداد حدة شعوره بعبث الحياة وكذا ماتيو في (دروب الحرية) يعي كـل تصرفاته العبثية بصفته موجودا حرا تفيض تجربته بالعمق والواقعية والثراء كسعيد مهران وعيسى صابر وعمر ونجيب محفوظ يربط الخاص بالعام فتكون تجربة بطله هي تجربة الانسان في هذا العصر مما يكسب رواياته الشمول والحيوية ٠

ان بطلنا البرجوازي الكبير شحذ الحل عبر رحلته الطويلة بعد ان احس بضعفه امام الزخم الجماهيري الذي يطالب بالاشتراكية في عصـر التحول فلم تجن يديه شيئا ٠

شحذ العلم بدون تاصيل علمي لذلك فما نال منه ذرة ٠

شحذ الحب والنشوة وسط نسرقه فاذا بلذة الحب لا تدوم ولذة الجنس اقصر ٠

شحذ الراحة في عزلته فاخترقت ساقه رصاصة من البشر الذيـن هرب منهم ٠

اخيرا وجد بطلنا ان في اتصاله بالحياة خلاصه الابدي بعد ان انقلب العصر عليه ٠



ضوء على ترجمات القرآن الكريم

عبد الحميد العلوجي

من المشاكل الخطيرة التي جابهت القرآن الكريم في حياته العريضة أن يترجم الى اللغات الأجنبية ، فاذا صح ما روي من أن بعض آي القرآن قرئ بالفارسية في بخارى وسمرقند بحجة تقريب معانيه الى افهام الأعاجم ، وذلك في صدر الاسلام فانه ضاق بذلك - ابان القرن السادس الهجري - حين صرح جارالله الزمخشري في كشافه : « ان في كلام العرب ، خصوصا القرآن ، من لطائف المعاني ما لا يستقل بأدائه لسان » .

وفي الربع الأول من القرن العشرين جوز الاستاذ محمد فريد وجدي ترجمة معاني القرآن ، وقد اندلعت - بسبب ذلك - خصومة عنيفة بينه وبين الشيخ محمد رشيد رضا صاحب المنار .. اذ لم يكد المرحوم وجدي ينشر « الأدلة العلمية على جواز ترجمة معاني القرآن » حتى انبرى له الشيخ رضا ناشرا رأيه المعاكس في ذلك(٢) .

ومنذ سنة ١٩٣٦ فكرت مصر في تعريف الاجانب على القرآن من طريق الترجمة ، واتخذت الأهبة لذلك ، ففي السابع من نيسان تلك السنة أفتت جماعة « كبار العلماء » بما سمي بترجمة معاني القرآن ، وفي الاسبوع الثاني وافق مجلس النواب المصري على مشروع تلك الترجمة ، وفي تشرين الثاني ١٩٣٦ قرر الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الجامع الأزهر يومذاك تأليف لجنة لوضع التفسير الذي سيضيء الطريق أمام معاني القرآن عند هجرتها الى اللغات الأجنبية ، وقد خططت اللجنة العمل وبدأته فعلا .. ثم ثار خلاف على ذلك حين أصدر الشيخ محمد سليمان عنارة ، نائب المحكمة الشرعية العليا في القاهرة ، كتابه : « حدث الاحداث في الاسلام ، الاقدام على ترجمة القرآن » ، فرقد المشروع ، حتى يوم الناس هذا ..

ويبدو أن دعوة « الزمخشري » لاتخلو من اصالة. فهذا «جان سافاجيه» J. Sauvaget يؤكد أن ليس للقرآن ترجمة مرضية في أية لغة أوربية(٣)، وكذا كب H.A.R. Gibb الذي يرى ان من المستحيل أن يترجم القرآن

بأمانة[٤] ، ومثله آربري A.J. Arberry الذي سلم في تواضع بتلك الفكرة الاسلامية القائلة بأن القرآن غير قابل للترجمة ٠

ومهما يكن من شيء فان أوربا لم تقدم على ترجمة القرآن الكريم الا بعد أن شعرت بخطر الاسلام على مفاهيمها المغلوطة ، وحسبت متوهمة انها ستعثر من وراء ترجمته على مطاعن تصلح ان تكون سلاحا في يدها لتقويض معالم الاسلام التي رسخت في بعض ربوعها ، وكان هذا من أوائل الاغراض التي شجعت على اخراج فكرة الترجمة الى حيز انتشر والاخراج ٠٠ ولما كانت اللاتينية هي اللغة المألوفة في أروقة الأديرة والكنائس والرهبانيات ، آنئذ ، فمن غير المتوقع أن لا يستقيم القرآن حرفا لاتينيا تتراشق به الألسنة في معرض الجدل والمساجلة ٠

وهنـــاك من أعماق دير كلوني Clugny بزغت الدعوة الاولى لترجمة القرآن ٠٠ فقد حضر (بيدرو) الناسك رئيس ذلك الدير الى اسبانيا عام ١١٤٢م ، وكلف هرمان الالماني Herman de Carintia وبيدرو اليهودي الطليطلي Pedro de Toledo وروبرت الشوستري الانكليزي Robert of Chester بترجمة القرآن ليدحض بها جميع المعتقدات القرآنيـة ، وقد تمت الترجمة سنة ١١٤٣م[٥] ٠٠ ولكنها ظلت مخطوطة حتى سنة ١٥٤٣م حيث قام بنشرها العالم اللاهوتي الزوريخي تيودور بيبليانـدر Theodor Bibliander في مدينة بازل ٠ وكانت هذه الترجمة ، في رأي بعض النقاد ، أمينة لا اقحام فيها ، وعليها قامت الدراسات القرآنية في الغرب ، كما كانت الينبوع الذي استقت منه الترجمات الايطالية والالمانية ٠

وقبيل ذلك (أي في سنة ١٥٠٩) نشـــرت للقرآن ترجمة لاتينية اخرى ٠٠ ولكن السلطات البابوية حرمت على القاريء الاوربي أن يقتنيها ، ومنعت تداولها بين الناس لأنها كانت عاطلة عن الردود المناسبة !!٠٠ وفي سنة ١٦٢٤ نقل القرآن الى اللاتينية من قبل الاستاذ الهولندي توماس اربينيوس Thomas Erpenius غـــير أنه لم يكمله ، فقد حالت وفاته دون اتمامه ٠٠ ولكن الراهب الهولنـــدي الأب بطرس غوليوس سلستينوس استطاع أن يتبجح بأوفى ترجمة لاتينية للقرآن بعد أن استهلكت جهـــده وطاقته ٠ وقد رأت اللغة اللاتينية ـ بعدئذ ـ ترجمة العلامة الايطالي ماراتشي Ludovico Marrecio (أو Marracci غالبـاً) التي أصدرها بعنوان Alcorani testus Universus في قسمين يحتضنهما مجلد واحد مع النص العربي[٦] ، وكـــذلك ترجمـــة ابراهـــام هنكلمان A. Hinckelmann التي صدرت في همبورغ سنة ١٦٩٤ بعنوان Al-Coranus .

ومن ثمة نزعت الحركة الاستشراقية الى تحرير الترجمة القرآنية من ربقة الكنيسة ، والى اضفاء الطابع العلمي عليها ، فكان نصيب اللغة الايطالية

من القرآن الكريم ما ترجمه الاساتذة : اندريا اريفابين A. Arrivabene سنة ١٥٤٧(٧) ، وكالزو Calzo سنة ١٨٤٧ (معتمدا على ترجمة كزيمرسكي M. Kasimirski الفرنسية المطبوعة في باريس سنة ١٨٤٠) ، وبانزيري Banzeri عام ١٨٨٢ (وقد صدرت لترجمته طبعتان في سنتي ١٩١٢ و١٩١٣ وكلتاهما عيال على ترجمة ساقاري M. Savary الفرنسية المطبوعة في باريس عام ١٨٢٩) ، وفيولانتي Violante عام ١٩١٢ (وقد طبعت ترجمتـه في روما) ، وبرانشي Branchi عام ١٩١٣ (نقلا عن ترجمة كزيمرسكي) ، وفاراشوسي Faracossi عام ١٩١٤ ، وفروجو Frojo عام ١٩٢٨ (وقد نشر ترجمته في مدينة باري Bari) وبونيلي Boneli عام ١٩٢٩ (وصدرت ترجمته في مدينة ميلانو) .

وكان حظ اللغـة الالمانيـة من القرآن ما ترجمه الاساتذة : شفايكر Schweigger عام ١٦١٦ (وقد طبعت ترجمته في نورنبرغ Norenburg في باڤاريا ، ثم توالى طبعها في السنوات ١٦٢٣ و١٦٥٩ و١٦٦٤ بعنوان : القرآن المحمدي) ، ولانگه Lange عام ١٦٨٨ (نشرها في همبورغ ، وترجمته سقيمة لانه نقلها عن ترجمة غلاسياكو الهولندية المنقولة بدورها عن ترجمة دي رير Du Ryer الفرنسية) وداڤيدناريتر David Narreter عام ١٧٠٣ (وقد صدرت في نورمبرغ) ، وآرنولد Arnold عام ١٧٤٦ ، وميغرلين Megrlin عام ١٧٧٢ (صدرت في فرنكفورت)، وبويسين Boysen عام١٧٧٣ (وصدرت ترجمته في مدينة هاله Halle ، وهي أول ترجمة المانية عن النص العربي ، وقد نقحها وطبعها ڤال Wahl عام ١٨٢٨ بعنوان : Der Koran) واولمان L. Ullmann عام ١٨٤٠ (صدرت في مدينة كريفيلد Crefeld بعنوان der Koran ، ثم طبعت ثماني مرات آخرها عام ١٨٩٦ ، وفي سنة ١٩٦٢ أعاد طبعها من جديـد وقـدم لها الاستاذ فـون ليـو فنتر Leo W. Winter بعنـوان :

Der Koran Das heilige Buch des Islam

في مدينـة منشن München فجـاءت في (٥٠٦) صفحات ، وهـي ترجمة بتراء ، ضحلة ، عول فيها صاحبها كثيرا على ترجمة سيل G. Sale الانكليزية) ، وكلامروث M. Klamroth عام ١٨٩٠ (وهي ترجمة خاصـة بخمسين سورة ، طبعت في همبورغ ، وجدد طبعها عام ١٩١٠ ، وتعد هذه الترجمة محاولة ناجحة في محاكاة الجرس الموسيقي النابض في القرآن ، وقد صدرت بعنوان Die fünfzig ältesten Suren des Korans in gereimter deuscher übersetzung) ، وهيننـــك Henning عام ١٩٠١ ، وكريگول Grigull في نفس العام (وقد طبعت ترجمة هيننك

في ليبزك ، وترجمة كريكول في هاله ٠٠ وكلا المترجمين قد اعتمد كلياً على ترجمة جورج سيل الانكليزية ، ولهذا جاءت ترجمتاهما كسيحتين ، فهما لم يقيما وزناً للصعوبات التي واجهتهما أثناء الترجمة ، وانما اندفعا هاويين مغامرين) ، وكولدشمدت Goldschmidt (وقد أصدر ترجمته في برلين ـ ١٩١٦م ـ ، ثم أعاد طبعها عام ١٩٢٣) وكريمه H. Grimme عام ١٩٢٣ ٠٠ ولكن أنفع هذه الترجمات الالمانيـــة ٠ هي التي نهض بأعبـــائها فليشر H. L. Fleischer .

ولعلي أحاول أن أقـــدم عرضاً موجزاً للترجمات الاوربية الاخرى في وقت قريب ٠٠



(١) الطبري : تاريخ الامم والملوك (ليدن ١٨٨٥ ـ ١٨٩٣) ٢ : ١٥٠٧

(٢) راجع بحث وجدي في مجلة نور الاسلام الازهرية (العدد ٢ ، ١٩٢٦) ص ١٢٢ ـ ١٣٢ و (العدد ٧) ص ٧٧ ـ ١١٢ و ١٢٣ ـ ١٣٤ ٠

(٣) رائد التراث العربي ، ترجمة الدكتور صلاح الدين المنجد (بيروت ١٩٤٧) ص٨٤ ٠

(٤) الاتجاهات الحديثة في الاسلام ، ترجمه عن الفرنسية كامل سليمان (بيروت ١٩٥٤) ص ٢٩ ـ ٣٢ ٠

(٥) قصة الحضارة ٦/٤ ص ١٨ ، ومقالة المستشرق الاسـباني منـنـدث بيـدال Menendez Pidal التي عنوانها :

Espana y la introducción de la Ciencia en Occidente

المنشورة في القسم الاوربي من (مجلة المعهد المصري للدراسات الاسلامية في مدريد) المجلد الثالث ، العدد الاول ، ١٩٥٥ ، ص ١٩ ٠

(٦) طبعت هذه الترجمة في مدينة بادوا Padoua عام ١٦٩٨ ٠

(٧) طبعت بعنوان : L'Alcorano di Macometto

العقلية الموسوعية لدى العلماء المسلمين

سليم طه التكريتي

ثمة ظاهرة مميزة ينفرد بها العلماء العرب والمسلمون والتي يندر وجود مثيل لها في تاريخ الفكر الانساني كله ، هي ظاهرة تعدد نواحي المعرفة والتفكير التي طرقها علماء العرب والمسلمين وبراعتهم فيها وتفوق الواحد منهم في أكثر من ميدان واحد من ميادين الفكر تفوقا بارزا دللت عليه ما حفلت به آثار اولئك العلماء من علوم ومعارف .

وقد لا يكون من باب التعصب أو المغالاة اذ نقول ان العقلية الموسوعية كانت وقفا على العرب المسلمين وان من سبقوهم من عباقرة الاغريق والرومان، ومن جاءوا بعدهم من اساتذة الحضارة العالمية الراهنة لم يبلغوا شاو العلماء العرب والمسلمين في هذا المضمار وفي وفرة ما صنفوه من مؤلفات وما ابتدعوه من نظريات .

وانه ليصعب على المرء ان يجد في عصر النهضة العربية الاسلامية الكبرى التي ابتدأت بعهد الخليفة ابي جعفر المنصور وبلغت ذروتها في عهد المأمون بن هرون الرشيد العظيم ، أجل يصعب على المرء أن يجد بين العرب والمسلمين في ذلك العصر عالما او مفكرا قد اقتصر نتاجه الفكري على ضرب واحد من العلوم .

وحتى في العصر الحالي الذي هيأ من الوسائل والبواعث لتسهيل مهمة البحث والابداع والتاليف نرى أن غالبية اعلام الحضارة الغربية قد انقطعوا لبحث واحد تقريبا من الابحاث العلمية الشائعة . فقد أقصر ، كانت ونيتشه ولوك وبرغسون وغيرهم مثلا نشاطهم الفكري على الفلسفة وحدها . وعكف روسو ودوركهايم وفيكو ومن سواهم على البحث في علم الاجتماع . وفي حين اشتهر كوبرنيك وغاليلو وكبلر وجينز في التخصص بعلم الفلك مع العديد من اضرابهم ، نبغ نيوتن في بحث الجاذبية ، واينشتاين في نظرية النسبية ، ولوذرمير في الذرة .

أما العلماء العرب والمسلمون فقد كان الواحد منهم يخوض أكثر من موضوع فرد ويوفيها جميعها حقها من البحث والاجادة . فما كان العالم العربي ليكتفي بعلم واحد يستوعبه ويشتهر فيه او ليقتنع بجانب واحد من جوانب المعرفة يغوص في اعماقه ويستخرج درره ، وانما كان يعالج علوما

متعددة ومتناقضة معا فيبرز فيها في آن واحد ويأتي فيهـــا بالجديد من النظريات والمستحدث من الافكار ، ويضع في ذلك المؤلفات الضخمة العديدة التي تكون وحدها في حد ذاتها مدعاة دهشة واستغراب • فبينا ترى الواحد منهم قد غاص في اعماق الفلسفة واتى فيها بالمعجزات من الاراء ، تجده وقد انتقل الى الطب والفلك والميكانيك (علم الحيل) ناهيك عن المنطق وأصول الفقه والادب والتاريخ بل انه ليكتب حتى في الموسيقى ويزاول القريض ويجود فيه • وهذه الظاهرة تؤكد مقدار ما كان الذهن العربي الاسلامي يهضمه من علوم العصر التي كان يدرسها ، وتبرز مدى اتســـاع افق التفكير لدى العلماء العرب والمسلمين والمامهم بمختلف العلوم والفنون حتى تلك التي لم تعرفها الامم التى سبقتهم •

* * *

ولنأخذ على ذلك مثلا الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد وابن طفيل وابن باجه وغيرهم ممن يعتبرون من اقطاب الفلسفة الاسلامية ،فنرى ان شهرة هؤلاء المفكرين لم تقتصر على الفلسفة وحدها ــ كما هو شائع عنهم ــ وانما تعدتها الى علوم اخرى اصابوا فيها من الصيت والذكر مقدار ما أصابوه في ميدان الفلسفة •

فالى جانب تمرسه في الفلسفة كـــان الكندي (١٨٥ـ٢٥٢هـ = ٨٠١ـ٨٦٧م) من فطاحل علماء الفلك والطب ، ونحن حين نمحص مؤلفات هذا العبقري العربي الفذ التي ربت على الثلثمائة مؤلف بين كبير وصغير ، نرى ان آثار هذا العالم قد ضمت جميع الموضوعات العلمية الخطيرة فـــي زمانه • فما خلا الفلسفة التي برز فيها الكندي ووضع فيها اكثر من سبعين كتابا ورسالة نراه يشتهر في علم الطب ويضع فيه أكثر من أربعين مؤلفا تتناول كل فنون الطب والعلاج والادوية • وكذلك اشتهر الكندي فـــي الرياضيات ايضا فوضع فيها أكثر من خمسة وثلاثين كتابا • اما علم الفلك فلم يكن شأنه فيه ضئيلا اذ وضع في هذا العلم حوالي سبعين كتابا ورسالة ناهيك عن علم الطبيعة الذي كتب فيه أكثر من ثلاثين كتابا والميكانيـــك والموسيقى فضلا عن علوم المنطق والشريعة والفقه •

ومن الحقائق الثابتة ان الكندي أول من قال بكروية الارض بـــين العلماء المسلمين وهو أول من كتب عن الطب الروحاني ، وعالج المرضى بالموسيقى وشفاهم من أمراضهم ، كما انه كـــان أول من وضع الايقاعات الموسيقية قبل ان تعرف أوربا ذلك بقرون عديدة •

وكان الكندي على رأس القائلين بأن لمزاجات الروائح والعطور آثـــارا نفسية ظاهرة ، وهو أول من شنع بالمشتغلين في الكيمياء بقصد تحويل المعادن الخسيسة الى أخرى ثمينة • وهاجم المشعوذين من المنجمين الذين كانوا يدعون بان الكواكب تؤثر في مصائر الناس • كما انه كان أول من

طبق الرياضيات على العلوم الاخرى ·

وأخيرا كان الكندي من حذاق الترجمة في الاسلام لانه كان يجيد العربية والسريانية ، وقد أشتغل بتنقيح الكتب المترجمة وتهذيبها · وهكذا كان الكندي بتآليفه العديدة ، وتفوقه في عدد من العلوم ، يمثل دائرة معارف ضخمة قائمة بذاتها ·

وهذا الرئيس ابن سينا (٣٧١ ـ ٤٢٨هـ = ٩٨٠ ـ ١٠٣٧م) نجد ان شهرته في دنيا الطب وعلم النفس تضارع صيته في نطاق الفلسفة · فقد كان ابن سينا فيلسوفا وطبيبا وصيدلانيا وعالما من علماء النفس والمنطق ونكاد لانجد متسعا للمفاضلة بين اشتهاره بالفلسفة وتبريزه في علوم الطب والادوية والنفس والمنطق ·

ومع انه لم يضع من المؤلفات بالكثرة التي أمتازت بها مؤلفات الكندي الا ان كتبه قد نافت على مائتين وستين مؤلفا ، حوت أهم علوم العصر · فالى جانب شهرته كفيلسوف كان ابن سينا من عباقرة المسلمين في الطب يشهد بهذا كتابه الخطير « القانون » الذي كان من اعظم كتبه الطبية وأنفسها · وقد عرفت أوربا كتاب القانون هذا حين ترجمه « جيرار الكريموني » الى اللغة اللاتينية سنة ١٤٧٣م وظل هو الكتاب الطبي المعول عليه في جميع جامعات أوربا وكلياتها منذ ذلك الوقت حتى أواسط القرن السابع عشر للميلاد ·

ولم يكتف ابن سينا ان يجمع في هذا الكتاب كل ما عرفه عن العلوم الطبية التي أشتهر بها السابقون حسب ، بل اضاف اليها الكثير من مبتكراته ونظرياته المستحدثة في هذا الميدان الرحب · فقد أكتشف ابن سينا عددا من الامراض السارية ومرض الانكلستوما ، وحصى المثانة السريرية ، وشلل الوجه ، والفرق بين التهاب السحايا الاولى والثانوية · كما أشار الى عدوى انتقال السل الرئوي وأنتقال المرض بالماء والتراب ، كما انه قدم أول وصف كامل للجمرة الخبيثة المعدية وما ينتج عنها من حمى وغيرها من الامراض التي تسبب داء اليرقان · وكان ابن سينا اول من اكتشف ان السرطان الموضعي يعطى نفس أعراض السرطان العام في الجسم · كما كان أول من أكتشف التهابات الدماغ المعدية وغيرها من الالتهابات المزمنة ·

أما كتابه الشهير الآخر فهو كتاب « الشفاء » الذي يقع في ثمانية عشر مجلدا كبيرا وهو يحوي مختلف العلوم التي صنفها ابن سينا الى ثلاثة أصناف الآلهيات ـ وهذا هو القسم الفلسفي من الكتاب ـ والعلوم الطبيعية ، ثم العلوم الوسطى ويعنى بها الرياضيات والفنون والموسيقى ·

وقد طبع الاصل العربي لكتاب الشفاء هذا في روما سنة ١٥٩٣م وتوجد منه نسخة خطية في جامعة اكسفورد بانكلترا ·

وهذا ابو نصر الفارابي (٢٥٩ـ٣٣٩هـ = ٧٨٢ـ٩٥٠م) لم يكتف

بما احرزه من مجد في ميدان الفلسفة حسب بل مد نشاطه الفكري الى ميادين اخرى كالفلك والطبيعيات وعلم النفس بالاضافة الى نبوغه في علم السياسة حيث وضع فيها عددا من المؤلفات الجليلة كان من أهمها « اراء أهل المدينة الفاضلة » ، وكتاب « السياسات المدنية » وكلاهما قد ترجما منذ زمن طويل الى الالمانية والعبرية • ولقد خص الفارابي حتى علم الخطابة بكتاب كبير يقع في عشرين جزءا • وأكثر من هذا وضع الفارابي معلمة خطيرة هي كتابه الموسوم « احصاء العلوم » الذي يعتبره علماء العرب أول نواة لكتابة الانسكلوبيديا في العالم •

كذلك خص الفارابي الموسيقي باهتمام زائد حيث وضع بعض الآلات الموسيقية التي لم تكن معروفة من قبله قط تدلل عليه قصته الشهيرة في مجلس سيف الدولة الحمداني فالفارابي هو مخترع الآلة الموسيقية المعروفة الان باسم « القانون » • كما انه من الذين وضعوا اسس الايقاع الموسيقي وقواعده • وقدخصص للموسيقى كتابين شاملين شرح فيهما آراءه في توافق الاصوات وانسجامها ، وجمع فيهما كل ما عرفه الاقدمون من طرائف الغناء والصوت والنغم •

وكان ابن رشد (٥٢٠ ـ ٥٩٥هـ = ١١٢٦ ـ ١١٩٨م) هو الآخر من المبرزين في الطب الى جانب الفلسفة • فقد كتب في الطب اكثر من عشرين كتابا كان من اشهرها كتابه الموسوم بالكليات ذكر فيها تشخيصات جديدة لبعض الامراض ووصف العلاجات اللازمة لها • وابن رشد هو الذي اكتشف المناعة التي يتركها داء الجدري لدى اصابته الاولى • فقد كتب ابن رشد اكثر من ثمانين مؤلفا في شتى العلوم ومنها علم الطبيعة الذي وضع فيه عدة كتب منها الشرح الكبير ، وشرح الحيوان وهو في عدة مجلدات ، وشرح السماء والعلم ، وشرح الجزئيات • وكتب اربعة كتب في الفلك ، وثمانية في الفقه والشريعة وخمسة في الآلهيات الى جانب كتبه الفلسفية التي نافت على الثلاثين • ومما يزيد في عظمة ابن رشد ويدلل على نبوغه انه حذق كل هذه العلوم وبلغ هذه الدرجة من النشاط الفكري وهو لايعرف لغة اخرى غير لغته العربية وقد كان كتابه « الكليات » في الطب من المراجع الامة في جامعات اوربا خلال القرون الوسطى وفضلا عن ذلك فابن رشد اول عربي درس كلف الشمس وكتب عنه ، وحدد وقت عبور عطارد على قرص الشمس ، ووضع ارصادا فلكية لاتبارى •

ومع ان ابن الهيثم [٣٥٤ ـ ٤٣٠هـ = ٩٦٥ ـ ١٠٣٩م] قد اشتهر بعلم البصريات والرياضيات الا انه كان من المتفوقين في الفلسفة والفلك والجغرافيا • فقد كتب في الفلك اكثر من عشرين كتابا ورسالة وقد ابتدع طريقة فلكية جديدة لتعيين ارتفاع القطب • يضاف الى هذا ان ابن الهيثم اول من عرف الطريقة العلمية في البحث ، وسار عليها ، ومهد للكشف عن

عناصرها واصولها الاساسية وهي : الاستقراء ، والقياس ، والاعتماد على المشاهدة والتجربة ٠

اما مؤلفاته الفلسفية فقد تناول فيها العالم والانسان ، وطبيعتي اللذة والالم ، وطبيعة العقل والقوة المحركة للكون وغيرها بالاضافة الى تلخيص وشرح عدد كبير من مؤلفات ارسطو وابيقور وغيرهما من فلاسفة الاغريق ٠ وقد زبت مؤلفاته عن الرياضيات والبصريات على ثلاثين كتابا ٠ كـذلك وضع ابن الهيثم كتابا فريدا في بابه هو تاثير الموسيقى في الانسان والحيوان

وجمع ابن طفيل [٤٩٨ ـ ٥٨١هـ = ١١٠٢ ـ ١١٨٥م] في انشهرة بين الفلسفة والطب معا ٠ ومع انه كتب في جميع العلوم الا ان جميع كتبه قد ذهبت طعمة للنار نتيجة الحقد الذي امتلأت به صدور الحاقدين على التراث الفكري الاسلامي في الاندلس والذين كانوا يتسربلون بسربال ادعياء الدين٠

ومع ذلك يذكر المؤرخون ان ابن طفيل هذا قد وضع كتابين في الطب ، وكتابا في علم النفس ، ورسالة في البقع المسكونة وغير المسكونة ٠ وكـانت له آراء مبتكرة في علم الفلك ونظريات جديدة في تركيب الاجرام السماوية وحركاتها ٠ كما كتب في العلوم الدينية والفقه ومـارس الطب والقضاء في حيـاته ٠

وهذا ابو بكر الرازي [٢٤٠ ـ ٣٢٠هـ = ٨٤٥ ـ ٩٣٢م] الذي اشتهر في الطب يؤلف بحدذاته دائرة معارف كبرى فقد الف اكثر من مائتين وثلاثين كتابا في متباين اصناف العلوم من طب وفلسفة وفلك ورياضيات وطبيعيات وفيزياء وكيمياء ٠ وفي كتابه « سر الاسرار » وصف الرازي اكثر من عشرين جهازا من الاجهزة الزجاجية التي استعملها لاجراء التجارب والاختبارات ٠ وهو أول من طبق الكيمياء في الطب وقد استحضر كثيرا من الحوامض لاتزال طرقه فيها مستعملة حتى اليوم ٠ وله في الكيمياء كتاب نفيس اسمه « الاسرار في الكيمياء » ترجمه جيرار الكريموني في اواخر القرن الثاني عشر للميـلاد وظل هو المعول عليه في مدارس اوربا عدة قرون ٠ وكان الرازي اول من وضع علم الكيمياء على طرائق علمية خالية من الشعوذة ٠ وفي الفلسفة جاء الرازي بنظرية جديدة وخطيرة معا ٠ فقد قال ان الجسم يحوي في ذاته مبدأ الحركة وبذلك يكون الرازي قد سبق الفيلسوف الهولنـدي « ليبنتز » في هـذه النظرية بسبعة قرون ٠

اما كتابه « الحاوي » فهو تحفة فريدة في بابه فهو موسوعة طبية يقع في ثلاثين جزءا ضم بين دفتيه كل ما توصل اليه العقل البشري في ميدان الطب منذ عهد ابقراط حتى عصر الرازي ٠ ويظهر من هذا الكتاب ان الرازي قرأ كل ما وصل اليه من كتب الاغريق والفرس والهنود والعرب في الطب وزاد عليها شارحا نظرياته وتجاربه الخاصة ٠

وفي الطبيعيات وضع الرازي عددا كبيرا من المؤلفات منها كتابه «شكل

العالم » الذي اثبت فيه ان الارض تدور حول محورين ، وان الشمس اكبر جرما من الارض وان القمر اصغر منها ومن الارض حجما • اما كتبه الفلسفية فهي متعددة ولم يترك الرازي علما من العلوم الا وكتب فيه حتى فن الطبخ والشعر الغنائي والقصائد الفلسفية •

وحتى لو اخذنا العلماء الذين اشتهروا في الرياضيات من امثال ثابت بن قرة ، والبيروني ، والبتاني ، والخوارزمي ، وابن يونس ، والبوزجاني وغيرهم ، لوجدنا ان هؤلاء كاضرابهم من مفكري العرب والمسلمين الآخرين لم يقفوا عند حد الاهتمام او التخصص في علم واحد من العلوم •

فالعبقري ثابت بن قرة الحراني [٢٢١ ــ ٢٨٨هـ = ٨٣٥ ــ ٩٠٠م] وان كان قد اشتهر بالرياضيات وجاء فيها باهم نظرية هي نظرية التفاضل والتكامل ، الا انه قد برع في علوم الفلك والطب بالاضافة الى حذقه فن الترجمة من اليونانية والعبرية والسريانية اذ هو احد حذاق الترجمة الاربعة الذين اشتهروا في عهد الخليفة المأمون • فما خلا الكتب التي نقلها ثابت عن هذه اللغات ، وهي تعد بالعشرات ، كتب اكثر من اربعين كتابا في الهندسة والرياضيات ، ووضع عدة كتب في الفلك منها كتاب علة الكسوف ، والهيئة ، وحركة فلك البروج ، وتركيب الافلاك ، وحركة الفلك ، وعلم النجوم ، وطبائع الكواكب وغيرها •

وفي الطب الف ثابت كتبا قيمة ايضا منها اقسام الادوية واوزانها ، والادوية المفردة ، والجدري والحصبة ، واوجاع النقرس والمفاصل ، واوجاع الكلى والمثانة والحصى المتولد في المثانة ، والمولودين لسبعة أشهر ،والبياض الذي يظهر في البدن وما سواها •

وكذلك عالج ثابت بن قرة الفلسفة والمنطق والديانات وكتب في الموسيقى ايضا •

وينطبق على ابي الريحان البيروني [٣٦٢ ــ ٤٤٠هـ = ٩٧٣ ــ ١٠٤٨م] قول العالم الالماني «سخاو» فيه حين قال «البيروني اعظم عقلية عرفها التاريخ» ذلك لان هذا العبقري المفرد كان حجة في الرياضيات والجغرافيا والفلسفة والطبيعيات ومن اصحاب الثقافات الواسعة التي جعلته من اكابر العالم كله • وقد اشتهر بدقة البحث والملاحظة وتمسكه بالروح العلمية في كل ما كتبه ونطق به • وقد اشتهر البيروني بطريقته الجديدة لقياس محيط الارض، وباكتشافه الوزن النوعي لكثير من المعادن والاحجار ، وبايجاده عدة اوجه للتوفيق بين فلسفة الاغريق وحكمة اليهود وصوفية المسلمين •

ولقد ترك البيروني وراءه ثروة هائلة من الكتب والرسائل زادت على مائة وثمانين وضمت نفائس آرائه ومستنبطاته في الرياضيات والفلك والطبيعيات والجغرافية والفلسفة والتاريخ والادب ، ومن اهم كتبه « الآثار الباقية عن القرون الخالية » وهو موسوعة كبرى في التاريخ والفلك

والجغرافية والرياضيات . وكتابه القانون المسعودي في الفلك ، وكتاباه « وصف الهند » و « طريق الهند » وكتاب « الجماهر في معرفة الجواهر » بحث فيه عن الاحجار الكريمة وانواعها وتأثيراتها على الامراض. وكتب عديدة عن آلة الاسطرلاب هذا بالاضافة الى مؤلفاته الكثيرة في الهندسة عن المسطحات والمربعات والمكعبات والكرويات وقد عثر له مؤخرا على احسن كتاب فلكي هو « غرة الزيجات » عن الجداول الفلكية وحساب السنين والشهور . وله مكاتبات مع ابن سينا في الفلسفة والطب والعلوم .

كذلك نبغ البيروني في علم الجيولوجيا بشهادة عدد من كبار الجيولوجيين المعاصرين الذين درسوا آثاره . يضاف الى هذا ان البيروني كان من الملمين الماما جيدا باللغات الحية في زمانه كالسنسكريتية والعبرية والسريانية واليونانية والنقل عنها الى اللغة العربية واليه يعزى الفضل في نشر الثقافة الاغريقية في الهند .

وجمع البتاني [٢٣٥ ـ ٣١٧هـ = ٨٤٧ ـ ٩٢٩م] بين المثلثات والجبر والفلك والجغرافيا وبرز في كل منها . فهو الذي اكتشف الجيوب الهندسية وحركة اوج الشمس وهو الذي اثبت احتمال حدوث كسوف حلقي للشمس واليه ينسب اكتشاف قانون جيب التمام في المثلث الكروي . كما انه كان أول من عمل الجداول لنظير التماس . ومن مؤلفاته الشهيرة في الفلك الزيج المعروف بالصابئي وكتابه « معرفة مطالع البروج » وكتاب تعديل الكواكب وغيرها .

وتجتمع في ابن خلدون [٧٣٢ ـ ٨٠٥هـ = ١٣٣٢ ـ ١٤٠٦م] عدة شخصيات في وقت واحد . فبالاضافة الى نبوغه في كتابة التاريخ كان ابن خلدون فيلسوفا كبيرا جدا . فهو من مؤسسي علم الاجتماع ، ومن واضعي اسس التحليل المادي للتأريخ ومن القائلين بالمذهب الحر في الاقتصاد قبل ان يعرف الغرب ذلك بعدة قرون . كما كان ابن خلدون اسبق من غيره في علم قيام الدول وازدهارها وانقراضها فهو يتحلى بصفة المؤرخ والفيلسوف والاقتصادي والسياسي والاديب في وقت واحد . ومع انه اشتهر بكتابه « العبر » ومقدمته الخطيرة التي حوت آراءه في السياسة والاجتماع والاقتصاد الا انه وضع كتابا في العقليات والمنطق وآخر في اصول الفقه وكتابا في الحساب وقد فقدت هذه الكتب ولم يعثر عليها حتى الان وفضلا عن ذلك كان ابن خلدون اول من كتب في السير الشخصية (اوتوبيوغرافي) حيث ترجم حياته في كتابه الموسوم « التعريف بابن خلدون » ومثل هذا نستطيع ان نقوله عن الجاحظ والمسعودي والطبري وياقوت الحموي وابى الفرج الاصبهاني وابن الجوزي والدينوري ، وابن قتيبة ، والقلقشندى ، والخطيب البغدادي وابن عساكر وغيرهم ممن يفخر بهم الفكر الاسلامي ويعتز بتراثهم علماء الغرب قبل ابناء جلدتهم من العرب والمسلمين في الوقت الحاضر

* * *

من هذه الشواهد التي جئنا بها على سبيل التدليل لا الحصر تتبين للقارىء رحابة الآفاق التي تفتحت امام الفكر العربي الاسلامي وميزة الخلق والابداع التي تميز بها اقطابه . فما كان الواحد منهم ليغترف مما كان يغترف به الاقدمون من علوم اللغة والدين والادب حسب وانما كان يغوص في أعماق العلوم المستحدثة ويخرج منها ظافرا مبرزا .

وهكذا فقد كان اكثرية العلماء المسلمين في اطار الحضارة العربية الاسلامية رجال فقه ودين وتصوف واهل قضاء وفتاوى وكان اكثرية المفكرين والفلاسفة علماء وادباء بل وشعراء مجيدين هذا ما يندر وجوده الان ، وما لم يحدث امثاله لدى الامم التي سبقت العرب المسلمين او التي عاصرتهم في عهود نهضتهم الكبرى .

مصادر البحث

1. Encyclopedea Britanica.
2. Encyclopedea of Islam.
3. Arabic thought it's place in history: S. O'leary.

٤ ـ تراث العرب العلمي في الفلك والرياضيات ـ قدري طوقان
٥ ـ الخالدون العرب ـ قدري طوقان
٦ ـ فلاسفة الاسلام ـ محمد لطفي جمعة
٧ ـ طبقات الامم ـ ابن صاعد الاندلسي
٨ ـ الملل والنحل ـ لابن حزم
٩ ـ تراث الانسانية ـ طائفة من الاساتذة المصريين
١٠ـ الفلسفة الاسلامية ـ دي بور ترجمة ابي ريدة
١١ـ الفهرست ـ لابن النديم
١٢ـ مؤلفات ابن سينا ـ الاب قنواتي
١٣ـ ابن سينا ـ تيسير شيخ الارض
١٤ـ ابن سينا ـ رحيم زاده صفوي
١٥ـ فصل المقال ـ ابن رشد
١٦ـ ابن رشد ـ عباس محمود العقاد
١٧ـ الفارابي ـ جوزف الهاشم
١٨ـ ابن طفيل ـ تيسير شيخ الارض
١٩ـ ابن خلدون ـ محمد عبدالله عنان
٢٠ـ شمس العرب تسطع على الغرب ـ زغريد هونكه ترجمة بيضون ودسوقي
٢١ـ علم الفلك تأريخه عند العرب ـ البروفسور نللينو
٢٢ـ الجغرافيون العرب ـ صبرى محمد حسن

زاويةٌ علميّة

الحيـــاة في ١٩٩٠

« أغلبنـا يعرف كيف كانت الحياة في سنة ١٩٤٠ لقرب عهدها . وها قد مر ربع قرن على ذلك . فما هو شكل الحياة بعد ربع قرن آخر يا ترى من الآن ؟

« هذا هو السؤال الذي يجيب عنه الآن أكبر كاتب علمي أمريكي متخصص في هـذه الشؤون هـو « ايزاك اسيموف » لمجلـة « ساينس دايجسـت » الامريكيـــة المعروفة . »

ان مهمـة الاجابة عن التكهنات العلمية من تلك المهـام التي لا يشكر الانسان عليها . فطالما كان المتكهنون العلميون أشبه بالمنذرين بالاخطـار المقبلة التي لا يرضى الانسان بطبيعته أن يصدق احتمال وقوعها ، فيلجأ نفسيا الى التهرب من مواجهتها ، والى اعتبـار أن الـكلام حولها من قبيل الخلط الذي لا داعي له .

هذا من جهة ومن الجهة الاخرى فان التكهن العلمي لم يعد من قبيل العموميات التي يستطيع كـل معقب للحوادث والتقدم العلمي أن يقارب الحقيقة عندما يحاول أن يدعيه ، وانما أصبح على أصحاب هذه « المهنة » كما يسميها « اسيموف » أن لايتكهنوا ، بل أن يصفوا الحقائق التى لابد من أن تقع حتما ، وان يحاول تحليل ما يقع وراء ذلك بصورة علمية . وخير الطرق لمعرفة ما سيكون عليه وضع المستقبل علميا ، هو دراسة الوضع الحاضر السائد .

• ● •

هناك اليوم ثلاثة « بلايين » من السكان في هذا الـكوكب . وتقسيم عدد السكان بالنسبة لثلاث أمم رئيسية من أمم اليوم هو كالآتي :

٠٠٠ر٠٠٠ر٧٠٠ في الصين

٠٠٠ر٠٠٠ر٢٥٠ في الاتحاد السوفيتي

٠٠٠ر٠٠٠ر٢٠٠ في الولايات المتحدة الامريكية

فكيف سيكون عليه الحال بعد ربع قرن من الآن مع افتراض عدم نشوب حرب ذرية ؟

الجواب على ذلك أنه من المؤكد أن هذا الرقم سيتصاعد بنسبة الضعف حتما . فلنقف أمام هذه الحقيقة قليلا .

ـ الهـدوء والمـاء ـ

ان الهواء مثلا لايمكن ان ينفد . ولكن اذا كان القصد أن يكون الهواء مفيدا ، فيجب ان يكون نظيفا . ومشكلة الهواء الفاسد مشكلة يعانيها الانسان منذ الآن ، فكيف الحال بعد ربع قرن ، وبعد تلك الزيادة المرتقبة في السكان ؟

من المحتمل أن يجري تحديد على التدخين في الهواء الطلق لان ذلك سوف يزيد من كمية الهواء الفاسد وسوف يساهم في زيادة الاحتمال بالاصابة بسرطان الرئة حتى بالنسبة لاولئك الذين لا يدخنون . ومن المتوقع أن تصبح هناك « غرف كبرى » للتدخين على غرار تلك « الغرف الكبرى » التي كانت تستعمل في الماضي لاغراض حرق الموتى على نطاق واسع . هذا من جهة . ومن الجهة الاخرى فان الماء أيضا لا ينفد . ولكن الماء النقي ليس كذلك . ونحن منذ الآن نشعر باشتداد الحاجة الى الماء النقي ونكابد قلته . فالمحتمل اذن أن نستعيض في خلال ربع القرن المقبل بتعبير «الماء الخام» عن تعبير «الماء النقي» وستكون المعركة شديدة وقاسية آنذاك في سبيل الحصول على حاجة الانسان من الماء . ولقد كتبت في يوم من الايام قصة عن وقت تمس الحاجة فيه الى أن يحمل الانسان حاجته من الماء في وعاء يحمله في جيبه ، ويأخذه من مضخات الماء النقي التي تنشئها بلديات المدن وتبيعها بالقياسات . ولا أظن أننا سنبلغ هذه المرحلة في مدى ربع القرن المقبل ولكننا متجهون اليها حتما .

أما « الطاقة » فأمرها يختلف فمن حسن حظ الانسانية ان مشكلتها لن تكون قائمة في سنة ١٩٩٠ ، بل لعلها لن تكون مشكلة على الاطلاق . وسيكون الفحم والنفط موجودين في الوقت الذي تكون الطاقة الذرية قد أصبحت في نطاق الاستعمال العام .

أما حل مشكلة المتجمع من « النفايات » الذرية فسوف تكون قد انتهت آنذاك (واعتقد أن الحل الامثل لها هو أن تمزج تلك النفايات بشكل كتل زجاجية تطمس في مناجم الملح و في أعماق البحار) .

ـ مشكلة السكان ـ

وستكون المشكلة الكبرى التي تواجهها البشرية هي مشكلة ايواء ذلك

العدد الغفير من السكان المتكاثرين • ولا أرى في الوقت الحاضر حلا لما يمكن أن يقع عليه الاختيار بعد ربع قرن ، الا أن البشر سوف يتجه الى عكس ما اتجه اليه في البداية عند الالتجاء الى الصعود جوا في ناطحات سحاب ، فيكون الاتجاه في هذه المرة نحو الاسفل ، أي نحو اعماق الارض ، وسوف تنشأ المدن تحت اعماق البحار ، ويتعود الناس على العيش في تلك الاجواء التي لا تخلو من أفضلية على اجواء ما فوق الارض •

فالمدن التي تكون تحت الارض لا يطرأ الكثير على جوها كما هو الحال في مدننا هذه • ولن تكون هناك حاجة كبيرة الى تكييف الهواء في المواسم ، كما أن الانتقال سوف يكون أسهل لانه غير معرض للعوامل الجوية من امطار وثلوج ، وسوف يزداد الانتاج والقابلية لانعدام الفروق أو تقليلها بين النهار والليل • ثم ان وجه الارض سوف يخصص للاستمتاع وللزراعة والكلأ • وان كان مثل ذلك سيظل غير قريب التحقيق بعد ربع قرن فقط ، ولكن المعامل والمصانع ، وبيوت الافراد سوف تكون قد بنيت تحت الارض آنذاك •

وسوف يلجيء ضغط السكان البشر الى ازالة الغابات والاستفادة من مواقعها • كما أن الطاقة الذرية التي ستكون آنذاك في يدي خدمة الانسان ، قادرة على انقاذه من شرور الحشرات والحيوانات الضارة • وقد تجعل في الامكان السكنى في قارة « القطب المتجمد » •

وسيذهب الانسان الى القمر وتكون هناك « مستعمرة » يسكنها فطاحل البشر من العلماء • كما سيجري أول انزال لانسان من المريخ •

ومع ذلك فسوف تبقى المدن الكبرى عاجة بالسكان • وسيكون ساحل الولايات المتحدة الشمالي الشرقي مدينة واحدة تسع حوالي أربعين مليونا من السكان • ولكي تزداد راحة السكان المتزايدين فسوف يجري تغيير واضح في وسائط النقل ، ويعم استعمال السيارات الصغيرة ذات المقعدين (وربما زادت الضريبة المكسية على أساس النسبة القياسية لحجمها لغرض تشجيع استعمال السيارات الصغيرة والتقليل من الانواع الكبيرة) وسوف يعم استعمال طائرات « الهلكوبتر » للنقل ، فيكون فوق سقوف البنايات هلكوبتر واحد لكل بناية على الاقل •• لغرض المباهاة والاستعمال أيضا !

ـ الطعام ـ

سيكون لازدحام الكرة الارضية بالسكان تأثيره الاول على مشكلة الطعام بالطبع • وربما لا تجتاح الولايات المتحدة حالات من القحط ، ولكننا سوف نشعر بوطأة الحاجة الزائدة الى تهيئة الغذاء الكافي • وربما اتجهت

المساعي الى التعويض عن اللحوم الى الاسماك والحبوب ٠ وسوف يتعود الانسان انذاك انيرضخ نقبول المآكل التي لم يكن يرضى بها في الماضي ٠ ومنها اعشاب البحر والطحالب والخمائر التي قد تكون آنذاك في قوائم المطاعم كمآكل ثابتة ٠

وستزداد الحاجة الى استعمال الالة والتسيير الذاتي ، وبخاصة في الولايات المتحدة حيث ستستفيد ربة الدار من ذلك ويكون على الاغلب ما تطلبه من (السبر ماركيت) أو السوق الكبيرة من حاجاتها البيتية جاهزا للطبخ في مدى دقائق قليلة ٠ وسيكون تزويد الطعام اجماعيا على نسق الخدمات التى تبذل الان في امثال هذه الامور عند غسيل الملابس مثلا !

ولن يفيد استعمال الانسان الآلي (الروبوط) في حل مشكلة الخدم ٠ كما ان حاجة الانسان الى استخدام المزيد من عضلاته ستقل كثيرا ،وسوف تقوم الالة بالتعويض عن ذلك الى حد كبير ٠

ـ العلوم المفضلة ـ

وسوف ينتج عن ذلك ان هناك انواعا من العلوم ستحضى بالاولوية كالرياضيات مثلا ، وسوف تقل الحاجة الى العلوم الاخرى وتقتصر على مراحل الدراسة الابتدائية ٠

ومشكلة ربع القرن المقبل الاول هي وقت الفراغ الزائد ٠ فسيكون اغلب الناس في حاجة الى العمل (٣٠) ساعة في الاسبوع فقط ، ولــذلك فستكون هناك حالة الضيق والتبرم من التبطل والفراغ ، وستزداد الحاجة الى الرياضة والترويح عن النفس ٠ وسوف يظل التلفزيون مركز اللهو في الدار كما هو الان ٠ وكذلك الرياضة البدنية ٠

وسيكون تليفون (١٩٩٠) مربوطا بآلة تلفزيونية يرى منها المتكلم صاحبه ٠ وكذلك ستؤثر هذه الحالة الفريدة على المكتبات ، فلن يكون فيها الكتب الكثيرة بمجلداتها وانما ستكون مصغرة فيستطيع القارىء ان يراجع المكتبة اذا اراد من داره !

واعتقد ان اهم الرياضات المقبلة ستكون الطيران ، وسيكون من اليسر والسهولة والرخص بحيث يصبح لهو الافراد ٠

ـ منع الحمل ـ

ان الذين يرون ان منع الحمل من الوسائل غير الفعالة في المستقبلسوف يتغير رأيهم في سنة ١٩٩٠، فسوف تتدخل الحكومات لجعل هذه الوسيلة ذات تأثير على حياة ذلك الجيل ٠ وقد لا يكون منع الحمل في ذلك الحين قد

بلغ مرحلة ايقاف الزيادة التى تبلغ ستين في المائة كما هو الحال الان ، ولكنه يصبح آنذاك قادرا على التأثير بحيث يترك اثره داخلا على اولئك الذين تقل أعمارهم عن (٢١) عاما ، فينزل معدل الولادة بينهم بشكل مؤثر · وسوف تكون معالجة الاطفال آنذاك مختلفة تمام الاختلاف عما هي عليه الان لعدة عوامل أولها قلتهم نسبيا ، وثانيها امكانية بذل الخدمات الاجتماعية الفائضة نسبيا لهم ، غير انه من الناحية الاخرى سوف يؤثر على الامومة والزواج بحيث تصبح امثال هذه العلاقات اكثر انحلالا ·

اما اذا كان موضوع الانفجار المرتقب في زيادة السكان قد عولج في سنة ١٩٩٠ بحيث يمكن التوصل الى التوازن او قريبا منه ، فان الكاتب الذى سيكتب عن التكهنات الممكنة في سنة ٢٠٩٠ قد يصبح اكثر قدرة مني على التفاؤل عند نظره الى المستقبل ·

وجه وراء الضباب

عطا عبد الله العطار

وجه وراء الضباب   حيرني أمره
اذا احتواني العذاب   ينقذني سحره
أشعر أني أراه   نورا يشق الظلم
فوق جبيني يداه   ينفض عني الألم

* * *

وجه وراء الظنون   أود أن أتبعه
واشتهي في جنون   لو أن روحي معه
يزورني طيفه   في الليل أنى سجى
تلوح لي كفه   عامرة بالرجا
ومن وراء الغيوب   يهمس في مسمعي
شعرك يا عندليب   يورق في اضلعي
زهرا ندي العبير   يسكر فيه الخيال
كوشوشات الطيور   في لحظات الوصال

* * *

وجه غريب السمات   من عالم اللاشعور
يوحي ببعث الحياة   بعد ازدحام القبور
أبصره كالنهار   في رغبات النفوس
وفي اضطراب البحار   وفي سكون الرموس
ألمحه في المساء   في بسمات النجوم
وفي ليالي الشتاء   طي عبوس الغيوم
يا طيف خلف الضباب   يا حلمي الشاعري
رغم انسدال الحجاب   تنثال في خاطري
مشاتلا للورود   تنبت شتى الزهر
وروضة للقصيد   تختال فيها الفكر
وجدولا من خمور   يعب منه الشجر
وبركة من عبير   يسبح فيها القمر

الخيال في شعر الشباب

احمد نصيف الجنابي

● ما الخيـال ؟

الخيال هو القدرة على بعث الصور بالكلمات والجمل ، وهو القدرة على خلق الصور . واذا ربطنا هذا التعريف بموضوع الشعر الذى يتركز حول « شعور المرء بنفسه وبما حوله شعورا يدفعه الى الكشف عن خبايا النفس او الكون عن طريق العاطفة في لغة هي صور » ، وجدنا ان الوحدة التي تسيطر على عملية الخيال تعني التوافق التام بين القلب والعقل . بين الملاحظة الصادقة والملكة المتخيلة . بين المحسوس وغير المحسوس .وليس الخيال مجرد تصور اشياء غائبة عن الحس ، انما هو حديث معقد ذو عناصر مختلفة كثيرة . وليست الصور هي الافكار ، اذ الافكار للاشياء المجردة العامة والصور للاشياء المحسوسة الخاصة . والافكار كانت تفهم في الاصل من صور حسية تجردت من حسيتها بعد طول استعمال(١) .

فالكلمات والعبارات يقصد بها – في الشعر – بعث صور ايحائية لها قوة معانيها الاصيلة في اللغة حين كانت الكلمات صورا ذات دلالات صورية ، كما هو الشأن في كل اللغات في بدايتها .

والشاعر هو الذى يعيد الى الكلمات قوتها الفطرية بما يهيء لها من نسق ونظام خاص وجو تشع فيه اكبر شحنة من الصور والظلال والايقاع. حتى تتناسق ظلالها وايقاعاتها مع الجو الشعورى الذي يريد ان يرسمه وعليه الا يقف بها عند الدلالة المعنوية الذهنية ، والا يقيم اختياره للالفاظ على هذا الاساس وحده . وان يرد الى اللفظ تلك الحياة التي كانت له وهو يطلق اول مرة ليصور حالة حية ، قبل أن يصير له معنى ذهني مجرد . فوصول اللفظ الى الحالة التجريدية معناه انه مات واصبح رمزا وحسب(٢) .

الخيال الادبي وانواعه

الخيال الادبي – او الفنى – نوعان(٣) :

(١) الخيال التأليفي (او المؤلف) : وهو الخيال الذى يجمع بين

الافكار والصور التي ترجع الى اصل واحد • ويقع تحت هذا : التشبيه في البيان ، فاذا لم تكن الصور ترجع الى أصل عاطفي واحد كانت وهما • كالتمثيل المرذول في البلاغة ، لانه اذا كانت الصور الخيالية ناشئة عن عاطفة سقيمة بدت متكلفة بعيدة عن الحقيقة والصدق • ومن ذلك قول ابي تمام • يمدح ابا سعيد

وتقاسم الناس السخاء مجزءا ... وذهبت أنت براسه وسنامه
وتركت للناس الاهاب وما بقي ... من فرثه وعروقه وعظامه

والقبح الفاحش في البيت الثاني ـ كما يقول ابن الاثير بحق[٤] ـ وهذا هو التعسف في التشبيه البعيد • وغرض ابي تمام أن يقول : ذهبت بالاعلى وتركت للناس الادنى ، او ذهبت بالجيد وتركت للناس الرديء •

ومن الخيال البعيد المتكلف في الشعر الحديث قول (شوقي) في قصر (أنس الوجود) :

قف بتلك القصور في اليم غرقى ... ممسكا بعضها من الذعر بعضا
كعذارى أخفين في الماء بضا ... سابحات به وأبدين بضا

كل بيت بمفرده يعرض صورة جميلة الرسم والايقاع • ولكنهما مجتمعين يكشفان عن اضطراب في الشعور او تزوير في هذا الشعور • ذلك اننا حين نستعرض البيت الاول نجد اننا امام مشهد غرق • والغرقى مذعورون يمسك بعضهم من الذعر بعضا • فالشاعر اذن يرسم لنا مشهدا مثيرا لانفعال الحزن والاسى • مشهدا يظلله الفناء المتوقع بين لحظة واخرى• ويشعر ان هذا الانفعال الذى خالج نفسه وهو يعاني هذه التجربة الشعورية •

ولكنه ينتقل بنا فجاة ونحن امام المشهد نفسه لم نزايله فيقول :

كعذارى أخفين في الماء بضا ••• فأى شعور بالانطلاق والخفة والمرح يوحيه مشهد العذارى ينزلن الماء سابحات يخفين بضا ويبدين بضا ؟

هنا ظل لايتسق مع الظل الاول ، لانه يصور انفعالا شعوريا يغاير الاول فأي الانفعالين اذن هو الذى خالج نفس الشاعر ؟ اقرب تفسير انه لا هذا ولا ذاك • انما هو صورة لفظية لا رصيد لها[٥] من الشعور •

(٢) الخيال الابتكاري : وهو تأليف اختياري لصور معروفة من قبل يؤلف منها مجموعة جديدة غير مألوفة من قبل[٦] • او هو الذى يبدع فيه الشاعر الاساطير او الخرافات التي يسوق بها قضاياه[٧] • ويلاحظ ان عملية الخيال الابتكاري « ليست مدبرة تدبيرا اراديا او منطقيا بحيث تجمع الاوصاف انتظارا لنتيجتها ، كما هي الحال في الخيال التاليفي ،وانما تخضع هذه الاوصاف لقانون التناسق الذى يحقق اثرها على الوجدان ، وتتداعى عناصرها المخزونة في الذاكرة لتتعاون على اسعاف الاديب بما

ينبغي . ويقول (رسكن) بهذا الصدد ، حين يتحدث عن « الشاعر والرسام » في كتابه « الرسامون المعاصرون » : (ان كلا من الشاعر والرسام يجذب الى ذاكرته كل ما رأى وسمع طول حياته ويحفظه بدقة في هذه الذاكرة كما تحفظ المواد في المخازن الكبيرة . فالشاعر لاينسى حتى ابسط النغمات التي يسمعها في اوليات حياته) .

نوعا الخيال في شعر السياب

(١) الخيال التاليفي : وهذا النوع من الخيال قليل في شعر المرحلة الاولى (انظر «تطور طريقة التعبير السيابية») . وكثير في شعر المرحلة الثانية من شعر السياب (رحمه الله) . وقليل ايضا اذا قورن بالخيال عند شاعرة معاصرة هي نازك الملائكة ، التى لاتجد عندها – من الخيال – الا التاليفي اما الخيال الابتكاري فهو غير موجود عندها ، مع وجوده بكثرة في شعر السياب في المرحلة الاولى . ولكل شاعر وفنان شخصيته المتميزة وطريقته الخاصة .

ويبدو ان الخيال التاليفي لم يكن مفضلا في شعر السياب في المرحلة الاولى بينما كان الخيال الابتكاري هو المفضل عنده في المرحلة نفسها :

(٢) الخيال الابتكاري : ومن يتتبع الشعر السيابي يظهر له ان الخيال الابتكاري هو الطريق المفضلة عنده في المرحلة الاولى ، وفي ديوانه (انشودة المطر) بالذات . والسياب ، يكثر – هنا – من استعمال الاساطير ليؤدي بها قضاياه الاجتماعية خاصة . وان كان الخيال والصور الفنية تلازمه حتى في الشعر ذي الطابع الوجداني والذاتي البحت .

وبهذا يكون السياب [شاعر الصورة الفنية الناضجة في شعرنا الحديث] .

ففي ديوانه الاول (انشودة المطر) نجده يكثر من الخيال الابتكاري ومن القصائد التي نأخذها مثالا على ذلك (المومس العمياء) وهي قصيدة طويلة جدا استغرقت ثلاثين صفحة وسأكتفي بايراد مقاطع منها :

الليل يطبق مرة اخرى فتشربه المدينة
والعابرون الى القرارة مثل اغنية حزينة
وتفتحت كازاهر الدفلى مصابيح الطريق
كعيون « ميدوزا » تحجر كل قلب بالضغينة
وكأنها نذر تبشر أهل « بابل » بالحريق
من هؤلاء العابرون ؟
احفاد « اوديب » الضرير وورارثوه المبصرون
« جوكست » ارملة كامس ، وباب « طيبة » ما يزال

يلقي « ابو الهول » الرهيب عليه من رعب ظلال
والموت يلهث في سؤال
باق كما كان السؤال . ومات معناه القديم
من طول ما اهترأ الجواب على الشفاه
وما الجواب ؟
(أنا) قال بعض العابرين
وانسلت الاضواء من باب تثاءت كالجحيم
تطفو عليهن البغايا كالفراشات العطاش
يبحثن في النيران عن قطرات ماء عن رشاش

ان التعبير عن حالة البغايا بواسطة قصة (اوديب) الذي يتزوج أمه دون ان يدري انه قد ارتكب تلك الفعلة الشنعاء ، والسؤال الذي ألقاه (ابو الهول) عن المخلوق الذي يمشي في اول النهار على اربع وفي وسطه على اثنين . وفي آخره على ثلاث . والتعبير عن هؤلاء الذين يسيرون في الظلمات يبغون الرى فلا يجدونه وتشبيهه بحال الفراشة التي تطلب الضوء فيقتلها الضوء الذي تريد منه أن يرطب روحها ، تعبير موفق جدا . وهل هناك اشد شبها بحال (اوديب) الذي زنى بامه فحملت منه سفاحا من هؤلاء العابرين الذين يزنون بأخواتهم سفاحا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا !

وتحدثنا الاسطورة الاغريقية[٨] عن تلك اللعنة التي صبت على (لايوس) ملك « طيبة » والتي تحققت في قصة ابنه اوديب . فحين حذرته الكهنة بان لعنة ستحل به ، وان ابنه سيقتله ، يطلب من راع « مسن » أن يحمل طفله الذي ولدته زوجته (جوكستا) ويطلب منه ان يقيده حتى يموت . ولكن الطفل لايموت . بل يعثر عليه ويحمل الى قصر (يوليب) ملك « كورنثة » حيث عنيت به الملكة (ميروب) التي لم تنجب اطفالا واسمته (اوديب اي : متورم القدمين) . وحين يشب الصبي يعيره احد السكارى بانه لقيط فيذهب الشاب الى معبد « دلف » يستلهمه الحقيقة فيخرج من هناك بقرار هو : « انه سيقتل أباه ويتزوج امه ! » ويمضي به الطريق الى مكان عند مفترق الطريق بين مدينة والده والمدينة التي كان فيها ، فتمر عربة تحمل مسافرا مسنا يحيط به الخدم فيحدث شجار بين حرس الملك وبين اوديب فيقتل الرجل المسن الذى كان أباه . ويصل (اوديب) الى مدينة « طيبة » مهبط رأسه وان لم يكن يعرفها ، فيجد فيها ضوضاء ، حيث كان حيوان غريب راح يلقى الالغاز على من يمر به . ولكن احدا لايستطيع الوصول الى الحل . ويكون مصيره الهلاك على يد (ابي الهول) ويأتي (اوديب) فيسأله (ابو الهول) : ما الحيوان الذي يسير في الصباح على اربع وفي الظهيرة على اثنين وفي المساء على ثلاث ؟ فيجيبه اوديب :

« الانسان! » • فيقتل ابو الهول نفسه حيث يلقى بها من الصخرة التي كان عليها ـ فيزوجه اهل طيبة ارملة الملك المقتول (جوكستا) جزاء له• فتلد منه ولدين وبنتين • وتسير الحياة عادية وفي سلام سنين عددا • ثم ينزل بالبلاد طاعون ومجاعة ، فيهرع الناس الى ملكهم يرجونه ان يتشفع لهم لدى الالهة ، فيرسل اوديب (كريون) أخا الملكة الى معبد دلف ليعرف ما ينبغي أن يصنع • فيعود هذا برسالة محيرة تقول : ان شيئا قذرا يقيم في هذه المملكة لابد ان يزول ليزول هذا البلاء الذى حل ببلدتهم • وبعد اخذ ورد بين الملك والكهنة والراعي الذى اخذه من أبيه يتحقق الملك (اوديب) واهل بلدته من أن القذارة هي في زواج اوديب من أمه • فتنتحر (جوكستا) امه ، ويسمل هو عينيه • وينفي نفسه بعد ان يوصي (كريون) بابنائه خيرا •

هذه هي الاسطورة البعيدة الدلالة هي التي استعملها السياب ـ كما استعمل غيرها من الاساطير ـ لاختراع الصور الفنية او لابتكار الخيال الفني •

تطور طريقة التعبير السيابية

يمكن ان يلاحظ المتتبع أن شعر السياب قد مر خلال ديوانه انشودة المطر حتى شناشيل الجلبي بثلاث مراحل :

الاولى : وفيها يغلب عليه الخيال الابتكاري ، حيث يأخذ الاسطورة اساسا للتعبير •

ففي [انشودة المطر] يستعمل الاسطورة عشرين مرة وزيادة • فأحيانا يستعمل أكثر من اسطورة في قصيدة واحدة • واحيانا يستعمل اسطورة واحدة وفي القليل لايستعمل أية اسطورة • وهذه الملاحظة الاخيرة تصدق تماما على القصائد التي يتنافى طابعها والاسطورة • كقصيدة « عرس في القرية » او قصيدة « المخبر » •

ويلاحظ أن السياب يستوعب الاساطير (وخاصة الاغريقية) استيعابا تاما ، بحيث يستعملها استعمالا موفقا دائما ، وفي مكانها المناسب، حتى كأنها مسلمات هامة •• وكان القارىء يعرفها معرفة تامة •

ولهذا فان قارىء شعر السياب في المرحلة الاولى ، لابد وان يحتاج الى المام بالاساطير الاغريقية خاصة والاساطير اليونانية والصينية عامة وان كان السياب (رحمه الله) يستعمل الهامش (احيانا) لشرح الفكرة العامة للاسطورة التي يستعملها •

ففي قصيدة « رؤيا في عام ١٩٥٦ »(١٠) نلاحظ الاسطورة اليونانية:
ـ اسطورة (غنيميد) الراعي اليوناني الشاب الذي وقع (زيوس) كبير

آلهة الاولمب في حبه فارسل صقراً اختطفه وطار به اليه ـ تأتي بهذا السياق :

حطت الرؤيا على عيني صقراً من لهيب
انها تنقض ، تجتث السواد
تقطع الاعصاب ، تمتص القذى من كل
جفن ، فالمغيب
عاد منها توأما للصبح ـ انهار المداد
ليس تطفي غلة الرؤيا : صحارى من نحيب
من جحور تلفظ الاشلاء ، هل جاء المعاد ؟
اهو بعث ؟ اهو موت ؟ اهي نار أم رماد ؟
ايها الصقر الالهي الغريب
ايها المنقض من اولمب في صمت المساء
رافعا روحي لاطباق السماء
رافعا روحي ـ غنيميدا جريحا
طالبا عيني ـ تموزاً ، مسيحا
ايها الصقر الالهي ترفق
ان روحي تتمزق
انها عادت هشيما يوم ان اسميت روحا .

وفي قصيدة « من رؤيا فوكاي » ، ترد الاسطورة الصينية التي تقول : ان ملكا صينيا أراد ناقوسا ضخما يصنع من الذهب والحديد والفضة والنحاس ، وكلف احد الحكام بصنعه ، ولكن المعادن المختلفة ابت أن تتحد . واستشارت (كونغاي) ، وهي ابنة ذلك الحاكم ، العرافين بالامر فأنبأوها بان المعادن لن تتحد مالم تمتزج بدماء فتاة عذراء . وهكذا القت (كونغاي) بنفسها في القدر الضخمة التي تصهر فيها المعادن . فكان الناقوس . وظل صدى (كونغاي) يتردد فيه كلما دق : هياي ، كونغاي ، كونغاي » وترد الاسطورة في قصة (فوكاي) كاتب البعثة اليسوعية في « هيروشيما »[١١] (لاحظ الجناس بين فوكاي وكونغاي) واستمع الى السياب يقول :

مازال ناقوس ابيك يقلق المساء
بأفجع الرثاء :
« هياي ... كونغاي ، كونغاي »
فيفزع الصغار في الدروب
وتخنق القلوب
وتغلق الدور ببكين وشنغهاي

فلتحرقي وطفلك الوليد
ليجمع الحديد بالحديد
والفحم والنحاس والنضار
والعالم القديم بالجديد
آلهة الحديد والنحاس والدمار
ابوك رائد المحيط ، نام في القرار :
من مقلتيه لؤلؤ يبيعه التجار
٠٠ الابيات

وكذلك يرد (تموز او أدونيس) اله الخصب والنماء عند اليونان وهو حبيب (عشتروت او فينوس) الهة الحب ٠ الذي يقضي نصفا من السنة [الشتاء] في العالم السفلي مع (برسفون) والنصف الآخر [الصيف والربيع] على الارض مع (فينوس) وكثير من الاساطير الاخرى٠

ولابد أن نؤكد ـ قبل أن نأتي على ذكر المرحلة الثانية ـ على أن ظاهرة استعمال الاسطورة ذات دلالة عميقة وهي ـ فيما أرى ـ آتية من تأثر السياب (رحمه الله) بالآداب الغربية وخاصة « باليوت T. S. Eliot » الذي استعمل الاسطورة أيضا (انظر هامش ص٤٧ من انشودة المطر حيث يعترف السياب باستعمال الاسطورة التي استعملها اليوت نفسه ، وان غير معناها) ٠ كما انها تدل على ثقافة السياب الواسعة ٠ وقد ساعدته على ذلك معرفته باللغة الانكليزية ، وهو يشير احيانا الى ما يأخذه من أحد الشعراء الانجليز ٠ فقد اخذ سبعة أبيات وضمها الى قصيدة « من رؤيا فوكاي » السابقة مرة واحدة عن الشاعرة الانجليزية (ايديث ستويل) ومن قصيدتها « ترنيمة السرير » بالذات ٠

وقد ظل شبح (اليوت) بالذات يلاحقه حتى اخر ايامه ، ولكن روح السياب المتميزة تغلبت على شبح اليوت الباهت الظل ٠

فاليوت عدمي متشائم ، بينما تغلب الابتسامة وتفتح الروح على شعر السياب حتى في أيام مرضه ، ودنو أجله ، كما سنلاحظ بعد قليل ٠ ويبقى أثر اليوت في شعر السياب جزئيا حيث لايتجاوز بعض الصور وبعض مظاهر الشكل واستعمال بعض الاساطير ٠

« فالارض اليباب » عند (ت٠ س٠ اليوت) تصبح « مدينة السراب » عند السياب والعيون اللؤلؤية في اغنية أريل في « العاصفة » لشكسبير استعملها اليوت واستعملها السياب (باعتراف السياب نفسه) ٠ ونهاية قصيدة اليوت « الرجال الجوف » هكذا :

هكذا ينتهي العالم
بلا ضجيج ٠٠٠٠
ولكن بتشيج

وتنتهي قصيدة السياب « نداء الموت » (في ديوان المعبد الغريق ص٧١) هكذا

فيا قبرها افتح ذراعيك
اني لآت بلا ضجة · دون آه ·

والتشابه بين السياب واليوت او قل والتأثر واضح في ثلاثة امور :

(١) فكلاهما جعل هذا المقطع في نهاية القصيدة ·

(٢) وكلاهما تحدث عن الفناء : الفناء الذي يلحق بالعالم والذي يصيب الانسان نتيجة ذلك · حيث يرتبط مصيره بمصير العالم او الموت الذي هو مظهر من مظاهر الفناء الذي يلحق بالانسان والاحياء الذين يعيشون في هذا العالم المعروف ·

(٣) وكلاهما جعل النهاية بلا ضجة ولا جعجعة ·

المرحلة الثانية

وفي المرحلة الثانية يغلب على شعر السياب « الخيال التأليفي » وان كانت الاسطورة تعاوده بين الفينة والفينة · ومع ذلك فالخيال التأليفي هو الغالب حتى على القصائد ذات الطابع الوجداني الطاغي او « الطابع الدرامي » · ويمزج (رحمه الله) بين الخيال التأليفي والابتكاري في القصيدة الواحدة في القليل · وهذه المرحلة تتمثل تماما في ديوانه المعبد الغريق · ومن القصائد التي نأخذها مثالا على الخيال التأليفي قصيدة (المعبد الغريق) التي سمي الديوان باسمها ففيها يقول السياب :

خيوط الريح تصهل ، والمرافيء يلمس الغرب
صواريها بشمس من دم ، ونوافذ الحانه
تراقص من وراء خصاصها سرج ، ويجمع نفسه الشرب
بخيط من خيوط الخوف مشدودا الى قنينة ، ويمد آذانه
الى المتلاطم الهدار عند نوافذ الحانه

أرأيت يا أخي القاريء جمال الصورة في هذا الخيال التأليفي السيابي الرائع ؟! في « خيوط الريح التي تصهل » و « ضياء السرج الذي يتراقص من وراء خصاص النافذة » و « نفس الشرب المشدودة بخيط من خيوط الخوف الى قنينة » · وهكذا تستمر الصور في هذه القصيدة متلاصقة · وتنمو شيئا فشيئا لتكمل وحدتها العضوية · والمقصود بالوحدة العضوية للقصيدة : وحدة الموضوع ووحدة المشاعر التي يثيرها الموضوع حيث يستلزم من ترتيب الصور والافكار ترتيبا آخر تتقدم به القصيدة شيئا فشيئا حتى تنتهي الى خاتمة يستلزمها ترتيب الافكار والصور ، على ان تكون

اجزاء القصيدة كالبنية الحية لكل جزء فيها وظيفة · ويؤدي بعضها الى بعض عن طريق التسلسل في التفكير والمشاعر · والقصيدة طويلة جدا حيث استغرقت ثلاث عشرة صفحة · ولهذا نكتفي بما اقتبسناه منها ·

والخيال التاليفي – في هذه المرحلة – يبقى هو الغالب ، كما قلنا ، حتى في القصائد ذات الطابع الوجداني (او العاطفي) البحت ، الذى يستلزم عادة طغيان العاطفة · ففي قصيدة « ابن الشهيد »(١٢) · وهي عاطفية الطابع يقول :

أرأيت ارملة الشهيد ؟
الزوج مد عليه من ترب لحافا ثم نام
متمددا باشد ما تجد العظام
من فسحة : سكنت يداه على الاضالع
والعيون
تغفو الى ابد الاله ، الى القيامة في سلام ·
رمت الرداء العسكري ونشرته على الوصيد
لشمته ، فانتفض القماش يرد برد الموت
برد المظلمات من القبور
يا فكرها عجبا ·· ثقبت بنارك الابد البعيد

فترى هذه الصور الفنية الجميلة ، « الزوج الذى مد عليه من ترب لحافا» و « الرداء الذي لشمته فانتفض برد برد الموت » و « فكرها الـذي ثقب الابد البعيد »

وحين تعاوده الاسطورة (في المرحلة الثانية) فانها تنزوي تحت كثرة الصور المتلاحقة التي تكون الخيال التأليفي طابع هـذه المرحلة · ففي قصيدة (ام البروم) « المقبرة التي أصبحت جزءا من المدينة »(١٣) :

يقول رفيقي السكران : « دعها تأكل الموتى »
مدينتنا لتكبر ، تحضن الاحياء تسقينا
شرابا من حدائق « برسفون » تعلنا حتى
تدور جماجم الاموات من سكر مشى فينا !
مدينتنا منازلها رحى ودروبها نار ،
لها من لحمنا المعروك خبز فهو يكفينا ···
علام تمد للاموات أيديها ، وتختار
تلوك ضلوعها وتقيئها للريح تسقيها ؟
تسلل ظلها الناري من سجن ومستشفى
ومن مبغى ومن خمارة ·· من كل ما فيها ،
وسار على سلالم نومنا زحفا

ليهبط في سكينة روحنا ألما فيبكيها
وكانت ، اذ يطل الفجر ، تأتيك العصافير
تساقط كالثمار على القبور ، تنقر الصمتا
فتحلم أعين الموتى •

أرأيت كيف ضاعت اسطورة « برسفون » (ابنة آلهة الخصب اليونانية) بين وحدة هذه القصيدة ، ذات الخيال التأليفي المتمثل في جملة من الصور : في « المدينة التي تحضن الاحياء » و « جماجم الاموات التي تدور من سكر » مشي في الاحياء فتجاوز الحدود الى عالم الاموات فتدور جماجم الاموات نتيجة لذلك • وفي « المدينة التي تلوك ضلوعها » المصنوعة من لحوم الاحياء المعروكة عركا • وفي ضلوع المدينة التي تقيئها للريح فتسفيها • وهذه الطيور التي تساقط على القبور كالثمار « تنقر الصمتا » « فتحلم اعين الموتى » ؟

والقصيدة بالاضافة الى ذلك – اروع قصيدة في ديوان (المعبد الغريق) على روعته • فهي تجمع بين الصور الفنية الرائعة • والاحساس الانساني العميق حتى بالاموات وما يقع عليهم من ظلم الاحياء في المدينة الملأى بالظلال النارية التي تسللت من مبغى وخمارة •• ومن سجن ومستشفى فالمدينة قد اوقدت نارها في ظلمة الليل •• « لتقلع اعين الموتى » ثم تدس شقائق النعمان في الحفر ، تزرع الصمت •• « لتشمر بالرنين من النقود وضجة السفر ، وقهقهة البغايا والسكارى في ملاهيها »

المرحلة الثالثة

وفي هذه المرحلة يغلب على شعره الطابع العاطفي الطاغي (او الدرامي ان صح التعبير) • لانه كما يقول هو : اصبح يكتب بدمه • وهذا طبيعي لانه اخذ يحس بقرب أجله • وهذه الملاحظة تصدق على ديوانيه « منزل الاقنان » و « شناشيل ابنة الچلبي » وتصدق بصورة خاصة على قصائد « منزل الاقنان » المكتوبة في (درم) ففي درم كتب قصيدة « الشاهدة » – وهي اللوحة التي توضع على قبر الميت ويكتب عليها اسمه وتاريخ وفاته – التي يقول فيها :

« يا قارئا كتابي • ابك على شبابي »(١٤)
شاهدة بين القبور تبكي
تستوقف العابر • يا صحابي
غضوا الخطى ولتصمتوا : ان القرون تحكي
في جملة خطت على التراب
من نام في القبر ودود القبر ؟
يسال لا ينطق بالجواب ؟!

وفيها كتب قصيدته العاطفية الابوية : « اسمعه يبكي » ، يعني ابنه (غيلان) :

اسمعه يبكي يناديني
من ليلي المستوحد القارس
يدعو : « ابي كيف تخليني
وحدي بلا حارس ؟ »·
غيلان ، لم اهجرك عن قصد ···
الداء ، يا غيلان اقصاني ·
[اني لابكي مثلما انت تبكي ، في الدجى وحدي]
ويستثير الليل احزاني ·

وفي هذه المرحلة بكى الشاعر ··· وهذه المرة الاولى التي نسمعه يبكي فيها · وما سمعناه بكى من قبل ! وكيف لا يبكي من تنازعه الالام ويغوص في طوايا العدم قليلا قليلا ··؟ ويراه يموت عضوا فعضوا ؟ كيف لا ·· وهو يرى الموت ماثلا امام عينيه ويرى جنازته قد اعدت في غرفة جديدة ؟!

جنازتي في الغرفة الجديدة
تهتف بي أن اكتب القصيدة
[فاكتب ما في دمي واشطب]
حتى تلين الفكرة العنيدة ·
···
وترفع الجنازة اليابسة المهدمة
من رأسها ترنو الى الجدران
والسقف والمرآة والقناني ·

ولكن الجدير بالملاحظة ، هنا ، أن اشراقة الروح السيابية ظلت ملازمة له رغم مرضه ، ورغم موته الجزئي البطيء ·

ففي مستشفيات (لندن) وهو مريض ، كان يرى الشفاء من خلال المرض والحياة من خلال الموت · فبعد أن يذكر الموت والاموات في قصيدة طويلة(١٥) ، يختتمها بقوله :

اني سأشفى ، سأنسى كل ما جرحا
قلبي ، وعرى عظامي فهي راعشة والليل مقرور
وسوف امشي الى « جيكور » ذات ضحى !

وهذا دليل الرجولة الحقة والنظرة الصائبة ، والايمان العميق والبصيرة النافذة الحديدة · فالمرء لكي يتذوق المأساة الانسانية يجب أن

يتذوق ـ في الوقت نفسه ـ امكان السعادة الانسانية فان معرفة اي منهما ـ السعادة والمأساة ـ لايمكن أن تتم الا اذا عرفتا معا في لحظة واحدة »(١٦) ثم ان الظلام (او الحزن) جزء من الحياة ، او مظهر من مظاهر الحياة الكثيرة • فكما تشرق الشمس وتملأ الدنيا حياة ونضارة ، تغيب •ولكنها لاتغيب الى الابد بل تشرق ثانية وفي نفس اللحظة التي تغيب فيها ،ليتمتع بها قوم آخرون • وكذلك حياة الناس لاتموت نفس الا وتولد نفس او نفوس اخرى تحل محلها ليستمر الوجود الانساني وتنمو الحياة • وتلك ارادة الله • وهذه سنته في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا • ولا تحويلا •

فهل يجوز ان نغمض اعيننا فلا نرى ميلاد الفجر والصباح والحياة ونفتحها لنرى الليل والظلام والموت ؟

واذا قارنا شعر السياب في هذه المرحلة بالذات بشعر نازك الملائكة وهي في زهرة شبابها ، ظهر لنا الفرق واضحا ••

ففي ديوانها الاول (عاشقة الليل) تقول في قصيدتها (السفينة التائهة المنظومة في ٧ـ٧ـ١٩٦٤ ، حيث كان عمر الشاعرة يقارب الثالثة والعشرين) :

في لجة البحر الرهيب سفينة تحت المساء
ألقت بها الاقدار في لجج المنايا والشقاء
الريح تصرخ حولها وتضج في ظلم الفضاء
والموت يضربها ويلقيها على شفة الفناء

● ● ●

سارت ولا ربان يهديها الى الشط السحيق
حيرى يخادعها الظلام فلا شعاع ولا بريق
من فوقها هول الرعود وتحتها اللج العميق
سارت وما تدري الى اين المصير وما الطريق

● ● ●

الريح مزقت الشراع فاين يضرب زورقي ؟
والموج اطفا ضوء مصباحي فماذا قد بقي ؟
وغدا سنسكب في الدجى من جفني المغرورق
وتسير امواج البحور على شبابي المغرق(١٧)

فنجد الشاعرة تصف هذه الحيرة النفسية الرهيبة ، حيث سارت ولا ربان يهديها الطريق ، حيرى يخادعها الظلام • ووقف كل شيء ضدها• وعصرتها الكآبة ومزقت احلامها • واللون الذى يشيع في هذا الجو المكفهر

هو اللون الاسود ٠ حتى السفينة التي كانت تحمل احلامها كانت تحت « سواد المساء » والريح كانت تصرخ في (ظلم الفضاء السوداء) ٠٠ فليس في هذا الجو بريق من امل ٠

اي أسى واي كآبة هذه ؟ واي دنيا هذه التي كانت تعيشها الشاعرة الشابة (سنة ١٩٤٦) وهي في زهرة شبابها ٠٠٠ حيث لا شيخوخة ولا مرض ؟

ان الاديب الذواقة يمكن ان يشارك الشاعرة مشاعرها ، بينما لا يمكنه أن يشاركها آراءها ٠

بينما نجد السياب وهو في مرضه الذي يميته عضوا فعضوا ، يرى الفجر ويسمع اغاني الطيور ويشمم روائح الزهور ويرى كل مظاهر الجمال ويسمعها ، بل ويحسها !

ففي قصيدة « جيكور واشجار المدنية » في ديوانه الاخير (الذي طبع بعد وفاته سنة ١٩٦٥ : شناشيل ابنه الجلبي) يقول :

اشجارها دائمة الخضره
كأنها اعمدة من رخام
لا عري يعروها ولا صفره
وليلها لا ينـــام
يطلع من أقداحه فجره(١٨)

خضرة دائمة هي علامة الحياة الحلوة النضرة ٠٠ واعمدة من رخـــام لا عرى يعروها ولا صفرة فهي جميلة ملساء ٠٠ والفجر الذي يرى مـــن خلال الليل فهو تطلع الى الحياة والضياء من خلال الظلام والعتمة

وتغرب الشمس كأن السماء
حقل يمص الماء
أزهاره السكرى غناء الطيور
ناحلة كالصدى

اى جمال هذا الذى يراه الانسان ويحس به حين يرى السماء وهي « حقل يمص الماء » (لاحظ عذوبة الضوء في كلمة «يمص» وجمال الصورة في السماء كأنها حقل يمص الماء) ٠٠ وطيورها الشادية ٠٠ والازهار ذات الشذى العبق ؟

رحمة الله عليك يا (بدر) ٠٠٠ لقد كنت فنانا ٠٠٠ وكنت شاعرا فذا ٠٠ ترى الجمال حتى في ظلمات الليل ٠٠٠ وتحس بالحياة من خلال الموت !

المراجع والملاحظات

(١) الدكتور محمد غنيمي هلال : المدخل الى النقد الادبي الحديث ، صفحات : ٣٨٩_٩٠ والدكتور مصطفى ناصف : الصورة الادبية ، صفحات : ١٦ ، ١٨

(٢) سيد قطب : النقد الادبي ، صفحات : ٣٧_٨٣

(٣) التفصيلات تراجع في : اصول النقد الادبي للاستاذ احمد الشايب (ط ٦ ، ١٩٦٠) صفحات : ٢١٠_٢١٧ واسس النقد الادبي عند العرب للدكتور احمد احمد بدوي (ط ٢ ، ١٩٦٠) ، صفحات ٥٠٩ وما بعدها وفي النقد الادبي للدكتور شوقي ضيف (ط دار المعارف بمصر) صفحات : ١٦٧ وما بعدها .

(٤) ابن الاثير : المثل السائر (ط البابي الحلبي ١٩٣٩) ج١ص٤١٧

(٥) سيد قطب : المرجع السابق ذكره ٣١

(٦) الشايب : المرجع السابق ، صفحات ٢١٣_٢١٤

(٧) غنيمي هلال : المرجع السابق

(٨) الشايب : المرجع السابق

(٩) ملخصة عن كتاب « قضايا الانسان في الادب المسرحي المعاصر » للدكتور عزالدين اسماعيل . صفحات : ٦٣_٦٦ (سلسلة الالف كتاب) .

(١٠) بدر شاكر السياب : انشودة المطر (ط دار مجلة شعر ١٩٦٠) ص١١٦

(١١) نفسه ٤٦

(١٢) السياب : المعبد الغريق (ط بيروت ١٩٦٢) ص١٢٧

(١٣) نفسه ، صفحات : ٢٤_٣١

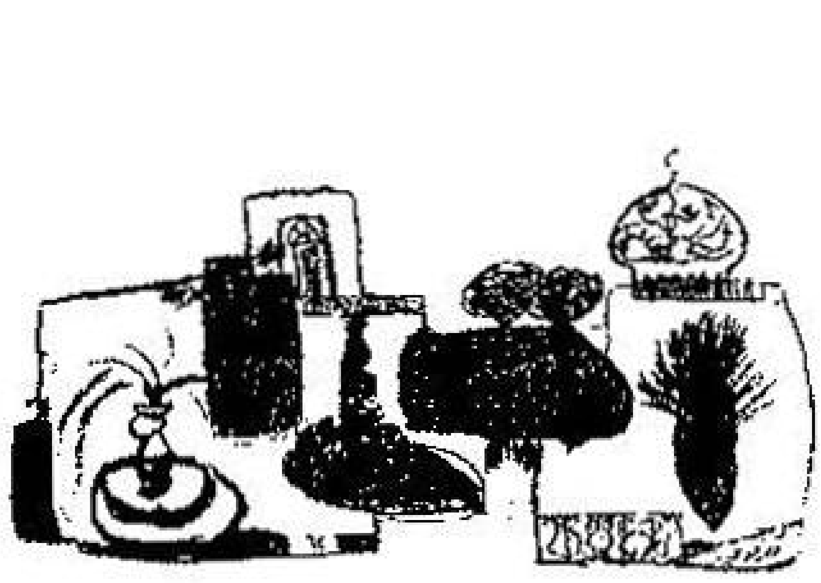
(١٤) يلاحظ أن هذه العبارة كثيرا ما تكتب على شاهدات القبور

(١٥) السياب : منزل الاقنان (ط بيروت ١٩٦٣) قصيدة « سفر ايوب » صفحات : ٣٦_٥٤

(١٦) ارشيبالد مكليش : الشعر والتجربة (ترجمة سلمى الخضراء الجيوسي) ص ٢٠٥

(١٧) نازك الملائكة : عاشقة الليل (ط بيروت ١٩٦٠) ص ١٣٢

(١٨) السياب : شناشيل الجلبي (ط بيروت ١٩٦٥) صفحات : ٥١_٥٣



علم الحيوان عند المسلمين والعرب

١ ـ لمحات من علم الحيوان في نهج البلاغة

الدكتور جليل ابو الحب

منذ اقدم العصور والانسان يدرس الحيوانات المختلفة من حوله لا سيما تلك التي تربطه بها علاقة وثيقة يستفيد منها في نطاق اعماله أو تلحق الاذى به أو باقتصادياته • وقد تطورت هذه الدراسة حتى أصبحت علما واسعا يسمى علم الحيوان Zoology وبالنظر لترامي أطراف هذا العلم فقد قسمه العلماء الى عدة فروع يختص كل فرع منها بدراسة جانب أو آخر من الحيوان • فمن الفروع ما يرتبط بوظائف الاعضاء أو دراسة المظهر والتكوين الخارجي وبعضها يهتم بمعرفة العلاقات بين الحيوانات نفسها أو بينها وبين المحيط الذي تعيش فيه • ولعل ارسطو اليوناني من اقدم من وصلت الينا بحوثه وكتاباته في علم الحيوان • فقد قام هذا الفيلسوف العظيم بدراسة عادات الحيوانات وانواعها وطرق تكاثرها حتى أنه ترك لنا وصفا يعد شاملا في نمو وتطور جنين الدجاجة يوما بعد يوم •

ولم يكن المسلمون والعرب أقل شأنا في دراسة عالم الحيوان من سواهم ، بل لقد ترك العلماء المسلمون والعرب كنزا ثمينا من البحوث والدراسات في هذا العلم • ولهذا فاننا بحاجة ماسة لدراسة تلك المعرفة ولتحري هذه التركة الضخمة لنقارن انتاجهم بما وصل اليه هذا العلم في الوقت الحاضر ولنميز بين الغث والسمين مما تركوه لنا منه • ومما لا ريب فيه ان هذه المخلفات العلمية للمسلمين والعرب تشمل جهدهم الاصيل وما نقلوه أو ترجموه عن غيرهم من الامم الاخرى • ان بعض ما ورد في كتابات العلماء المسلمين والعرب يتضمن بحوثا ونظريات تعتبر الاولى من نوعها من حيث الاصالة والكشوف في هذا العلم ، ولكنهم حرموا من هذا الشرف لعدم اطلاع العلماء والباحثين على مصادر المعرفة فيه من مصادره الاولية فضاعت عليهم كشوف المسلمين والعرب وما اهتدوا اليه أخيراً منها اعتبروه من بنات أفكارهم أو خاصا بهم ولم يعلموا أن المسلمين والعرب سبق لهم

أن توصلوا الى تلك البحوث والنظريات قبلهم ٠

لقد ورد في آيات القرآن الكريم تنويهات شتى حول عالم الحيوان وعجائب خلقه وكيف سخرت الحيوانات للانسان يستفيد منها ويمتع نفسه بما جاء في حياتها من مضرب الامثال ومحط الحكمة من نشـاطها وسعيها وتعاونها في جماعات ومن تناسلها وتكاثرها واعادة خلقها ٠ ولعل أبرز ما وصل من العصر الاسلامي الاول من شذرات لوامع وحكم جوامع ، وفكر صائبة وأوصاف ممتعة عن الحيوان هو ما ورد في أقوال الامام علي ابن أبي طالب (عليه السلام) كما نص عليه كتابه « نهج البلاغة » ٠ وهذه اللمحات والخواطر على معلومات جد دقيقة في وصف الحيـوانات التي تناولها في اقواله عليه السلام ٠ وأن ما استشهد به عن حياتها من عبر وعظات أجاد فيه الوصف وأحسن من نعته الخطاب ٠ وهي وان لم تكن بحثا مكرسا في هذا العلم بذاته ، ولكنها أمثلة حية في تبصر عالمها ، وفهم نظام حياتها ، بوصف معجز ، يتخذ الامام منها أمثلة حية على عظمـة بارئها ، ودلائل باهرة يستشهد بها لتحقيق كل امرىء من البشر انسانيته ليتميز عن البهائم وسائر المخلوقات ٠ ولهذا فقد جاء وصف الامام لهـا دقيقا خاليا من الحشو ، ولم يشبه شائبة من الاساطير والخرافات التي كانت شائعة عند العرب قبل الاسلام أو عند سواهم من الاقوام ٠

فالمتأمل في هذه اللمع والشذرات من أقوال الامام والتي كان الغرض منها استمداد البصر والموعظة الحسنة ، وارشاد من غابت عن بصيرتهم معالم خلق الله ، تشتمل على أوصاف دقيقة وردت عن الحيوانات سواء في مظهرها وطرائق معيشتها أو ما جاء فيها عن طراز حياتهـا وتكاثرهـا وحواسها ومواطن سكناها أو طيرانها وحركتها اذ تطرق الامام في ذلك الى امور غريبة في عصره ولم يهتد الناس الى معرفتها الا في أعصر متأخرة ٠ كما أن من الدلائل ما يشير الى أنها من الدقة والتبصر في معلوماتها بحيث أنها لا تبعد عن جوهر العلم والحقيقة في شيء ناهيك بخلوها من الاساطير والخرافات التي كانت سائدة في أذهان البعض من أبناء عصره بالذات ٠ حتى انه لكان عليه السلام يبدي الدهشة والاستغراب والتشكك والعجب من شيوع بعض تلك المعلومات في أذهان البعض من يعيش بينهم ٠

يمكننا أن نصنف ونلحق ما جاء من معلومات عن الحيوان وعالمه في أقوال الامام عليه السلام بالفروع التالية من علم الحيوان الحديث :ـ

اولا : علم الهيئة والتركيب الخارجي :ـ Morphology

هذا الفرع من علم الحيوان ـ والنبات أيضا ـ يعني بدراسة الصفات والتراكيب والاجزاء الخارجية للحيوان ودراسة تباين هـذه الصفـات والتراكيب واختلافها في الحيوانات المختلفة ٠ فالامام علي «ع» يصف عيون

الخفاش فيقول : « **عشيت أعينها من أن تستمد من الشمس المضيئة نورا تهتدي به في مذاهبها** » • فعيون الخفاش لا تتمكن من مواجهة نور الشمس في النهار لعدم تحسسها لضوء الشمس الشديد • ان من المعلوم علمياً الآن أن عيون الحيوانات التي تظهر في الظلام تفتقد أو تنقصها الاجزاء المسماة بالخلايا المخروطية الحسية Cone cells وهي خلايا توجد في شبكية العين وتختص بالتحسس بالضوء الشديد • ان هذه الخلايا قليلة العدد أو مفقودة في الخفاش وهي الاداة الوحيدة التي يتمكن الحيوان بواسطتها من الرؤيا والنظر أثناء النهار •

ويصف الامام علي عيني الجرادة بقوله : « **اذ خلق لها عينين حمراوين، وأسرج لها حدقتين قمراوين** » يوجد في الحشرات نوعان من العيون • النوع الاول هو العيون البسيطة Ocelli ويعتقد انها لا تفيد الحيوان كثيرا ومهمتها فقط تميز الضياء من الظلام ، اى رؤية الاشباح والظل فقط • أما النوع الثاني من العيون في الحشرات هو العيون المركبة Compoundeyes ويوجد منها زوج واحدة في مقدمة رأس الحشرة • وتتكون العين المركبة الواحدة من أعداد كبيرة من العوينات الصغيرة اللماعة • وتغطي العيون في الحشرات قرنية مبنية من مادة عضوية تسمى الكايتين Chitin وان سبب لمعان العيون هو أن القرنية الكايتينية هذه تعكس الاشعة التي تتساقط عليها فتظهر عندها هذه الانعكاسات بالوان حادة أو بالوان قريبة من المنطقة الحمراء في الطيف الضوئي •

ثم أنه يذكر عضو السمع في الجرادة فيقول « **وجعل لها السمع الخفي** » • وبالفعل فان عضو السمع في الجرادة يقع في محل مختلف وبعيد عن منطقة الرأس ولا يعرف محل وجوده الا الذين يدرسون التركيب الخارجي للجرادة بدقة • فأعضاء السمع هذه عبارة عن فتحتين ، واحدة على كل جانب من الحلقة الاولى من حلقات البطن • والفتحة مغطاة بغشاء سمعي رقيق •

ثم يتابع الامام قوله عن الحس فيقول « **وجعل لها الحس القوي** » تكثر على جسم الجرادة وغيرها من الحشرات شعيرات وشويكات حسية ، وتكون هذه كثيرة جدا في المجسات (قرون الاستشعار) واللوامس الشفوية والفكية • تقوم هذه الشعيرات والشويكات باستلام المؤثرات الخارجية لتوصلها الى اللويفات العصبية التي بدورها تنقلها الى الالياف العصبية ثم الجهاز العصبي المركزي •

ويصف الامام أعضاء الحس في النملة فيقول : « **ولو فكرت في مجارى اكلها ، وعلوها وسفلها ، وما في الجوف من شراسيف بطنها ، وما في الراس من عينها واذنها ، لقضيت من ذلك عجبا** » فعيون النملة لا تختلف عن عيون الجرادة اذ هي أيضا بسيطة ومركبة وتقع في مقدمة الرأس •

غير اننا نرى أن الامام قد أضاف الى النملة وجود الاذن في الرأس . ان من المعروف ان النملة لا تمتلك أذنا بالمعنى اللفظي الذي نعرفه نحن لهذا العضو الحسي . ولكننا لو جردنا هذا العضو الحسي من الاسم واللفظ فانه لا ينكر من أن النملة لم تعدم السمع كما أنها لم تعدم البصر والشم ، فهي تبصر بواسطة عيونها المركبة والبسيطة وتحس بواسطة الشعيرات والشويكات المنتشرة على جسمها ولا سيما على مجساتها ولوامسها . لا شك ان كل واحد منا قد لاحظ يوما ما خطا من النمل في محل ما ، كما أنه لاحظ بين الحين والآخر أن افراد النمل في هذا الخط تتوقف ويقابل بعضها بعضا ، وجها لوجه ، وتبدأ قرون أستشعارها بالحركة . ان هذا يدل دلالة واضحة على تبادل هذه الافراد « الحديث والمعلومات » عن الغذاء ومحلات وجوده . ان تبادل هذا الحديث يتم عن « التفاهم » بالتحسس . فالنمل لم يعدم لغة التفاهم فيما بينه . وكذلك اشارة الامام الى وجود الشراسيف (وهي الضلوع) في جوف النملة . وهنا أيضا أننا نعرف أن النملة والحشرات معدومة الاضلاع . غير أن جسم الحشرات يتكون من حلقات واضحة وبارزة وكأنها الخطوط أو الضلوع حول الجسم . أن تركيب النملة الحلقي يوحي لنا بكل وضوح بمنظر الاضلاع في الجسم .

ويصف الامام على المظهر الخارجي للطاووس أدق وصف وأبدعه . فانه يقول « **ومن اعجبها خلقا الطاووس الذى اقامه في احكم تعديل ، ونضد الوانه في أحسن تنضيد، بجناح أشرج قصبه، وذنب أطال مسحبه** » ويستمر **بهذا الوصف الرائع** « **تخال قصبه مدارى من فضة ، وما أنبت عليه من عجيب داراته وشموسه ، خالص العقيان وفلذ الزبرجد ، فان شبهته بما أنبتت الارض قلت جني جني من زهرة كل ربيع ، وان ضاهيته بالملابس فهو كموشي الحلل أو موفق عصب اليمن ، وان شاكلته بالحلى فهو كفصوص ذات ألوان قد نطقت باللجين المكلل ، يمشي مشي المرح المختال ، ويتصفح ذنبه وجناحيه فيقهقه ضاحكا لجمال سرباله ، وأصابيغ وشاحه** . فهو يصف كل بقعة من ريش الطاووس وكل مجموعة من هذا الريش . فهناك قصب الجناح وريش الذنب والقنزعة ومخرج العنق . وهو يلاحظ ان لون شعيرات الريش يتغير بين لحظة واخرى « **واذا تصفحت شعرة من شعرات قصبه أرتك حمرة وردية وتارة خضرة زبرجدية وأحيانا صفرة عسجدية** » فالريش الكبير في الجناح يتكون من قصبة وشعيرات جانبية مختلفة الالوان ، اذا نظرت اليها تبدلت ألوانها ، فهي حمراء مرة وخضراء أخرى وصفراء أحيانا . ان هذا التغير في ألوان شعيرات الريش يحدث بسبب اختلاف أطوال موجات ألوان الضوء . يتبدل اللون بالنسبة للرائي بين لحظة واخرى تبعا للزاوية التي ينظر منها الناظر الى الطير وكذلك تبعا لتفاوت انعكاس موجات ألوان الضوء الابيض .

ثم ينتقل الامام من وصف ريش الطاووس الى وصف ساقيه المغطاتين بالحراشف القبيحة المنظر على عكس جمال الريش • طبعا فالحراشف خالية من اللون بل انها غبراء داكنة • أن الطاووس نفسه يخجل عندما ينظر الى ساقيه القبيحتين فيقلل عند ذلك من غروره وخيلائه « **فاذا رمى ببصره الى قوائمه ، زق معولا يكاد بصوت يبين عن استغاثته ، ويشهد بصادق توجهه لان قوائمه حمش كقوائم الديكة الخلاسية** » ولا يفوته أيضا أن ينوه عن وجود أصبع صغيرة في نهاية الساق متجهة الى الخلف فيقول « **وقد نجمت عن ظنبوب ساقه صيصية خفية** » •

ويذكر الامام فم الجرادة وأجزاءه اذ يقول «**وفتح لها الفم السوى ، وجعل لها الحس القوى ، ونابين بهما تقرض ، ومنجلين بهما تقبض** » فالفم في الجرادة عبارة عن شق في مقدمة الرأس يحيط به وعلى جانبيه فكان قويان سوداوان ، مسننا الحافة ، تستعمل الجرادة هذين الفكين للقضم والقطع فهما بمثابة نابين • وبالاضافة الى ذلك توجد هنالك فكوك مساعدة أخرى حول الفم تكثر عليها وعلى لوامسها الشعيرات الشمية والذوقيــة والتي تستعملها الحشرات للشم والذوق • وقد عبر الامام عن ذلك بالحس القوى • ويشبه الامام رجلي الجرادة الخلفيتين بالمنجلين • ما أصدق هذا التشبيه وما أجمله • فالرجل الخلفية في الجرادة طويلة قوية سميكة القاعـدة ، مستدقة النهاية ومعقوفة • كما أن حافة القسم المستدق من الرجل هـذه مسننة مما يجعلها تشبه المنجل تماما • أن الجرادة لا تستعمل الارجـل الخلفية للمسك والقبض الا اللهم ما ندر • فهي تقبض على غذائها بواسطة أرجلها الامامية والفكوك المساعدة وتقرض الطعام بالفكين القوين •

والامام يقارن بين أجنحة الخفاش والطيور • فجناح الخفاش جلد رقيق يصل بين أصابع الايدي والجسم وهذا الجلد مكسو بالشعر الذي يشبه تماما شعر الحيوانات اللبونة • ثم ان جناح الخفاش خال من الريش وقصب الجناح ، ولكن عظام اليد والسلاميات المحورة لا تزال واضحة ويسميها الامام بالعروق • أما جناح الطير فعبارة عن الايدي والاصابع المحورة والمكيفة • ثم يغطي الجناح ريش مختلف الالوان والحجوم • فهنـاك قصب الجناح والخوافي والقوادم والريش الناعم والخشن • فالامام يصف جناح الخفاش بقوله « **جعل له أجنحة من لحمها ، تعرج بها عند الحاجة الى الطيران ، كأنها شظايا الاذان غير ذوات ريش ولا قصب ، الا أنك ترى مواضع العروق بينة اعلاما لها جناحان ولم يرقا فينشقا ولم يغلظا فيثقلا** » •

كل هذه الملاحظات التي ذكرناها أعلاه تدور حول علم الهيئة والتركيب الخارجي في علم الحيوان • فانها شملت وصف الحواس وأجزاء الفـم والاطراف والاجنحة واللون والريش • وهي بعينها ما نعني نحن بدرسه وتدريسه الان في العصر الحديث مع الاضافات الاخرى •

ثانيا : التاريخ الطبيعي Natural History

وهذا الفرع من علم الحيوان يعني بدراسة طراز معيشة الحيوانات ومحلات وجودها وسكناها وتزاوجها وتغذيتها وطباعها وعاداتها وأوقات نشاطها وفعالياتها • ويوجد في أقوال الامام علي عليه السلام الكثير من هذه الامور الصحيحة والمطابقة لما نعرفه الآن والتي يعنى بها كثيرا مدرسو علوم الحياة في العصر الحديث •

فالخفاش يختبيء نهارا في المحلات المظلمة مثل الكهوف والمغارات في النهار وتخلد الى الركود في الليل • لا يكاد أن يختلط الظلام وتغيب الشمس الا وتخرج الخفافيش من مخابئها طلبا للرزق • ويطير الخفاش وصغاره لاصقة به ، لانه من الحيوانات اللبونة التي تلد صغارها ولادة وتغذيها لبنها ، فتبقي صغاره ملازمة له دائما حتى تكمل نموها وتستقل بنفسها • والامام علي يقول « **ومن لطائف صنعه ، وعجائب حكمته ، ما رأينا من غوامض الحكمة في هذه الخفافيش التي يقبضها الضياء الباسط لكل شيء • ويبسطها الظلام القابض لكل حي** » ••• وبعد قليل من ذلك نراه يقول « **تطير وولدها لاصق بها ، لاجيء اليها ، يقع اذا وقعت ، ويرتفع اذا ارتفعت لا يفارقها حتى تشتد أركانه ، ويحمله للنهوض جناحه ، ويعرف مذاهب عيشه ومصالح نفسه** •

وهذه ذكور الطاووس تزهو وتختال بألوان ريشها ، تتجذب اليها الاناث • والعلم الحديث يخبرنا أن كثيرا من الحيوانات يدل فيها جنس الذكر عن نفسه باللون أو الصوت • فالطيور تزدان ذكورها غالبا بالالوان الجذابة أو تطلق الاغاريد الشجية لكي تتوله الاناث بها وتميل نحوها • والامام يقول واصفا ذكر الطاووس « **بجناح أشرج قصبه ، وذنب اطال مسحبه اذا درج الى الانثى نشره من طيه ، وسما به مظلا على رأسه ، كأنه قلع داري، عنجه نوتيه ، يختال بالوانه ، ويميس بزيفانه** » والامام يصف طريقة التزاوج في الطيور اذ هو قد لاحظ بنفسه كيفية تسافد ذكر الطاووس مع أنثاه ولم ينقله عن غيره من الرواة • وعنده أن هذه العملية هي الطريقة الطبيعية الوحيدة للتزاوج والتناسل • فهو لا يجيز أبدا حدوث عملية تزاوج بغير التسافد • وهو يعجب كيف يصدق الناس ما كان معروفا ومتداولا بحينه من أن اناث الغراب تلقح بأخذها دمعة من جفن الذكر ـ أي عن طريقة المطاعمة •• فالامام يقول في وصف تزاوج الطاووس « يفضي (أي الذكر) **كافضاء الديكة ، ويؤر بملاقحة أر الفحول المغتلمة للضراب ، أحيلك من ذلك على معاينة لا كمن يحيل على ضعيف أسناده ، ولو كان كزعم من يزعم انه يلقح بدمعة تسفحها مدامعه ، فتقف في جفونه، وان انثاه تطعم ذلك ثم تبيض لا من لقاح سوى الدمع المنبجس لما كان ذلك بأعجب من مطاعمة الغراب** » •

ثم نراه يصف لنا عملية تسل الريش القديم في الطيور فيقول واصفا

الظاهرة هذه في الطاووس « **وقد ينحسر ريشه ، ويعرى من لباسه، فيسقط تترى ، وينبت تباعا ، فينحت من قصبه انحات أوراق الاغصان ثم يتلاحق ناميا حتى يعود كهيئته قبل سقوطه : لا يخالف سالف الوانه ، ولا يقع لون في غير مكانه** وعملية نسل الريش Molting ظاهرة معروفة ليست بين الطيور فقط بل ان الكثير من الحيوانات الاخرى تستبدل الطبقة العليا من جلدها بين الحين والآخر • يحدث ذلك في الحيات والضفادع والحشرات • فالريش يسقط من الطيور ثم يعود فينبت غيره تارة أخرى ويصبح كهيئته قبل سقوط الريش القديم وبلونه وحجمه وبنفس محلات غرسه •

والامام يتكلم عن الحياة الاجتماعية المعقدة التي يحياها النمل بجمل موجزة ولكنها تتضمن كثيرا من المعلومات التي عرفها العلم حديثا عن حياة النمل الاجتماعية • فالنملة من الحشرات الاجتماعية وهذه الحيوانات تعيش بشكل جماعات • وهي تجمع غذائها بالصيف لوقت حاجتها في الشتاء • وذلك لانها لا تتمكن من الخروج في الشتاء القارس لتفتش عن الغذاء فتجمع ايام الحر غذائها لكي تعيش عليه ايام البرد • وتتعاون طبقة العمال في بناء المستعمرة وجلب الغذاء من مصادره وتقوم بتربية الصغار وتسهر على خدمة الملكة التي تنتج البيوض • اذا ما وصل الطعام الى المستعمرة ، يستلمه العمال في المستعمرة فيضعونه في محلات معينة أمينة • ففي الصيف يوضع الطعام في مخادع ومخازن عميقة وبعيدة عن سطح الارض وشمسها المحرقة • وفي الشتاء ينقل الغذاء الى مخادع أقرب الى سطح الارض وشمسها الدافئة • وبعد أوقات المطر يخرج العمال بهذا الغذاء المخزون الى سطح الارض بالقرب من المستعمرة لعرضه ونشره تحت الشمس والهواء لكي يجف حفظا عليه من التعفن • والمستعمرة التي تبنى في الصخر أو الحجر لا تعدم الغذاء لان العمال من النمل تتمكن بحسها ومعرفتها من اكتشاف مصادر الغذاء وجلبه الى المستعمرة بدون أن تضيع في الطريق أو تفشل في مسعاها • فالامام يصف هذه الحياة خير وصف وأوجزه « **انظروا الى النملة ، في صغر جثتها ، ولطافة هيئتها ، لا تكاد تنال بلحظ البصر ، ولا بمستدرك الفكر • كيف دبت على ارضها ، وصبت على رزقها ، تنقل الحبة الى حجرها ، وتعدها في مستقرها ، تجمع في حرها وبردها ، وفي ورودها لصدرها ، مكفولة برزقها ، مرزوقة بوفقها ، لا يغفلها المنان ولا يحرمها الديان ولو في الصفا اليابس ، والحجر الجامس** » •

ويتطرق الامام الى الطيور فيصنف طيرانها ، فهي تخفق بجناحها أو تبسطها عند الطيران واما تصعد عاليا في السماء أو تبقى قريبة من الارض • ويصف محلات بناء عششها ، فمنها ما يبنى العشش في اخاديد الارض وشقوقها أو في اعالي الجبال والاشجار • ثم ينوه عن طريقة حصولها على الغذاء فمنها ما تفتش عنه على اليابسة ومنها ما يخوض الماء بحثا عنه • ثم

أن الطيور تأخذ الوانا متعددة أو ان تكون بلون واحد ، وقد يلمح الامام بذلك الى محاكاة الحيوانات محيطها في اللون لكي يغفلها اعداؤها

كل هذه الامور يتطرق لها الامام بأسلوب أدبي معجز « **وما ذرأ من مختلف صور الطيور التي اسكنها اخاديد الارض ، وخروق فجاجها ، ورواسي اعلامها ، من ذات اجنحة مختلفة وهيئات متباينة ، ومصرفة في زمام التسخير ، ومرفرفة بأجنحتها في مخارق الجو المنفسح والفضاء المنفرج ، كونها بعد أن لم تكن في عجائب صور ظاهرة ، وركبها في حقاق مفاصل محتجبة ، ومنع بعضها بعبالة خلقه أن يسمو في السماء خفوفا ، وجعله يدف دفيفا ، ونسقها على اختلاف في الاصابيغ ، بلطف قدرته ودقيق صنعته ، فمنها مغموس في قالب لون لا يشوبه غير لون ما غمس فيه ، ومنها مغموس في لون صبغ قد طوق بخلاف ما صبغ فيه** » وفي محل آخر يعطينا المزيد من هذه الاوصاف البديعة « **فالطير مسخرة لامره ، احصى عدد الريش منها والنفس ، وارسى قوائمها على الندى واليبس ، وقدر اقواتها ، واحصى اجناسها** » •

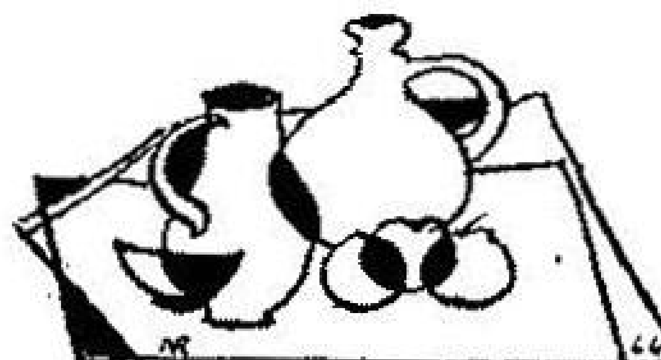
ثالثا ـ الاهمية الاقتصادية :ـ

ان من اولى متوجبات دراسة الحيوانات المختلفة وعوالمها هي معرفة اهميتها الاقتصادية سواء أكانت الاهمية هذه مفيدة أو مضرة • فكثير من الحيوانات تفيدنا بما تنتجه لنا من مواد غذائية او باستعمالها باعمالنا اليومية أو بالاستفادة من منتجاتها ولحومها للملبس والمأكل • كما ان هناك الكثير من الحيوانات التي تلحق الضرر باقتصادياتنا وصحتنا لا سيما الحشرات الضارة التي تهاجم مزارعنا وتتلف محصولاتها وتسبب الدمار والخراب للفلاح الذى يقف مكتوف اليدين امام مصائبها • وبالرغم من تقدمنا في العلوم واستعمالنا المواد المبيدة للحشرات ، فاننا لا نزال جدا بعيدين عن الوصول الى التخلص من ضررها • وها هو الامام يحدثنا عن الجرادة وضررها • يصف لنا بكل وضوح هلع الفلاح وخوفه من الجرادة وقلة حيلته ضدها • ويعطينا الامام الاهمية الزراعية والاقتصادية بطريقة فذة وذلك بوصف حالة الفلاحين والزراع عندما يهجم الجراد على مزارعهم فيتلف الحرث والنسل ويحيق بالزراعة البوار • فالزراع يرهبونها في زرعهم ولكنهم لا يستطيعون ذبها ولو اجلبوا عليها بجمعهم بالرغم من حقارة وصغر جسمها • فهو عليه السلام يقول واصفا ذلك « **يرهبها (اى الجرادة) الزراع في زرعهم ، ولا يستطيعون ذبها ولوا اجلبوا عليها بجمعهم ، حتى ترد الحرث في نزواتها ، وتقضي منه شهواتها ، وخلقها كله لا يكون اصبعا مستدقة** » •

رابعا : التسمية والتصنيف :ـ

حاول الانسان منذ القدم ان يصنف الحيوانات الى مجاميع متشابهة بالشكل أو بالمعيشة · وكان ارسطو من الاوائل الذين فعلوا ذلك · وقد وضع الانسان اسماء معينة لكل من الحيوانات · بقيت طرق التسمية والتصنيف مختلفة وبدائية وغير طبيعية حتى جاء لينيوس Linnaeus السويدي في العصر الحديث ليضع لنا أسس علمي التسمية والتصنيف في الكائنات الحية· والذي يطالع أقوال الامام عن الطيور يجد أنه صنف الطيور ونوه عن وجود مختلف الاجناس والانواع والصور منها· وكان هذا التصنيف يعتمد على بيئة الطيور أو على تراكيب أجنحتها وهيئتها وريشها · ثم أنه ذكر البعض منها واعطائها اسماءاً مثل الغراب والعقاب والحمام والنعام والطاووس · فانظره يقول « **والطير مسخرة لامره ، احصى عدد الريش منها والنفس وأرسى قوائمها على الندى واليبس ، وقدر اقواتها واحصى اجناسها · فهذا غراب ، وهذا عقاب ، وهذا حمام وهذا نعام ، دعى كل طائر باسمه ، وكفل له رزقه** »

نستنتج من دراستنا لاقوال الامام عن الحيوانات ان الامام عليه السلام لم يخرج عن العلم الصحيح وجوهره في أقواله التي ضمنها خطبه · وقد ترك لنا مادة ممتازة · خالية من شوائب الخرافات والاساطير والاباطيل· ولكن وجدناه في ثلاثة مجال فقط لا ينطبق ما قاله مع ما نعرفه اليوم عن الحيوان · كان ذلك بالنسبة لوجود الاذان والضلوع في النملة وبالنسبة لاستعمال الارجل الخلفية للقبض في الجرادة · وحتى في هذه المجال وجدنا مجالا كثيرا للتقارب بين ما قاله الامام وبين العلم الحديث اذا نحن ابتعدنا عن حرفية اللفظات لهذه الاعضاء · فالامام قدم لنا دراسة صحيحة في علم الحيوان قبل ما يقارب الاربعة عشر قرنا ولم تقل هذه الدراسات في اهميتها العلمية عن دراساتنا في الوقت الحاضر · فانه لم يدع اللامعقوليات تملأ حديثه عن الحيوان · ولقد امتلأت الكتب التي كتبها المتأخرون كثيرا عن عصره بأنباء غير معقولة وغير علمية عن الحيوانات ·



هيمى وذات دال

عبد الجبار الدوري

حيــــرى ..
تميسين من حولي .. كما نفرت ..
يمامة الصيف ..
من قوس .. لصياد
جـــذلـــى ..
تميدين بالقد المشيق .. ولي ..
زنـــد ..
يحن لغصن منك .. مياد
سكـــرى ..
تشدين أهدابي بخطوك .. يا ..
جســـورة ..
خطوها في جفني النادي
هيمـــى ..
كما انا هيمان .. وقد ذبلــت
أبعادك الخضـــر ..
وآنهدت .. كأبعادي
الى متى ..
وهوانا شمعة سهرت ..
تذري الدمـــوع ..
بلا دير .. وعباد
الى متى ..
وأنا .. نار .. معمرة ..
وأنــت ..

ممعنة صمتا بأيقادي ..
مـــاذا .. ؟
وراء قناديل .. ملونة ...
في ناظريك ..
فســـر .. منهما باد
فكي انحباس جناحيه اللذين اذا ..
رفـــا ..
تطرزت الدنيا .. بأورادي
أقياد كفيك .. قد طال الزمان بها ..
فمزقيها ..
كما مزقـــت أقيادي
فما الحياة سوى نبع ..
ونحن ســـوى ..
ريـــان ..
من دفقها المعسول .. أو صاد
وما لنداءة عمرينا ..
اذا انقضيا ..
بلا أزاهير افراح ..
وأعيـــاد ..

* * *

مشيقة القد ..
طفرات الخطى نغم ..
بمثله ما بكت اوتار أعواد ..
أنا من الشوق ركـــب ..
في خطاك ســـرى ..
فهل بهن ..
لركب تائه .. حاد
عـــام ..
ولا زلت في عهدى لهن هنا ..

حتى غرقــت ..
بأرقامي وأعدادي
عــام ..
ولا زلت في ايقاعهن أنا ..
مســافراً ..
والهوى في رحلتي زادي
لقد تعبــت ..
فمن موج .. الى أفق ..
من الصحارى ..
ومن سفح .. الى واد
متى أنيخ ..
على الواحات راحلتي ..
وحدي واياك ..
لا ماض .. ولا غاد
على ربابي ..
يسيل الشوق أغنية ..
نقية الثــوب ..
لم يجهش بها شاد
كذبــت اذ قلت لا أهوى ..
أتنقذني ..
عينــاك ..
من كذبتي الكبرى .. بميعاد
لقد ولــدت ..
وبي شوق يعذبني
اليك أنــت ..
ففي عينيك .. ميلادي

الشعر بين التجديد والتبديد

هادي نعمة

ينبغي ودون أية مقدمات ، ان نورد حقيقة تقول بأن الشعر واحد لا يتجزأ ، لانه انما ينبع ويتولد عن المشاعر والاحاسيس ، ثم ينساب في كلمات متسقة الصورة والموسيقى ، تجري في أي وزن من اوزان الشعر الغفيرة ، وليس هناك شعر حر مفلت وآخر مقيد مغل ·

وما يطلق على بنـاء الشعر بالقيود ، فانما هو قول مجحف ، ان لم يكن يقصد به تقبيح نواميس الشعر العربي وصرف اذهان النشء عنه ·

والى جانب بديهية : ان الشعر هو أرفع الفنون الادبية ، تقف بديهية أخرى مفادها : أن لكل فن نواميس ثابتة ، عنها يتفرع كل تجديد يحصل عليه ، واليها يرتكز ·

ومعلوم بداهة ، أن لا فن لما لا قاعدة له ، والشعر ـ كما هو معلوم ـ اساسه : الوزن والقافية ، ومتى خلا منهما لم يعد شعرا · وليس في الفنون قيود وانما التزام قواعد اساسية لا يمكن أن يكون الفن فنا ، والشعر شعرا ، الا بها ·· وبدونها تنتفي صفة الفنية عنها ، وتمسي ، بازائها ، ضربا من العبث ·

ان الشعر دقيق نظامه ، يتمثل في (الايقاع المتقابل) بين اشطر ابيات القصيدة الواحدة ، ذات البحر الواحد ·· ذلك الايقاع المتماوج المنبعث عن أنغام تفعيلاته وقد وشيت في آخرتها بنغمة تضفي على موسيقاه ، عذوبة ورقة ·· تلك هي القافية · وعلى هذا الرأي كل الشعراء ودارسو علم العروض · على أنا بالاضافة الى ذلك ، وللتوضيح ، نقول : اننا لا نغفل ذكر شفافية اللقطات وبراعتها ، ودقائق المعاني وجمالها ، التي ينفرد بها شاعر دون آخر ، والتي تأخذ بالاحاسيس هزا والمسامع تطريبا · وهذا هو التجديد حسب مانرى ، لانه لا يتعلق بغير ما ذكرنا ، ولئن تخطاه الى شيء آخر فلن يتناول سوى الموسيقى ، أي البحور ـ وهذا رائع حقا ·· فليأت من يدعي التجديد ببحر جديد أرق فيموسيقاه مما ابتدعه وخلفه لنا الاجداد ·

وثمة حقيقة اخرى ، هي ان القصيدة اساسها البحر لا التفعيلة الواحدة لان هذه ليست وزنا يقاس به ، وانما تدخل في البحر كي يوزن بها ·· ولانها بمفردها « كالكلمة الواحدة لا قيمة لها الا في العبارة · وليس في بناء الشعر الجديد التناسق الذي يتطلبه الشعر » · كما يقول العقاد ·

ان انتفاء التناسق الايقاعي يجعل الكلام منثورا لا منظوما ، والنثر كله خاضع لايقاع ما بحكم الأصوات التي تبعثها مقاطع الكلمات ، الا انه ايقاع غير متجانس ولا منتظم ، اذ أنه مشوش مضطرب يفتقد المقابلة الايقاعية التي يتوفر عليها الشعر ، والتي بها صار شعرا · فقد « تمر شطور كثيرة عفوا اثناء النثر ، فلا تستلفت الاسماع ولا تسترعي الانتباه ، لذلك لا تعتبرشعرا لفقدان المقابلة الايقاعية بينها ، وبين ما قبلها أو ما بعدها من العبارات ، فالسر اذن ليس بايراد شطر وفق شكل ايقاعي ، ولا بايراد بضعة شطور على اشكال متعددة من الايقاع ، ان السر كل السر في قيام المقابلة الايقاعية·· كما قال العلامة ميخائيل ويردي · وهذا خلاف ما لدى الاوربيين ، اذ أن الشعر عندهم يؤخذ «على القدم الموسيقية وسواها من الأقيسة» فهم « يعتبرون كل مقاطع الكلام خطوات متساوية ، مع ان المقاطع عندهم خمسة اشكال متباينة ، فيحشرونها في شعرهم كيفما اتفق ، غير آبهين لترتيبها على أي شكل من الايقاع ·· » على عكس الدقة في الترتيب والنظام اللذين يفيض بهما الشعر العربي ، واللذين « هما سر الجمال الايقاعي ، بل سر الروعة والجمال في أي شيء كان » ·

ولعله من الخليق بنا في هذا الموضع ان نذكر : أنه ما من أمة بلغت حد الاتقان في مجال الشعر كالامة العربية · كما انه « لا توجد عروض في العالم سوى العروض العربية » ·· وان الشعر الحر طريقة مهجنة ، طارئة على الشعر العربي ، وذلك انها مستوحاة من الطريقة الاوربية في النظم ، وهذه تفتقد الخاصة الرفيعة التي توفر عليها الشعر العربي · فتلك اذن ، أي طريقة الحر ، كهذه الاخيرة ، تفتقر الى المزايا الخاصة بالشعر ، والى ما فيه من الروعة والدقة الفنيتين ، بل وعاطلة عنها تماما ، فضلا عن انها تشويه للعروض العربية ، لانها انما تستل التفعيلة من أبحرها فتطلق عليها اسم هذا البحر او ذاك · والى ذلك ، لا تختص بتفعيله بحر معين ، كما يزعم البعض ، اذ قد يلتزم المنشىء في (القصيدة) الواحدة ، طالت ام قصرت ، تفاعيل اكثر من بحر · واذن فان من استهوتهم وتستهويهم طريقة الحر ، فانما هم « يسيرون في منظوماتهم على التوزين العددي » شأنهم في ذلك شأن الاوربيين ·

ولقد ضرب لنا الاستاذ ويردي مثلا على « سماجة النظام العددي وقبحه » في بيتين لابي العلاء فأطلقهما من « الترتيب الايقاعي والقافية » :

غير مجد في ملتي واعتقــادي   نوح بـاك أو صوت شاد تغنى
ان حزنا في ساعة الموت يبــدو   اضعاف افراح يوم ميــلادنا

ثم قال[1] : فوزن البيت الاول مـــن الخفيف (فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن) ولـكنه غير مصرع ، فضاعت روعة القافية في مطلع القصيدة وبدا عيبها ، أما البيت الثاني فان صدره من الوزن ذاته ، اما عجزه فمن بحـر المنسرح ووزنه (مستفعلن مفعولات مستفعلن) • ومع ان الوزن يساوي بالتمام (فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن) من جهة عدد المقاطع ومددها الزمنية الا انه يختلف عن ايقاع الخفيف بترتيب تلك المقاطع كما هـو واضح ، فورود هذين الشطرين معا في بيت واحد ، او قصيدة واحـدة ، يخالف النظام الايقاعي حتى تشمئز النفوس ، مع أنه لا يخالف النظام العددي الذي يتبعه الافرنج •• والعرب يسمون هذه المخالفة كسرا ، وتشويها في الميزان •• وان كل شطر من هذين البيتين المحطمين يشتمل على اثنى عشر مقطعا بصرف النظر عن ترتيبها ، لذلك ضاعت منها بهجة الايقاع التي نحسها في اصلهما السليم :

غير مجد في ملتي واعتقــادي   نـوح بـاك ولا تـرنم شــاد
ان حزنا في ساعة الموت اضعـا   ف ســرور في ســاعة الميــلاد

ولاحظ هذه الرنة الايقاعية ، فهي غاية في الدقة ، حساسة جــدا ، تتبين بوضوح لكل ذي حس مرهف بمجرد اضافة[2] « حـرف متحرك او حذفه •• وليس فقط بوضع تفعيلة مكان اخرى •• وعندئذ يتحول البحر عن اصله الايقاعي الى ايقاع بحر آخر ، كما في حذفنا نقرة واحدة من بحر الطويل تصيره الى الـكامل • » ولا اثر لهذه المزايا في التوزين الافرنجي ، الذي يستند الى تعديل النقرات بتوحيد مددها الزمنية ، اي بتطويل لفظ القصير وتقصير لفظ الطويل ، حتى تظهر متساوية بالمط والرص •• » مما يبعث على « الفوضى والتشويش في النفوس بصورة لا شعورية ، عدا عن انه يفيد التقييد والتضييق ، بعكس النظام الايقاعي الذي يفيد التحـرر والانطلاق •• »

ومن هنا جاءت تسميتنا للشعر الحر بانه طريقة مهجنة • وفـوق ذلك فانها تسير قسرا بفعل اشياء براقة الصقت بها ، وما هي بنابعة من ذاتها • وهذا هو كل شيء فيها ، بالاضافة الى انها لم تصب من الفنية أي نصيب • فالقول بان الشعر الحر فن ، إلا انه يقتضينا أن نصبر عليــه زمنا كي تألفه اسماعنا ، ويقع في اذواقنا ، قول متداع متهافت في ذاته • ذلك ان المفروض في الشعر ان يستحوذ على الاسماع ، فيمتلك على المرء مشاعره في ان قراءته أو سماعه ، وليس للزمن اثر في فنيته وشاعريته ،

ان لم يكن هو من الشعر في شيء • وبضربنا مثلا ، قصيدة من منظوم الكلام لا يبرز انعدا مالشعر منها ،كونها وليدة البارحة او لسنوات خلت ،البتة ولعل في اعادتها على مدى زمن غير محدد ، يزيد الى انتفاء الشاعرية عنها ، سماجة ، ويفاقم في النفوس نفورا واشمئزازا ، وهذا هو القريب من الذهن والشعور •• وهو قول ، فضلا عن انه يفضح قائله ، بـل قائليه الذين يتكاثرون يوما بعد يوم ، اذ لم يعد لديهم حجة تقوى على الوقوف ـ كالقول القائم في الاساس على افتراض مفاده : أنه لو كان جاءنا من الشعر الجاهلي، فهل اننا لا نعتبره شعرا ؟ وكلاهما غريب كما ترى • وانما الاكثر غرابة انه ليس فقط محض افتراض ، بل لا يقوم في عقل احد من الواهمين ،فضلا عن سائر الناس ، فضلا عن مبتدئي التعلم ، فضلا عن الدارسين الباحثين•

وآية ذلك تعرف بالبداية ، ذلك ان استقاء الاسناد لأمر ما يراد اثبات صحة وجوده ، تؤخذ بالشواهد والقرائن التي تربط هذا وذاك من الادلة بخيط أيا كانت قوته • فاذا انعدمت هذه القرائن ، او تلك الشـواهد ، سقط الافتراض ، وهوى مفتتا يخلو من أي نزع أو رمق • فمـا بالك بافتراض يشبه قول القائل : اننا باستعادتنا منقار نسر ، ثم في افتراضنا اننا استبدلناه بمنقار عصفور ، وبالضد ، وهكذا شأن اعضائهما الاخرى، اما يسمى النسر عصفورا وبالعكس ؟•• على حين ان شيئا من هذا لا يعقل لانه لا يخطر على بال كل احد باستثناء مخيلة الواهمين المتنمطقين الذين يرون على طريقتهم الخاصة : أنه لو كان هنالك جدول شق مجراه الى جانب نهر عظيم المياه ، عذبها •• وفيه ، زيادة على ذلك ، ماء من غير ماء النهر افلا يحق لنا أن نسميه نهرا ـ ايضا ؟•• فهكذا قول القائل بذلك •• على انها صورة تقريبية التمسنا فيها التوضيح كي نكشف عما يزعمون • فان دجلة والفرات والنيل ، مثلا ، لا ترافق مجاريها أية جداول ، فاذا جئنـا فزعمنا انها كذلك ، وهي في الواقع غير ذلك ، ثم شئنا ان نكسب الجداول أوهاما من عظمة توازي عظمة تلك الانهار ، فهل ترانا أحدثنا ، فاثبتنا ، حقيقة من فيض وحي خيال لا معقول ؟!•• ابدا •• ذلك هو قول الحقيقة وقول كل من يعقل •

•• ومن ناحية اخرى فان شعر التفعيلة شعر اعرج لا يقوى عـلى الوقوف بموازاة اي بحر من الابحر العربية ، فضلا عن الجري مع سيلها الموسيقى ، المتناسق والمتواصل الانسياب • وخبر ذلك أنه ـ اي الحر ـ لا يتسع لتفعيلات جميع البحور ، فبعد اقتطاع تفعيلات كاملة من بعض الابحر ، الى جانب ارهاق في تزحيف تفاعيل بعض اخر ، تتشكل نسبـة من (البحور) التي تمكنهم من النظم فيها ـ لا تتجاوز النصف بأي حال ، كما قال بذلك علم العروض وذكره غير واحد • وهنا يقوم في الذهن سؤال

لانحسب أحدا أوشك أن يفكر في الاجابة عليه، الا وارتعد تلقاء قوله «التجديد» .. سؤال يفرض نفسه بازاء التجاهل المقصود، ملخصه : كيف، وماذا نصنع بالثمانية أبحر الباقيات ؟!.. انسقطها من حساب علم العروض لبريق عيون التجديد الكاذب ولمعانها الزائف ! ، وليس يعتريها أو يوشك ان يتطاول الى الذهن أدنى شك بفساد أقل القليل منها ، بل انها لتتجلبب ثيابا فضفاضة زاهية ، وهي على وقفتها الشماء ، ناشرة على الشعراء وكل ذي حس مرهف ، أقصى أقاصيها .. وانما يأتيها التشكيك من غرب هذه الارض ، وغداة تكون فشت أجزاء الدعوة المرسومة بأحكام ، المسربلة بأردية براقة جذابة ، والمنفذة بكل دهاء واتقان .. كما نشهدها في اثر كل ليلة وضحاها .

ولعلنا بتتبعنا وذكرنا خطوطا هي في الواقع خفية شيئا ما ، من جراء طمس معالمها تحت طائل من الالفاظ الخلابة كالتجديد ، ومقتضى روح العصر والانطلاق والتعمق .. الخ .. كل ذلك بازاء التقبيح المتعمد للشعر العربي - لعلنا نلقي بعض الضوء على المقاصد والاغراض المغلفة عن سابق تصميم واتفاق .. فمن اضفاء الشاعرية على (المرسل) وجعله الاول والاخير في محاولة لحجبها عن المقفى ، الى هذه الصرخة التي انفجرت في صدر واحد غير مجهول السيرة ، فجرت على قلمه :(٣) «حطموا عمود الشعر . لقد مات الشعر العربي ، مات عام ١٩٣٢ ، مات بموت احمد شوقي . مات ميتة الابد . مات » .. الى شعر التفعيلة الذي اعقبته (قصيدة النثر !) التي كان من مخاضها أن أنجبت أشوه وليد الصق بالفنون ، وقد كان اخر البدع ، ذلك هو : شعر بنثر .. الى ما لا ندريه من (جديد يولد ! في قابل الايام !. اقول : لعلنا بذلك نستطيع ان نكشف عما تخفيه الاقنعة البراقة من مرام واضحة بينة .

وثمة كلمة يقتضينا توضيحها ، هي ان التجديد بالاضافة الى انه شيء كامن في ذات البشر ، أي انه حتمي ، فهو عند اصحاب النظر انما يقوم جملة وتفصيلا ، على اضفاء رائع من الروح والجمال في كل فن من الفنون ، وتشييد ذلك بمتانة وعلى نواميس راسخة الاصول ، متماسكة الدعائم والغصون .. وما الاتلاف ، عند كل ذي بصر وبصيرة ، من التجديد في شيء . وانما هو عين التبديد والتخريب . والا أفيقوم لاحد ان يسمي هادما نصفا من قلعة أو دار لا تضاهيها في الدنيا من مثيل - ان لم نقل نصف المثيل - ثم يجعل يبيح وطأها لكل غاد ورائح ، طفلا أو شيخا كان ، أو من بينهما .. افيقوم له ان يسمي ذلك تجديدا ؟. اما نحن فلا نخاله ، وعلى أخف الكلمات ، الا تبديدا . والا ، فبماذا نصف الاجهاز على ، واتلاف النصف من فن هو في حد ذاته أرفع الفنون الادبية ، بدعوى التجديد الذي

يرتعش على قدم كسيحة ، هجينة ومشلولة في الان ذاته ؟! وثم ، بماذا نفسر كل ذلك ؟! هذا ما ينبغي الاجابة عليه من قبل كل واحد من ابناء جيلنا الشاب المتطلع الى التجديد ، قبل ان يغرق في التبديد مأخوذا بجاذبية الكلمات وبريقها المداف بزخم المعنى الخفي لكلمة التجديد التي نحسبها تئن وتتضور لفرط حرفها ، وشدة لوي رقبتها ، عن مفهومها الرائـــع العميق . ان الانسان نزاع بطبعه الى التجديد ، ولكن قليلا من الريث والاناة .

---

(١) بتصرف من مقالة للعلامة ميخائيل خليل‌الله ويردي ـ مجلة المعرفة ـ السنة الاولى ـ العدد السادس ممتاز .

(٢) نفس المصدر السابق وبتصرف أيضا .

(٣) نقله عن « بلوتولاند وقصائد اخرى » للويس عوض ، وناقشه ، العلامة المحقق محمود محمد شاكر ، وذلك في العدد ١٠٩٤ من مجلة الرسالة القاهرية .

وهو تعبير يقتضينا ان ننعم فيه ، وان نحصي كلمة (الموت) المكررة ومشتقاتها ،ومن ثم نضيف عليها فعل الامر : حطموا ، فنستدل على ما بباطن التعبير القصير جدا ، وظاهره . وفي العدد نفسه كلمة للاستاذ محمد مصطفى بعنوان (العقاد والشعر الجديد) .

(٤) .. مرجع آخر هو (حياة قلم) ـ للمرحوم عباس محمود العقاد .

● ● ●

من مطبوعات مديرية الثقافة العامة

صدر :

- النظام القانوني للمؤسسات العامة والتأميم في القانون العراقي

  تاليف : **حامد مصطفى**

- علي محمود طه الشاعر والانسان

  تاليف : **أنور المعداوي**

ترف الحياة الجاهلية

حمدي علي

هل كانت المرأة في الجاهلية تعاني ما يعانيه الرجل من خشونة الحياة وشظف العيش ؟ .

فقد نقرأ لشاعر جاهلي ؛ أيما شاعر ، ما يدل على فقر مدقع ، وقناعة في العيش ما فوقها قناعة ، وقد نقرأ تاريخ العرب الجاهلية ، فلا ينبئنا بأحسن مما نقرأه في الشعر عن عيشهم ، وفقرهم . يقول أحد الشعراء :

من كان ذا بت فهذا بتي مصيف ، مقيظ مشتي(١)

وقد نقرأ قول الحطيئة الآتي ، فلا تخرج الا عن قناعة بما لا يقل عما تقدم من فقرهم لدرجة السغب ، وظهورهم بمظهر جاف ، خشن ، مزر ، مشق :

ثلاث شخوص ما اغتدوا خبز ملة
ولا عرفوا للبر مذ خلقوا طعما(٢)

ونجد غير هذا وذاك كثيرا من الاخبار تنبيء عن عيشة الرجل في الجاهلية عيشة كفاف وفقر وحرمان ... حتى ان بعضهم كان يئد ابنته وهي حية ، وان لم يكن الوأد من قلة الرزق ، وانما للخوف من العار الذي قد تجلبه البنت الم ينههم الله سبحانه وتعالى عن ذلك بقوله جل شأنه : « واذا الموؤدة سئلت بأي ذنب قتلت »(٣) .

ولكن اذا كان وأد البنات ليس من اجل الرزق ، فهناك تأكيد في القرآن الكريم على أن بعضهم كان يقتل اولاده خوف الفقر والمسغبة ، فقد جاء في محكم كتاب الله نهي صريح عن قتل الاولاد : « ولا تقتلوا اولادكم خشية املاق ،نحن نرزقهم واياكم ، ان قتلهم كان خطا كبيرا »(٤) .

فاذا كان بعض الاعراب يقتلون اولادهم خوف الفقر ، الا يدل ذلك دلالة قاطعة على فقرهم وقلة مواردهم ، وجدب أراضيهم ، حيث يقل فيها الكلأ وقد ينعدم فيها الزرع فيهلك الضرع ؟

وكنتيجة لما تقدم نشأت لدى البدو ، بصورة عامة ، عادة الغزو ، لا حبا باراقة الدم ، ولا رغبة في اثارة الهلع والفزع في النفوس ، وانما نشأت عادة الغزو لفقرهم ، وجوعهم ، فصاروا يأكل بعضهم بعضا ، كالبعير ان جاع رجع الى حدجه ليأكله • ولذا راحت القبائل البدوية في الجاهلية يغزو بعضها البعض الآخر ، فتغير القبيلة على القبيلة الاخرى فتنهب ما عندها من خيل وابل وشاء ، وكل ما تقع عليه اليد ، وما تراه العين • وبذلك أصبحت الجزيرة العربية ، من جراء هذا الغزو ، وما يليه في حروب طاحنة ، وما ينبعث عنه من قتال مرير أتونا يشتعل أواره طيلة أيام السنة • وقد حاول العقلاء منهم تخفيف هذه الحروب ، ولو لمدة ، فأوجدوا الشهور الحرم • وهي اربعة اشهر : ذو القعدة وذو الحجة ومحرم • ورجب ، وبذلك تمكنوا من درء الحروب والغزو ولو في مدة محدودة من السنة •

ولكن أنجحت تلك الفكرة ؟ ألم يتعدها العرب ؟ ألم يكسروا نظامها فيغزوا وينهبوا ويسلبوا في تلك الشهور المعروفة ؟ بلى ، كانت بعض القبائل تغزى ، وتنهب اموالها ، وتصبح بلا ماشية ولا مال ولا حلال • ولا اى شيء يقيم اودها ؟ وقد يقع ذلك قبيل احد الشهور الحرم بقليل ، وربما يطل عليهم هلال احد تلك الشهور بعد انتهابها بيوم أو بيومين ، فما تفعل القبيلة المغزوة المنهوبة المسلوبة ؟ وكيف تعيش طيلة مدة الشهور الحرم ؟ قيل قديما : الحاجة أم الاختراع ، ولذا لجأت بعض القبائل في مثل تلك الظروف القاسية الى الحروب والغزو والنهب والسلب في الشهور الحرم ، وتأجيل تلك الشهور ، وابدالها بشهور اخرى غيرها حين يخرج شيخ القبيلة ويقف على ما نشز من الارض ويصيح بأعلى صوته ، حتى ولو لم يسمعه أحد : « ايها الناس انا قد حللنا القتال في شهر محرم مثلا وحرمناه في شهر ربيع الاول » • فتذهب قبيلته الى الغزو • وتفعل مثل هذه الفعلة كل قبيلة مغزوة ، وعليه عادت الحروب الى ما كانت عليه ، ولم تؤثر فيهم الشهور الحرم • ولذا وبخهم الله جل شأنه في محكم كتابه المجيد على فعلهم ذلك بقوله : « انما النسيء زيادة في الكفر يظل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله ، فيحلوا ما حرم الله »(٥)•

وعليه فقد كان البدوي يعاني أقسى أنواع الحرمان ، وأفظع أنواع الفقر والجوع والعرى •

ونعود الى السؤال السابق : هل كانت المرأة الجاهلية تعاني ما يعانيه الرجل من خشونة الحياة وشظف العيش ؟ •

والجواب عن هذا السؤال لا يحتاج الى اعمال فكر ، ولا الى كثير تأمل • لان المرأة تشاطر الرجل في كل شيء ، في السراء والضراء ، فهي سعيدة ان كان هو سعيدا • وهي فقيرة بائسة محرومة أو معدمة ان كان هو كذلك ، فهذا شيء طبيعي جدا •

ومع ذلك ، فاذا قلنا : ان الرجل الجاهلي كان فقيرا بائسا ، ليس معنى ذلك أن جميع العرب كانوا فقراء بؤساء ، بل فيهم الغني الموسر ، ألم يبذل المريان « الحارث بن عوف ، وهرم بن سنان » أربعة آلاف بعير من حر مالهما في اصلاح ذات البين بين عبس وذبيان في حرب داحس والغبراء ؟ اذن كان بعض العرب في خير كثير وفي رغد من العيش ٠

أضف الى ذلك أن بعض العرب تتحسن أحوالهم ، وخاصة في فصل الربيع ، فيما اذا كانت السنة مربعة معشبة ، حين تتوالد ابلهم واغنامهم وخيولهم وتسمن من كثرة المراعي ، فيبيعون ويشترون ما يحتاجون اليه ٠ وبذلك تطيب لهم الحياة وتتحسن احوالهم ، ويصبحون في دعة وطمأنينة وسعادة ٠

والانسان سرعان ما ينسى فقره وحرمانه ، فيغتنم فرصة غناه ليعوض عما فاته من فقر وحرمان ، فيبادر الى الانس ، والملذات ، والترويح عن النفس بالغناء والشراب ، وسماع آلات الطرب ، وما شابه ذلك مما يتوفر في تلك الايام الخوالي : اسمع قول اعشى قيس وقد طابت نفسه ، ومضى مع جماعة من أصحابه الى احد الحوانيت فشربوا الخمرة على أريج الرياحين، وسمعوا الغناء ترجعه لهم مغنية جميلة لطيفة الاداء رخيمة الصوت :

وقد غدوت الى الحانوت يتبعني   شاو مشل شلول شلشل شول(٦)
في فتية كسيوف الهند قد علموا   أن هالك كل من يحفى وينتعل
نازعتهم قضب الريحان متكئا   وقهوة مزة راووقها خضل(٧)
لا يستفيقون منها وهي راهنة   الا بهات وان علوا وان نهلوا(٨)
يسعى بها ذو زجاجات له نطف   مقلص اسفل السربال منتعل(٨)
ومستجيب تخال الصبح يسمعه   اذا ترجع فيه القينة الفضل(١٠)
من كل ذلك يوم قد لهوت به   وفي التجارب طول اللهو والغزل

* * *

فاذا كان بعض العرب في الجاهلية على هذه الحال من الانس والطرب وعلى تلك الحال من الغنى التي صورناها في غنى الحارث بن عوف وهرم بن سنان ، فمما لا جدال فيه أن نساء هؤلاء المستمتعين بالحياة وأولئك المترفين مترفات ، متنعمات ، في حياتهن أيضا ٠

واذا كان بعض رجال العرب محبي لهو ومجون ، ومغتنمي فرص اقبال الزمان ومواتاته ، فان كثيرا من النساء كن على شاكلتهم ، يبادرن الى الانس والطرب ، وارتشاف مناهل السعادة والسرور عندما تحين أول فرصة ٠

أضف الى ما تقدم أن المرأة ، بطبيعتها ، ميالة الى اقتناص المتسع والملذات ساعية وراء عواطفها واهوائها ، محاولة أن تظهر بالمظهر الانيق فتغدو مكتحلة ، وتمسي معطرة :

وتضحي فتيت المسك فوق فراشها نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل[١١]
اذا التفتت نحوى تضوع ريحها نسيم الصبا جاءت بريا القرنفل

كما أن بعضهن كن غنيات يعشن بين الارائك والستور ، فهن بيضات خدور لا مكافحات من أجل لقمة العيش وسد الرمق :

وسبتك حين تبسمت بين الاريكة والستارة[١٢]

كما أن بعضهن يجتلبن الحسن ، فيختلبن الالباب به ، فتذهب بعضهن الى الخضاب :

وأرتك كفا في الخضاب وساعدا مثل الجبارة

أو كقول الآخر :

سقط النصيف ولم ترد اسقاطه فتناولته واتقتنا باليد[١٣]
بمخضب رخص كأن بنانه علم على أغصانه لم يعقد

كما أن بعضهن كن يتحلين بأنواع الحلي ليفتن العشاق برونقهن وحليهن :

تسمع للحلي وسواسا اذا انصرفت كما استعان بريح عشرق زجل[١٤]

أو كما يقول الآخر :

وجيد كجيد الرئم ليس بعاطل اذا هي نصته ولا بمعطل[١٥]

أو كقول الآخر :

وجيد كجيد الرئم ليس بعاطل من الدر والياقوت والشذر حاليا[١٦]
كأن الثريا علقت فوق نحرها وجمر غضا هبت له الريح ذاكيا

علم أن بعضهن كن يزدن في هذه الحلي فينضدن منها ما شئن وشاء لهن ترفهن وحبهن للتزين والتبرج :

وفي الحي أحوى ينفض المرد شادن مظاهر سمطي لؤلؤ وزبرجد[١٧]

وبعضهن كن يرتدين الفساتين الواحد فوق الآخر ، كما تفعل النساء في عصرنا الحاضر حيث يلبسن الأتب (الاتك) الخفيف تحت الفستان : يقول طرفة :

نداماي بيض كالنجوم وقينة تروح علينا بين برد ومجسد[١٨]

وفي الوقت الحاضر نرى بعض النساء يجعلن لفساتينهن فتحة عند الصدر اسفل النحر ، فبعضهن يجعلن هذه الفتحة صغيرة ، وبعضهن يجعلنها واسعة ، أو نازلة الى اسفل ، اما لاظهار عفاتن الصدر والنهدين ، واما

للزيادة في الاناقة والظرف والاثارة • ومثل ذلك كانت تفعل بعض نساء الجاهلية :

رحيب قطاب الجيب منها رقيقة بجس الندامى بضة المتجرد[١٩]

والمغنية منهن تعرف ان الزعيق في اداء الغناء قد يشنج عروق الرقبة حيث تنتفخ اوداجها وبذلك يتشوه جمال جيدها • فماذا تعمل المغنية آنذاك لتتحاشى ذلك ؟ اسمع طرفة يجيبك على ذلك :

اذا نحن قلنا: اسمعينا انبرت لنا على رسلها مطروقة لم تشدد[٢٠]

كما ان بعضهن كن يحسن التمتع في الحياة ، فيتعطرن ، ويتأطرن ، ويتانقن ويتفنن في تنويع الالبسة ، وفي تنويع أشكال الوانها ليظهرن زاهيات زاهرات فاتنات ، يقول زهير :

تبصر خليلي هل ترى من ظعائن تحملن بالعلياء من فوق جرثم[٢١]
جعلن القنان عن يمين وحزنه وكم بالقنان من محل ومحرم[٢٢]
وعالين أنماطا عتاقا وكلة وراد الحواشي لونها لون عندم[٢٣]
ووركن في السوبان يعلون متنه عليهن دل الناعم المتنعم[٢٤]
كأن فتات العهن في كل منزل نزلن به حب الفنا لم يحطم[٢٥]
وفيهن ملهى للطيف ومنظر أنيق لعين الناظر المتوسم

* * *

على أن بعض الفتيات كن يتعاطين لهوا بريئا وان كان فيه تماجن وفيه حماقة • فقد كن يخرجن ليلا خارج القبيلة وذلك في فصل الصيف وعلى ضوء القمر ، فيجلسن على الرمل ، ومعهن أحباؤهن ، ويأخذ الجميع في السمر أو الانصات الى الغناء أو سرد القصص عن انتصارات القبيلة وشجعانها وما شابه ذلك ، ويستمر المتسامرون يغنون ويرقصون حتى اذا ما اخذت بعضهن سكرة الهوى عمدت الى ملابسها وطفقت تمزقها أو يمزقها عنها اصدقاؤها أو صديقاتها : اسمع قول شاعرهم :

كأن الصبيريات يوم لقيننا ظباء حنت اعناقها في المكانس[٢٦]
ومن بنات القوم ان يشعروا بنا يكن في بنات القوم احدى الدهارس[٢٧]
فكم قد شققنا من رداء منير ومن برقع عن طفلة غير عانس[٢٨]
اذا شق برد شق بالبرد برقع دواليك حتى كلنا غير لابس

وكذلك كان من ترفهن في مجالس الانس والسمر أن تعمد الواحدة منهن الى انتزاع خاتم الاخرى فتضعه في اصبعها كذكرى لذلك المجلس ، ثم تعمد غيرها اليها فتنتزع خاتمها أيضا كما فعلت هي في غيرها ، وهكذا تفعل الاخريات • وقد لا يكتفين بالخواتم وانما يأخذ بعضهن من بعض اشياء خفيفة أخرى كالمناديل ، أو المساويك ، او ما شابه ذلك :

تعاورن مسواكي وأبقين مذهبا ‏ ‏ ‏ من الصوغ في صغرى بنان شماليا(٣٤)
وقلن ألا يا العين ما لم يردنا ‏ ‏ ‏ نعس وفانا قد أطلنا التنائيا

وقد يطول بهن السمر ، فتستمر مجالسهن الى الفجر . وهذه نقطة جديرة بالملاحظة : فان السمر الى الفجر لا يتعاطاه الا المحترفون ، أما المتعبون ، أو الذين يبكرون الى اشغالهم فليس في امكانهم السهر والسمر الى وجه الصباح :

وما رمن حتى ارسل الحي داعيا ‏ ‏ ‏ وحتى بدا الصبح الذي كان تاليا(٣٥)
وحتى استبان الفجر اشقر ساطعا ‏ ‏ ‏ كأن على أعلاه سبا يمانيا
فأدبرن يخفضن الشخوص كأنما ‏ ‏ ‏ قتلن قتيلا أو أصبن الدواهيا
وأصبحن صرعى في البيوت كأنما ‏ ‏ ‏ شربن مداما ما يجبن المناديا

وكانت بعض الفتيات مولعات باستعمال الروائح من المسك والعنبر والمندل الرطب وغير ذلك :

توسدني كفا وتثني بمعصم ‏ ‏ ‏ علي وتحوي رجلها من ورائيا(٣٢)
وهبت لنا ريح الشمال بقرة ‏ ‏ ‏ ولا ثوب الا بردها وردائيا(٣٣)
فما زال بردي طيبا من ثيابها ‏ ‏ ‏ الى الحول حتى انهج البرد باليا

وكن يتفنن في استعمال الامشاط ، وتفضل المترفات منهن استعمال الامشاط من عظام الفيلة (عظم عاج) :

مراجلنا من عظم فيل وشم تكن ‏ ‏ ‏ مراجل قوم من حديد القمماقم

* * *

هذه بعض وسائل اللهو والترف لدى المرأة الجاهلية .
فماذا نستنتج مما تقدم ؟ نستنتج ما يلي :

١ ـ ان المرأة الجاهلية لم تكن متعبة ، مجهدة دائما كما يتبادر الى الاذهان .

٢ ـ ان وسائل ترف المرأة الجاهلية بريئة ، بسيطة ، بدائية الغاية . فهي تتكحل وتتعطر ، وتلبس الحلي ، وتغنى وترقص في ساعات الفرح ، وتنام الى الضحى . وقد تنام في الاكلة على السرر أو على الارائك ، أو قد تخرج مع حبيبها أو مع صويحباتها ليلا للسمر ، وقد يطول هذا السمر الى وجه الصباح . وقد تنضد الحلي على صدرها . أو تنوع بأثوابها ، وقد تمزق ملابسها من الفرح حينما تأخذها نشوة الطرب ، وقد تركب في الهودج ، الخ الخ ...!

٣ ـ لم تردنا نصوص ولا أخبار اكيدة تفيد بأن المرأة الجاهلية تتعاطى الخمرة .

٤ ـ كما لم تردنا نصوص ولا اخبار اكيدة تفيد بأن المرأة الجاهلية كانت تقامر ، الا ما قيل عن هذه بأنها قامرت حتى خسرت كل شيء عندها ، وأخيرا لم تجد ما تقامر عليه غير زوجها فقامرت عليه فخسرته ، فلما سمع زوجها بالخبر ذهب فافتك نفسه من قامر زوجته · ولكن ذلك لم يتأيد ، ولذا وجب الا نأخذه دليلا على أن المرأة الجاهلية كانت تقامر ·

---

(١) البت : الثوب من الصوف ·

(٢) الملة : النار · البر : الحنطة ·

(٣) الموؤدة : المدفونة وهي حية · سورة التكوير ؛ الآية الثامنة والتاسعة ·

(٤) الاملاق : الفقر · سورة الاسراء ، الآية الحادية والثلاثون ·

(٥) النسيء : التأخير والمماطلة ، سورة التوبة ، الآية الثامنة والثلاثون ·

(٦) الشاوي : الذي يقوم بشواء اللحم · المشل : الخفيف · شلول : السريع · الشلشل : النظيف · الشول : حمال اثقال ··· هذه الالفاظ على العموم تعطي معاني متقاربة وهي الخفة والسرعة في الخدمة والقيام في الاعمال على احسن ما يرام ·

(٧) الراووق : اناء الشراب · الخضل : الرطب ·

(٨) النهل : اول ارتشاف الخمرة وكل شراب · العل : شربها بعد ذلك عبا ·

(٩) النطف : الاقراط · السربال : الرداء ·

(١٠) الصنج : الطاسات التي تضرب الواحدة في الاخرى لتؤدي رنة موسيقية · ترجع : تردد · القينة : المغنية ·

(١١) البيتان لامرىء القيس · الانتطاق : الاحتزام · التفضل : الالبسة الفضفاضة · ومعنى ذلك : أن هذه المرأة ذات ذوق ، وأناقة ، فهي ترتدي الملابس المفصلة على جسمها وليس بها ادنى زيادة · تضوع : تارج · الصبا : الريح الطيبة ·

(١٢) البيت وما بعده لاعشى قيس · الجبارة : السوار العريض · والجبارة اداة التجبير·

(١٣) البيتان للنابغة · العنم : نوع من التمر احمر ·

(١٤) البيت لأعشى قيس · العشرق : نبات · زجل : ذو صوت وغناء ·

(١٥) البيت لامرىء القيس · ليس بفاحش : طوله معتدل · نصته : رفعته · معطل : خال من الحلي ·

(١٦) البيتان لسحيم عبد بني الحسحاس · الغضا : نوع من الشجر مشهور بقوة جمرته·

(١٧) البيت لطرفة · الاحوى : الابيض · المرد : ثمر الاراك · شادن : غزال · مظاهر : منضد · السمط : القلادة ·

(١٨) تروح : تذهب اليهم مساءا · البرد : الثوب الفوقاني · المجسد : الاثب « الاثك »

(١٩) البيت لطرفة أيضا · رحيب : واسع ، القطاب : الشق · الندامى : الاصدقاء على الخمرة ·

(٢٠) على رسلها : على سجيتها · مطروقة : هادئة ·

(٢١) الظعائن : النساء الراكبات في الهوادج · ثم اطلق ذلك على كل امرأة مسافرة · العلياء وجرثم : اسماء أماكن في جزيرة العرب ·

(٢٢) القنان اسم مكان · الحزن : ما ارتفع من الارض ·

(٢٣) الانماط : الانواع • العتاق : الجيدة • النفائس من كل شيء • الكلة : شبه الخيمة • الوراد : لونها بلون الورود يميل الى الحمرة • العندم : نوع من التمر أحمر •

(٢٤) وركن : ركبن الابل او غيرها وجلسن على اوراكهن ، والتوريك : نوع من الركوب تكون فيه الرجلان الى جانب واحد • والتوريك : تركه خلفه ايضا • السوبان : واد • المتن : الارض المرتفعة • والفجر في متن يعود الى السوبان •

(٢٥) العهن : الصوف المصبوغ • الفنا : شجر ثمره حب أحمر وفيه نقط سود •

شبه الشاعر ما وقع من الظعائن من صوف مصبغ ونحوه بهذا الحب الذي لم يكسر •

(٢٦) البيت وما يليه لسحيم • الصبيريات : الفتيات المنسوبات الى قبيلة صبيرة • المكاني : مكان الغزلان الذي تأوي اليه مثل الخدر للمرأة ، والعرين للاسد •

(٢٧) الدهارس : الدواهي ، واحدتها دهرسة •

(٢٨) المنير : الثوب المعلم • الذي عليه علامة • الطفلة : الصغيرة اللينة • العانس : الكبيرة التي فات اوان زواجها •

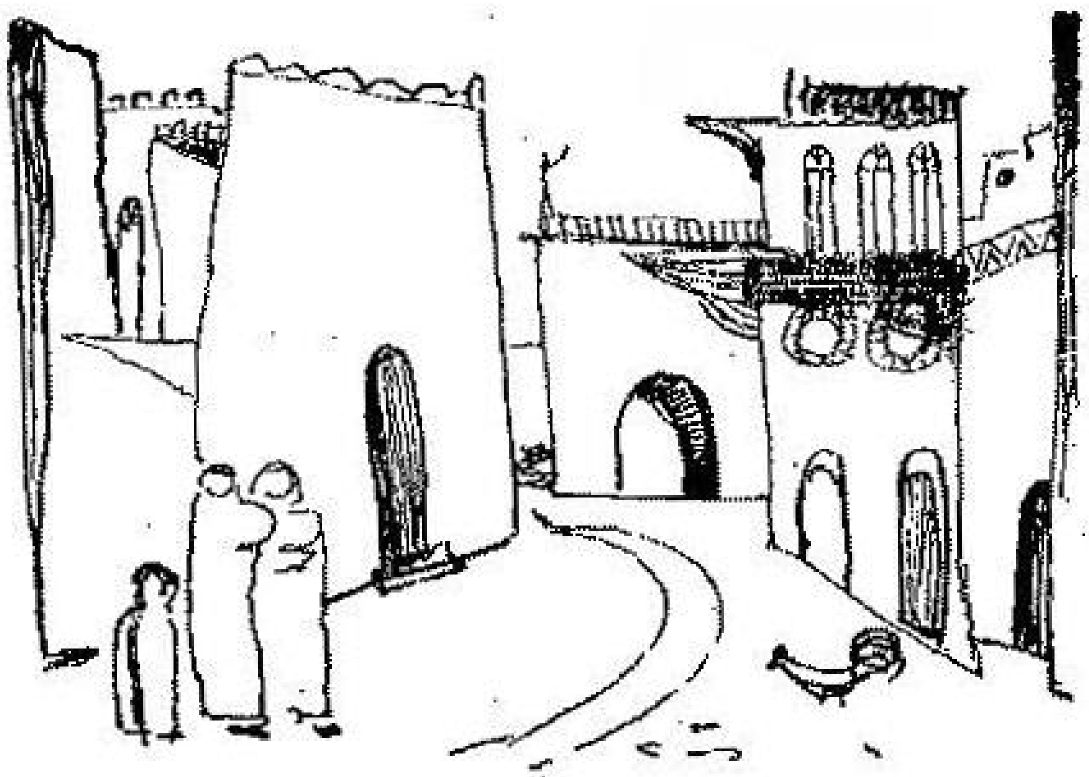
(٢٩) البكتان لسحيم • تعاورن : اخذن على سبيل الاعارة • المسواك : عود يؤخذ من شجر الاراك لتنظيف الاسنان وكان يستعمل بمكان الفرشاة • المذهب : الخاتم المصوغ من الذهب •

(٣٠) البيت لسحيم • رمن : لبثن •
وما يليه

(٣١) المصب :

(٣٢) تحوي : تثنى •

(٣٣) القرة : الباردة • نهج : الخلق •



البلاد التي تعانق الشمس

ريكان ابراهيم

ادن مني يا أسمر اللون وأسمع   قصة الأرض حينما تتفجر
في بلادي يعيش شعب ٠٠ تحدى   ألف طاغ ، وبالدماء تحرر
في بلادي شعب يخاطب ٠٠ فجرا   هو أقوى من ظالميه واكبر
البلاد التي أحب ٠٠ ثراها   بالبطولات والمآثر ٠٠٠ تزخر
يا حبيبي ، تعانق الشمس دوماً   وتغني الاجيال لحنا منور
في بلادي – وكل ما في بلادي   يا حبيبي وحق عينيك – يسحر
شيء لليل أن يطول ويناى   عن ربانا صبح عظيم ٠٠ معطر
فاذا النور في الفضا يتلاشى   واذا الركب بالخطى ٠٠ يتعثر
فنسينا شيئا يسمى « رخاء »   حين أمست شمس الضحى تتكور
وسرى الصمت مثقل الخطو ينبي   ان طهراً بسيف حقد سينحر
وتناسى الطغيان أن بلادي   – مهد أسمى حضارة – لا تقهر
يا رعى الله شعبنا يوم نادى :   أنا كون لا بد أن يتغير
٠٠ ورسمنا نهاية الحقد ٠٠ فينا   يوم ثرنا على خلائف قيصر

●

النتاج الجديد

عروبة المدن الاسلامية

نظير زيتون

هوذا كتاب بكر في موضوعه ، صاف في ينبوعه . اصيل في مصنوعه ومطبوعه . وارف في افانينه ومجموعه . مشرق في مصروفه وممنوعه . شامخ في مخفوضه ومرفوعه . بجيل في غريبه ومسموعه . طريف فذ في تابعه ومتبوعه . عربي في حرفه وعقله وضلوعه . جليل في طلوعه وسطوعه . حفيل في بخوره وشموعه ، وآيات وجده وولوعه ، وتجويد فصوله وفروعه .

انه كتاب « عروبة المدن الاسلامية » الذي قيد أوابده ، وحقق شوارده واستثنى روافده وانتخل شواهده العلامة الاستاذ ناجي معروف عميد كلية الاداب في جامعة بغداد ، وقد جاء فتحا جديدا ناطقا بفضل الحضارة العربية الباذخة التي خلفت تراثا فكريا رائعا . كما انشأت بما شيدته من المدائن تراثا عمرانيا راسخا جامعا . يرد الطرف نشوان خاشعا . ويجلجل في السمع مدويا قارعا ، ويملأ التاريخ تياها ناصعا . ويسكب على مفرق الزمن عطرا ضائعا . وينشر على الشعوب نورا ساطعا .

وآية هذا الكتاب الجليل في بحثه الفريد الاصيل ، ان صفحاته لا تزيد على ثمانين ، ولكن هذه الصفحات القليلة هي حصيدة ستة وثلاثين مؤلفا تقع في أكثر من مئة وعشرين جزءا وكان أمرا شديد العسر والعناء ، أن يغوص المؤلف على الدرر في الدأماء ، وينتزعها من جوف الظلماء ، ويزفها تحفة تاريخية تهز خواطر الالباء . وتثير الاعجاب والاطراء .

نعم ، وانه لصعب أن تقع العين على جنة فسيحة الارجاء ، سامقة الاغصان رفافة الأفياء ، عبهرية الانفاس والانداء ، شهية الثمار سخية العطاء ترادفت فيها الفواكه بيضاء في حمراء ، وصفراء في خضراء ، في طعوم وألوان وبشاشة واحتفاء ، نعم كان صعبا أن يخترف المؤلف أجودها في جنة التاريخ العربي الهدباء ، من ثمار حرة أينعت برعاية المفكرين البصراء ، وعناية الجهابذة العلماء ، ويعتصرها دنا من الصهباء ، في فكر وضاء ويراعة زهراء ، وحرف اريحي معطاء .

* * *

يتألف الكتاب من مقدمة وهي نظرة في مصادر الخطط • وتمهيد يعالج تخطيط المدن عند العرب وسبعة فصول وعشرة ملاحق او جداول • فالفصل الاول يضم دراسة في بناء المدن العربية في الجاهلية ، والثاني بناء المدن العربية في الاسلام ، والثالث ، ملاحظات في المدن الاسلامية والرابع ملاحظات عامة والخامس الفترة التي سبقت بناء المدن العربية في الاسلام ، والسادس التحريات لتخطيط المدن العربية • والسابع التصاميم الهندسية لبناء المدن العربية ، وقد عالج المؤلف البحاثة في هذه الفصول السبعة باسلوب علمي تاريخي بارع كل ما تضمنته من موضوعات في فضل اليد العربية التي أنشأت في الجاهلية والاسلام مئات المدن العامرة الزاهرة في مختلف الاعصار والاقطار ، مما يدل بما لا يقبل الجدل والتأويل ، على ان اليد العربية كانت في كل تاريخها الطويل الحفيل في جاهليتها واسلامها يدا خيرة بناءة شيدت للحضارة عمرانا راسخا باذخا شامخا جال فيه تاريخ البشرية جولات مشرقات متأرجات ، عصيات مستكبرات ، طوفت حولها العصور منتجعات مسترفدات ، ويا للعزائم العربية كما لها من فتوحات ، ويا للايدي العربية كم لها من مكرمات ومعجزات •

* * *

واذا تصفحنا جداول المدن العشرة ، عثرنا في الجدول الاول على قسم من أسماء المدن العربية في الحجاز واليمن واليمامة والبحرين شيدها العرب في العصر الجاهلي ، وقد ذكر المؤلف الالمعي اسماء اثنتين وثمانين مدينة – على سبيل المثال لا الحصر ، كما أشار • فهناك عدد كبير من المدن الاخرى والقرى والحصون التي تشبه المدن مما حفلت به المعاجم وكتب البلدان اغفل ذكرها •

وهذا الجدول على ايجازه يؤكد الحقيقة العربية التاريخية الاولى وهي ان العرب الاقدمين ، على بداوتهم وجاهليتهم ، كانوا مطبوعين على العمران وتشييد المدن والقرى والحصون وسواها من المظاهر العمرانية الرفيعة ، ولا يخفى على أحد ان العمران والحضارة هما ركبتان صنوان تنبعان من عين واحدة هي الفكر المبدع الخلاق •

اما الحقيقة العربية التاريخية الثانية ، فنلقاها في الجداول التسعة الاخرى وقد ضمت اسماء المدن التي شيدها العرب في العصور الاسلامية المختلفة في اسيا وافريقيا واوربة وجزر البحر المتوسط وقد بلغ عددها في مختلف الاصقاع التي انتشر فيها لواء الدول العربية الاسلامية ، حسبما جاء في الجداول مئة وثماني وثمانين مدينة هي اليوم وبالامس من اشهر المدائن•

وقبل ان ننتقل الى صلب الموضوع لا بد لنا من الاشارة الى بعض المدن الاندلسية التي أوردها المؤلف في جدوله العاشر ، وعزا تشييدها

للمغرب ، مثل قرطبة ومرسيه ومجريط وأشبونه وهي لشبونة عاصمة البرتغال واشبيليه وغرناطة ، ومثلها طرطوس فهذه المدن على ما يؤكد التاريخ كانت قائمة قبل الفتح العربي الاسلامي ، ولا شك ان العرب استحدثوا فيها عمرانا جديدا ، ولكن هذا لا يعني أن اليد العربية هي التي اختطت تلك المدن وشيدتها وقدمتها تراثا عمرانيا عربيا للحضارة ٠

ومما يسترعي الانتباه أننا نعثر في جداول المدن التي بناها العرب في بعض الاقطار التي بسطوا عليها سلطانهم ، على اسماء غير عربية ، ولعلهم أطلقوا عليها الاسماء الاعجمية من باب التسامح نذكر منها مكران وقد بنيت في خلافة معاوية بن ابي سفيان ، وباجدا (بين رأس عين والرقة) في خلافة عبدالملك بن مروان ٠ وقم في زمن ابن مروان نفسه ، وتبريز (فارس) في خلافة المتوكل ٠ ومراغه شيدها مروان بن محمد عندما كان واليا على أرمينية واذربيجان ٠ ومنستير (تونس) في خلافة مروان بن محمد ، ثم اردشت ودهستان ، والايتاخية وسمرقند ونيسابور وسواها ٠

وهناك ايضا مدن بناها العرب في اقطار اجنبية وهي عربية ذات كواسع اعجمية مثل اسد اباد ، أي مدينة اسد ، وهو اسد بن عبدالله القسري بانيها ومثلها نصر اباذ ومهدي اباذ وسعيد اباذ وموسيا باذ اى مدينة الخليفة موسى الهادي الخ ٠

* * *

ولا بد لنا دعما للحقيقة العربية التاريخية الاولى اي العمران في عصر الجاهلية ، من ان نستشهد بما اورده المؤلف الحاذق في هذا الصدد اذ قال (ونستطيع ان نؤكد ان ما بناه العرب قبل الاسلام في الحجاز ونجد وحضرموت وعمان واليمامة والبحرين قد يبلغ المئات من المدن بين كبيرة وصغيرة ، غير القلاع والحصون التي تشبه المدن ، كما يمكننا ان نؤكد ان ما في الجزيرة العربية من هذه المدن انما كان من انشائهم وحدهم دون ان يشاركهم في اختطاطها احد على الارجح ، نذكر منها على سبيل المثال : مكة ويثرب والطائف واليمامة وصنعاء وعدن والحجر ومأرب ونجران والقطيف وناعظ الخ ولا يزال كثير منها باقيا حتى اليوم ٠ ص ١٣) ٠

ويتابع المؤلف الفاضل « واذا كنا قد عنينا بدراسة الحضارة العربية قبل الاسلام فلاننا نرى من دون ادنى شك ان العرب مهدوا بحضارتهم تلك للحضارة العربية التالية التي ازدهرت في العصر الاسلامي والتي كان لها تأثير في مختلف بقاع العالم وفي تقدم شعوب الشرق والغرب ٠ واذا اخذنا بالرواية التي تقول ان معبد النوبهار في مدينة بلخ قد شيد بتأثير مكة وتقليدا للكعبة في وضع الاصنام حوله وهي (الحمى) ادركنا مبلغ تأثير هذا العصر الجاهلي في الشرق ايضا » قلنا وهذا يعني ان العمران في العصر الجاهلي كان طريق العرب في العصور الاسلامية الى نشر العمران والحضارة

في مختلف الامصار ٠

ويتابع المؤلف فيقول « لئن اشتهر العرب في بناء عدد كبير من المدن في العصر الجاهلي ، فان ذلك يدل على خصائص حضارتهم ومزاياها البارزة التي ساعدت كثيرا على نموها في الاسلام ٠ ولهذا يمكننا ان نعتبر العصر الجاهلي من أهم مصادر الحضارة الاسلامية في كثير من الامور المهمة ولذلك كانت دراسة العصر الجاهلي ضرورية جدا لتفهم التاريخ الاسلامي وتاريخ الاديان وتاريخ الادب العربي ، وأخيرا تاريخ الحضارة العربية والفن العربي ٠ ص ١٣ » ٠

غير اننا اذا توغلنا في مجاهل التاريخ العربي الجاهلي واستقصينا الزمن السحيق عثرنا على عمران غريب عجيب يدهش عقل الاريب ويبهر بصر اللبيب ، عفت آثاره أو كادت ، كان ذلك في عهد العرب الاقدمين مثل عاد وثمود وطسم وجديس والعمالقة والتبابعة وسواهم ممن كانت مدنهم وحصونهم وقلاعهم يعزى بناؤها لروعتها وعظمتها وفخامتها الى جن النبي سليمان ، اذ كانوا لا يصدقون ان يدا بشرية وعقلا بشريا وفنا بشريا تستطيع ان تخطط وتهندس وتبني مثل هذه المدائن والمباني الفائقة الخارقة ٠ كما كانت لهم معرفة واسعة وهندسة بارعة في شؤون الري وتمديد شباكه في مناطق شاسعة ، وعندنا من ذلك خبر سد مأرب الذي سقى كل فم وأروى كل أرض وخصب كل خضرة وصنحن كل ظمآن ، من انسان وحيوان ، ونبات عريان ، وجماد استبد به الحرمان ٠

وكان بديهيا ان ينهار العمران بعد انهيار هذا السد الذي رافق الزمان ، وانشأ الحضارة والسلطان ٠

أما الحقيقة العربية التاريخية الثانية اي العمران في العصور العربية الاسلامية فهي بارزة كالشمس في وضح النهار ، بدليل مئتي مدينة جديدة بناها العرب في مختلف الاصقاع الممتدة من الجزيرة العربية الى الشمال الافريقي فالاندلس وصقلية وسواها من الجزر في البحر المتوسط أضف اليها أيران والهند واذربيجان وتركستان وقد استخرج اسماءها المؤلف الالمعي من بطون المصادر التاريخية المتعددة ٠

ولكن هناك حقيقة عربية تاريخية ثالثة وهي براعة العرب في صنع التماثيل الرخامية والمعدنية والاعمدة والزخرفة المعمارية وسبك المعادن وسائر ما يتعلق بهذه الفنون التي أنكرها بعضهم على العرب وخصوصا صنع التماثيل كما فعل الاغريق والرومان ٠

والصحيح انه كان للعرب في كعبتهم حتى يوم الفتح الاسلامي ثلاثمئة وستون صنما ، وكان كل صنم يعبر عن اله من آلهة الجاهلية ، وهذا يعني ان الكعبة في العصر الجاهلي كانت متحفا عظيما للتماثيل المتعددة الاشكال والاحكام ، منها ما هو معدني وما هو مرمري ، وما هو خشبي ، ولو لم يكن

العرب حذاقا في صنع التماثيل وسائر ما يتصل بهذا الفن الجميل الرائع ، لما حشدوا في كعبتهم مثل هذا العدد العظيم من الاصنام ، اضف الى هذا ما نصبوه في سائر معابدهم في الحجاز واليمن من التماثيل ، وما نصبوه ايضا في دورهم وقصورهم وافنية منازلهم كما في قصر رغدان مثلا . مما يدل على انهم ضاهوا الاغريق والرومان في هذه الصناعة الدقيقة وبذوهم ، ومما يدعو الى اسف الاثريين انهم لم يعثروا على نماذج منها بعد ما حطمها الاسلام تحطيما فانصرف العرب عن هذه الصناعة ، وعن هذا الفن تحرجا من الوقوع في شرك الوثنية ومجاراتها في نصب الاصنام والتماثيل وسواها .

ولكن سائر الصناعات الفنية البـــاذخة ارتفع مستواها في العصور الاسلامية وتفننت بها اليد العربية تفننا مدهشا يذهل الالباب ، ففي الطبري انه اهدي الى عبدالله القسري (١٢٠ هـ) قصران احدهما فضة والاخر ذهب وفي مطالع البدور في منازل السرور) ان يعقوب بن الليث الصفـــار والي خراسان أهدى الى الخليفة العباسي المعتمد على الله مسجدا من الفضة برواقين يصلي فيه خمسة عشر رجلا .

وذكر ابن الجوزي في (المنتظم) ان المقتدر بالله العباسي كان يملك قرية من فضة تثمن بمئات الوف الدراهم ، وكانت صورة لقرية فيها البقر والغنم والجمال والجواميس والاشجار والنبات والمساحي (المجارف) والناس الخ » وذكر أيضا انه كان في دار الشجرة ببغداد في خلافة المقتدر أيضا ، شجرة من الفضة وزنها نصف مليون درهم عليها اطيار مصوغة من الفضة تصفر بحركات جعلت لها . كما كان في تلك الدار ايضا ٣٨ الف ستر من الستور الديباج المذهب بالطرز المصورة بالجامات والفيلة والخيل والجمال والسباع والطرود الخ وفي تلك الدار شجرة في وسط بركة مدورة فيها ماء صاف وللشجرة ثمانية عشرة غصنا عليها الطيور والعصافير من كل نوع مذهبة ومفضضة ، واكثر قضبان الشجرة فضة وبعضها مذهب وهي تتمايل في اوقات ولها ورق مختلف الالوان يتحرك كما تحرك الريح ورق الشجر ، وكل من هذه الطيور يصفر ويهدر ، وفي جانب الدار يمنة البركة تماثيـل خمسة عشر فارسا قد البسوا الديباج وغيره وفي ايديهم مطارد على رمـــاح يدورون على خط واحد ، وفي الجانب الايسر مثل ذلك .

وينابيع المؤلف البحاثة حديثة فيورد ما عثر عليه في مؤلفات ابن الجوزي والمقريزي من روائع الصناعات الفنية التي تحير وتدهش مثل الاستعراض الكرنفالي الذي اقامته بغداد (٤٨٨هـ) وقد اظهرت فيه انواع الملاهي من الزمور والحكايات والخيالات (السينما) منها الفيل المصنوع من البواري المقيرة (المزفتة) وتحته رجال يسيرون به ، وعملوا زرافة كذلك ، وعملوا سميرية (قارب او زورق) تجري في الشوارع وفيها الملاحون يجدفون ، كما عملوا ناعورة تدور معهم في الاسواق ، وعرضوا قلعة خشب تسير على عجلات

وفيها غلمان يضربون بقسي البندق والنشآب ، واخرجوا نولا على عجل (دواليب) وفيه حائك ينسج • وجاء الخبازون بتنور وتحته ما يسير به ، وكان الخباز يرمي الخبز الى الناس • وفي احتفال ولي العهد (٥٤٧هـ) في بغداد برزت قبة عليها صور بعض الامراء بحركات تدور ، كما ظهرت قبة أخرى فيها خيل تدور وعليها فرسان بحركات ، وعرضوا أربعة أرحاء تدور وتطحن دقيقا لا يدري احد كيف دورانها •

أما الزخارف العربية ، وهي ما يسميه الفرنجة (أرابيسكو) ففيها البرهان الناصع على ان العرب هم صنع الايدي واصحاب مزايا فنية خصبة خلاقة وقد جاءت هذه الزخارف على شكل كتابات كوفية او نسخية وعلى اشكال هندسية وشجرية وعلى صورة فسيفساء الخ •

ويحلو لنا في هذه المناسبة ان ننبه انظار القراء الى ان البلاط المصنوع الذي يسمونه في الشرق العربي (موزاييك) الملون الجميل هو في الاصل عربي ، اخذه الاسبان والبرتغاليون عن العرب الاندلسيين وكانوا يطلقون عليه البلاط المزرق ، فحذفوا البلاط واكتفوا بالمزوق الذي هو الاصل العربي للفظة موزاييك الفرنجية •

وقد حذق العرب الحياكة بخيوط الفضة والذهب والقصب وسائر الوان الحرير كما برعوا في حفر الزخارف على الجص والجبس والاجر والرخام والحجر والنحاس والخشب والعاج والفضة والذهب ونقش الزخارف على الورق والرق ايضا •

هذا غيض من فيض استشهدنا به للدلالة على الملكة الفنية عند العرب ، وخصب هذه الملكة ومعجزاتها في الاشغال الفنية الدقيقة على اختلاف الاشكال •

× × ×

فهناك اذن ثلاث حقائق عربية تاريخية يجب اعلانها ونشرها والتنويه بها ، وهي تدل بوضوح على عراقة العمران والفنون في طبيعة العربي جاهليا ومسلما •

× × ×

بعد هذا ننتقل الى صلب الموضوع او بيت القصيد ، وعندئذ لا يسعنا الا ان نستغرب كل الاستغراب ، بل ان نستهجن ونستنكر اشد الاستنكار ما قذف به العرب ابن خلدون في مقدمته المشهورة اذ قال ، سامحه الله وغفر له ، وغفر لعلمائنا الذين طالعوا مقدمته وسكتوا عن افترائه الشنيع ، ويا سوء ما قال : جاء في الفصل السادس والعشرين (طبعة دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة) « ان العرب اذا تغلبوا على اوطان اسرع اليها الخراب • والسبب في ذلك انهم امة وحشية باستحكام عوائد التوحش وأسبابه فيهم

فصار لهم خلقا وجبلة وكان عندهم ملذوذا لما فيه من الخروج عن ربقة الحكم وعدم الانقياد للسياسة وهذه الطبيعة منافية للعمران ومناقضة له ، فغاية الاحوال العادية عندهم الرحلة والتغلب وذلك مناقض للسكون الذي به العمران ومناف له فالحجر مثلا انما حاجتهم اليه لنصبه أثافي للقدر فينقلونه من المباني ويخربونها عليه ويعدونه لذلك والخشب أيضا انما حاجتهم اليه ليعمدوا به خيامهم ويتخذوا الاوتاد منه لبيوتهم فيخربون السقف عليه لذلك ، فصارت طبيعة وجودهم منافية للبناء الذي هو أصل العمران ، هذا في حالهم على العموم » ٠

قلنا ، فهذا الوصف اذا انطبق على الاعراب سكان البوادي في بعض الحالات ، فهو لا ينطبق على العرب الذين سماهم ابن خلدون « امة متوحشة» دون ان يميز بين اهل الوبر والمدر او الحضر ، ولا ندري كيف ساغ له ان يجمل ويشمل ولا يفصل ولا يعزل ، وكنا نغتفر للعلامة ابن خلدون تحامله وافتراءه لولا انه رمى العرب جميعا بالتأخر والتوحش ومنـــافاة العمران والرقي مع ان هذا التوحش المزعوم هو الذي بنى اعظم امبراطورية ومهـــد لارقى حضارة كانت نبراسا للعالم في ظلمته الداجية ٠

ويتابع ابن خلدون فيقول « وايضا فهم متنافسون في الرياسة وقل ان يسلم احد منهم الامر لغيره ولو كان اباه او اخاه او كبير عشيرته الا في الاقل، وعلى كره من اجل الحياء ٠ فيتعدد الحكام منهم والامراء ، وتختلف الايدي على الرعية في الجباية والاحكام ، فيفسد العمران وينتقض ٠ وانظر الى ما ملكوه وتغلبوا عليه من الاوطان من لدن الخليقة كيف تقوض عمرانه واقفر ساكنه وبدلت الارض فيه غير الارض » فهذا الوصف صريح وهو يشمل الامة العربية كلها لا طائفة منها ٠ واغرب من غريب ان يصدر مثل هـــذا الحكم الجائر العاثر الصادر عن العلامة الكبير ابن خلدون الذي كنا نحب ان ننزهه عن الشعوبية الهدامة ، لو استطعنا ٠

وبعد ، فحسب مؤلف البحاثة المدقق الاستاذ ناجي معروف عميد كلية الاداب بجامعة بغداد انه هدم ما بناه ابن خلدون من اساطير ٠ ودحض ما اصدره من احكام وتقارير ، وافسد عليه ما اتخذه من مقاييس ومعايير ٠ ونقض ما نصبه من تصاوير ٠ وفند ما جاء به من سفساف الكلام والتعابير ٠ وما خط من رديء التناشير ، وما عبأ من حامض في القوارير متعاشيا عـــن فضل العرب المغاوير ٠ فاذا العمران العربي جاهليا واسلاميا ، كوكب منير ، واذا الحضارة العربية ينبوع ثرار نمير ، واذا الفكر العربي انوار وازاهير ٠

نعم حسب كتاب (عروبة المدن الاسلامية) هذا الفضل ليفوز بابلـــغ تحية تزجيها العروبة والتاريخ والادب ، الى مؤلفه العلامة الجليل ٠

٢ ـ مختارات من برناردشو

ترجمة الدكتور عمر مكاوي

منشورات دار الهلال

٢٦٤ صفحة

عبدالجبار داود البصري

تقدم هذه المختارات برناردشو ناقدا ..

ويقع نقد برناردشو في أربعة ابواب : الباب الاول : نقد المجتمع وتمثله من موضوعات الكتاب : المساواة ، مشكلة الارض ، الفقر ، الفساد في الدولة ، في امريكا ..

ينم نقده للمجتمع عن تعمق في ادراكه ، وجرأة في تشخيص الداء ، وجدية في البحث عن الدواء ممزوجة بسخرية مريرة .

فهو يرى في موضوع المساواة : ان اسعارنا جميعا متساوية لاننا نتساوى جميعا في تكاليف طعامنا وكسائنا ومأوانا بصورة لائقة مهما اختلفت قدراتنا ومواهبنا .. ولكن حقيقة أخرى تواجهنا لو أردنا توزيع الدخل القومي بالتساوي هي أن تكاليف انتاج أمير من أمراء البحر اكبر من تكاليف انتاج فراش « الكابينه » .

ويتحدث عن الفقر فيقول : لننظر في عبارة « فليبق فقيرا » وماذا تعني . ان معناها أن يبقى الرجل ضعيفا وأن يبقى جاهلا وان يبقى نواة للامراض وبؤرة للاوبئة ، معناها أن يبقى معرضا قائما لا تغلق أبوابه للقذارة والدمامة ، معناها أن يبقى اطفاله مرضى بالكساح من سوء التغذية وأن يبقى هو لئيما دنيئا رخيصا .. الخ

ويقول ايضا :

ان حاجة الامة الصارخة ليست الى اخلاق افضل أو الى خبز أرخص أو الى العفة أو الى الحرية أو الى توبة الاخوات الساقطات والاخوان الساقطين ولا الى بركة المولى تعالى والى روح المحبة والاخوة .. لا . ان حاجة الامة هي بكل بساطة الى القدر الكافي من المال .. والشر والرذيلة التي ينبغي تشديد النكير عليها ليست الفاحشة او الجشع أو الطمع ... أو الخمر او الحرب أو الطاعون و أي شيء مما يعتبره المصلحون كبش الفداء ... لا . آنما ينبغي على الامة ن تشدد النكير عليه بكل بساطة : الفقر .

والباب الثاني : نقد الشعر « ولا يمثله في هذه المختارات سوى موضوع عن الشاعر الانكليزي وليم شكسبير » وتبدو علاقة شو بشكسبير سيئة .. لانه ينقده بقسوة ويهاجمه دون رحمة .

يقول شو عن مسرحية سمبلين لشكسبير :ـ « هي في معظم أجزائها نفاية مسرحية وفي أحط مرتبة يمكن أن تنحط اليها الميلودراما » .

ويقول عن شكسبير : « لماذا يكتب على مسرحنا أن يبتلي بهـذا « النشال الخالد » الذي ينشل قصص وافكار غيره من الناس والمعروف باطنابه الممل وفصاحته البشعة واحاديثه التي لا تطاق » .

ويضيف لذلك : « انني لا اجد باستثناء كاتب واحد ـ هو هوميروس ـ كاتبا مشهورا ولا حتى سير وولتر سكوت يمكنني أن احتقره احتقارا جامعا كما احتقر شكسبير عندما أقيس عقليتي بعقليته » ..

والباب الثالث : نقد الموسيقي وتمثله في هذه المختارات موضوعات : بيتهوفن ، كنز الراين ، فاجنر الثوري ..

حلل في موضوعين الحلقة الاولى (كنز الراين) من رباعية فاجنر المعروفة (أوبرا خاتم الاقزام) وموضوعها افساد الذهب لضمائر الجميع من الكادحين الى الآلهة (؟) .. وقد حاول شو أن يربط بين موضوعهـا ومظاهر الحياة الاوروبية الحديثة مبرهنا بدقة على تطابقهما .. ومستخلصا من خلال الاوبرا ثورية فاجنر ومتحدثا عما لقي بسببها .

أما عن بتهوفن فيقول :

« منذ مائة عام ، هز قبضته في وجه السماء المزمجرة لآخر مرة ، عجوز أعزب شكس نكد الطبع ، صلب الرأي في السابعة والخمسين من العمر ، بلغ منه الصمم أنه لم يكن يستطيع أن يسمع موسيقاه وان عزفتها اوركسترا كاملة ومع ذلك كان يستطيع أن يسمع صوت الرعد .

مات كما عاش متحديا الله ومستفزا الكون ... »

ويقول : ـ « لا احد سوى بيتهوفن يمكنه أن يحكم بيتهـوفن أو يتحكم فيه ... » .

والباب الرابع : النقد المسرحي .. وهو أهم أبواب الكتاب واكثر التصاقا بعبقرية برناردشو ومن نماذجه : تولستوي ، تراجيـدي أم كوميدي ، وثلاثة فصول عن أبسن مستلة من كتاب (جوهر الابسنية).

الفصل الاول : المثاليات والمثاليون .. يبين فيه « أن الانسـان في طفولته الاولى غير قادر على مواجهة المحتوم ولما كانت الحقائق المحتومة هي أشد الاشياء صلابة وقسوة وعنادا فقد كان كلما اكتشف حقيقة خطرة تتهدده أخفاها عن شعوره وغطاها بالاقنعة .. وكانت الاقنعة هي الاخرى صلبة وغليظة وعاتية بحيث كان كل قناع منها يحتاج الى بطل ليمزقـه ويهتكه » .

ولكن هؤلاء الابطال تعرضوا لشتى النعوت فقد قيل : ـ

« ان وليم بليك كان مجنونا ، وان شللي كان شابا منحلا ، وان روبرت أوين كان غرا مأفونا ، وان زولا كان وغدا افاقا ، وأن أبسن شبيه زولا ولكن برجل خشبية ٠٠ »

والفصل الثاني : المرأة الكاملة ـ يتحدث فيه عن المثل العليـــا او الاقنعة التي تغلف حقيقة المرأة ٠

ويرى حريتها متوقفة على تمزيقها ٠٠ ومن أقواله في هذا الصدد حيث يرى ان انصراف المرأة لتربية أطفالها أحد هذه الاقنعة قوله :

« من الصحيح تماما ، أن اكثر النساء يحملن للاطفال عطفا وحنانا ويفضلن أطفالهن على أطفال الآخرين غير أن هذا يصدق أيضا على الرجال مع ان الرجال لايرون في دار الحضانة مجالهم الطبيعي للعمل ، ويمـــكن اعطاء صورة كاريكاتورية للقضية بالقول ان اكثر النساء اللواتي يحتفظن بكلاب مدللة يحملن لها العطف والحنان ويفضلن كلابهـــن على كـــلاب الآخرين ومع ذلك فليس من يقترح على النســاء و يدعوهن الى حصـــر نشاطهن في تربية الجراء ٠٠ »

ويقول ايضا :

« كما أن طريق الحرية بالنسبة للرجل كان ولا يزال مملوءا بحطام الواجبات والمثل العليا التي حطمها ووطأها بقدمه فكذلك ينبغي أن يكون طريق المرأة الى الحرية »

والفصل الثالث : مغزى مسرحيات آبسن ٠٠ ويرى برناردشو فيه « أن الفكرة الاساسية في المسرحيات التي كتبهـــا أبسن تتلخص في أن العبودية الحقيقية في الوقت الحاضر هي العبودية للمثل العليا : العبودية لمعاني الطيبة والصلاح والخير ٠٠

ثم يقول : ـ باختصار أصبحت مثلنا العليا كآلهة أجدادنا القدماء تطالب وتطالب دائما بضحايا بشرية ويقول أبسن : دعونا لا نسمح بوضع أي من هذه المثل العليا في مكان أعلى من مكان المسؤولية ـ مسؤوليتها هي والتزامها بأن تثبت لنا في كل وقت أنها تستحق التضحيات التي تطالب بهـــا ٠٠

وفي ختام الفصل يقول برناردشو : ان جوهر الابسنية هو أنـــه لا صيغ ولا بنود ولا قوانين ٠ القاعدة الابسنية هي ألا يكون هناك قاعدة

والذي ألاحظه في هذا الكتاب ٠٠ أن اسلوب برناردشو متـــدفق ذو صفة انسيابية بحيث يفلت سياق البحث من القاريء باستمرار ٠٠

فكلما حاولت الاحاطة بتخطيط عام للموضوع وجدت أن هذا التخطيط غير كائن ٠

كما أن السخرية سمة عامة في جميع الابواب ٠٠ وأن الاشارة الى نفسه والتمثيل من حياته سمة عامة كذلك ٠

ويبدو واضحا أن ما اكتشفه برناردشو في مسرحيات أبسن ٠٠ تحدث عنه الوجوديون في اكثر كتبهم واصطلحوا على تسميته برفض الماهويات التي تسبق الوجود ٠٠ وإذا صح هذا الرفض في الغرب نتيجة لتطور المجتمع الاوروبي ونمو حضارته فهل يصح في الشرق الذي يبني حياته من جديد ٠٠ ؟

٣ ـ طه الراوي

تاليف : حارث طه الراوي
مطبوعات المؤسسة المصرية العامة
ص ٢٤٤

كان طه الراوي شخصية كبيرة في علمه وخلقه ومركزه وأثره في المجتمع ٠٠ وقد اشتهر في ميدان اللغة والنحو أكثر من شهرته كأديب وشاعر ٠٠ وان كان ذا باع في الادب والشعر ٠

وقد أجمع محبوه ومريدوه ، والذين خبروا شخصه وتعمقوا فهم آثاره ومؤلفاته أن فقدانه أحدث فراغا عميقا في ميدان الحركة الثقافية في العراق ٠

وشهرة الراوي لا تعزى الى كتبه ومحاضراته وهي جيدة وانما تعزى الى علاقاته الوثيقة مع رجال الفكر والفن والشعر والى ما يحمله عنه طلبته من انطباعات وذكريات ٠

والراوي لم يظفر شأنه شأن كل أدباء العراق بالدراسات الوافية المتعمقة الذي تجلو غوامض ذاته ، وتنير كوامن فضله ، وتقدم روائع علمه ٠

والسيد حارث ابن المترجم يعبر عن هذه الحقيقة ويتألم لانه انتظر طويلا عسى أن يجد القلم المنصف والقلب المخلص الودود الذي ينبري لانصاف والده واحياء ذكراه ولما لم يظفر بما انتظره شمر عن ساعد الجد وعزم على أن يقوم بالمهمة فقدم كتابه للمطبعة ٠٠ وحارث وان قصد أن يكتب بحثا أدبيا فان انكار كونه تحية من ولد لوالده تحية حب ووفاء ٠٠ أمر لا يقبل الجدل وهو موقف سلوكي جدير بالاحترام ٠

يبدأ الكتاب باستعراض وقائع حياة طه الراوي ٠٠ فقد ولد عام ١٨٩٠ في قرية « عنه » ٠٠ وفي عام ١٩٠٥ شد الرحال الى بغداد ليدخل مدرسة (خضر الياس) وفي سنة ١٩١٠ انخرط الراوي في كلية الامام

الاعظم ٠٠ وقد عين الراوي مديرا لمدرسة الكرم الابتدائية سنة ١٩١٧ وفي ٢٧ـ٥ـ١٩٢٨ أسندت اليه وظيفة سكرتير مجلس الاعيان وفي ١٩ أيلول ١٩٣٧ عين مديرا عاما للمعارف ٠٠ وتوفي رحمه الله في ٢١ تشرين الاول ١٩٤٦ ٠

وفي فصل تال يستعرض السيد حارث آراء أبيه في اللغة والنحو ٠٠ وقد أجمل الراوي علاجه لمشكلة تيسير العربية على المتعلمين بالحلول التالية :

١ ـ وضع معجم لغوي سهل التناول على المبتدئين من المتعلمين ينطوي على اللباب من اللغة وعلى البسائط من اصطلاحات العلوم ٠

٢ ـ وضع معجم لغوي واسع يضم كل ما يحتاج اليه الاديب والعالم من ألفاظ لغوية ومصطلحات علمية بحيث يضاهي المعاجم التي يضعها المتحضرون في لغاتهم الحية ٠

٣ ـ وضع كتب في الصرف والنحو للمدارس الابتدائية متحلية بكل ما تتطلبه قواعد التربية والتعليم الحديثة من خصائص ومزايا ٠

٤ ـ وضع كتب في البلاغة للمدارس الثانوية على نمط يرمي الى صقل الذوق وارهافه لادراك الجمال الفني والجلال البياني ٠

٥ ـ طبع الآثار العلمية والادبية التي يعم النفع بها طبعا علميا مدققا جامعا بين سلامة التصحيح وأمانة التعليق ٠

وفي الفصل الثالث يتحدث حارث عن الراوي الاديب فيستعرض كتابه « عن أبي العلاء في بغداد » ويبين صداه بين من أثنوا عليه ومن هاجموه ودافع عن آراء والده ومنهجه ٠٠ ثم أثبت قائمة بمؤلفات طه الراوي التي لم تزل مخطوطة ووعد بالسعي من أجل نشرها لتعم الفائدة والمنفعة ٠

وفي الفصل الرابع جمع الكاتب بطريقته الخاصة أشعار والده ٠ وفي هذه الاشعار قوله :

أين الشهامة ، أين العدل والشمم ؟ يا أمة غضبت من جورها الامم
يا للمروءة من قوم زعانفة لؤم الطباع لهم بين الورى علم
طاشت حلومهم ـ والبغي مرتعة وخم ـ فعمت سماء المغرب الظلم
فالسلم مضطرب والامن مستلب والبر محتدم والبحر مضطرم
أنى فررتم ونار الغيظ تحرقكم والذل يتبعكم والخذل والندم
تقتلون شيوخا ما لها وزر وصبية ونساء ما لها عصم
يا للفظاعة من روما وما صنعت ضلت بنوها وعن سبل الرشاد عموا

الى أن يقول :

فنحن قوم اذا ما استغضبوا غضبوا لكنهم يكرهون الظلم ان ظلموا
العدل شيمتنا والبأس عادتنا والدين مرشدنا والحلم والشمم
جاءوا بأغنامهم ترعى بساحتنا وأننا أسد ذاك البر لو علموا
ومن رعى غنما في أرض مأسدة مات الرعاء وبادت تلكم الغنم

ثم يتناول الكاتب آراء والده في الاستعمار وأذنابه ويتحدث عن مجلسه وأصدقائه ويدون كمية لا بأس بها من رسائل طه الراوي ٠٠ الواردة له والصادرة عنه ٠٠ وأهمها مراسلاته مع الرصافي وعبدالوهاب عزام ومحمد كرد علي وأحمد حسن الزيات وعبدالقادر المغربي وأحمد امين وخليل مردم ومحمد بهجة البيطار ٠

وفي الكتاب بعد ذلك نماذج من يوميات الراوي وكتاباته ٠٠ وما قيل في رثائه ٠٠

وتكاد أن تكون مقالات الراوي المنتقاة أهم جزء في الكتاب ومنها : جميل صدقي الزهاوي ، صديقي الرصافي ، فهمي المدرس ، سر الخلود في شعر أبي العلاء ، ترفع أبي العلاء عن التكسب بالشعر ، ترجمة أبي نؤاس من ديوانه ، المتنبي شاعر القوة ، مشاكل الادب العربي اليوم ، أثر القصة القصيرة في الادب العربي ٠

ان كتاب حارث طه الراوي عن أبيه بحث متكامل استوفى كل جوانبه ٠٠ وهو كتاب وثائقي لا يستغني عنه دارسو أدب العراق الحديث لكثرة ما ضم بين دفتيه من الرسائل والمقالات التي تفرض وجودها كمراجع هامة ٠

والشيء الذي يؤخذ عليه بالنسبة لما ألفناه في التراجم الادبية والفنية أنه لم يبحث نفسية المترجم على ضوء علم النفس الحديث ، ولم يحلل أدبه وشعره تحليلا نقديا ٠٠ ولم يحاول أن يدرس كيف أثرت البيئة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في المترجم وكيف أثر فيها ٠٠ وربما يبرر هذا النقص بأنه يتطلب حاسة نقدية موضوعية والابن لا يملك هذه الحاسة في مواجهة أبيه ٠٠٠

عبد الجبار داود البصري

شاعرية أبي المحاسن

بقلم : سلمان هادي الطعمة

هذا كتاب يصدره الاستاذ الشاعر خضر عباس الصالحي هو «شاعرية ابي المحاسن» حيث درس فيه باسهاب وعمق حياة الشاعر العربي الخالد محمد حسن ابي المحاسن ٠٠ وهي حياة ملأى بالكفاح والبذل والتضحية ٠٠ حيث شارك مشاركة فعالة في ثورة العشرين التي حدثت في سنة ١٩٢٠ ميلادية بقيادة الزعيم الديني الكبير الشيخ محمد تقي الشيرازي الذي اتخذ من مدينة كربلاء المقدسة قاعدة لحركته التحررية الكبرى ٠٠ وقد زج الانكليز بالشاعر في سجن الهندية والحلة بسبب نشاطاته الوطنية وتحريضه للجماهير على الثورة ضد المستعمرين ٠

وقد استطاع المؤلف ان يكشف مميزات شعر ابي المحاسن ، ويبرز مضامينه الفكرية ، ويقف على أسرار فلسفته العميقة ، وعقيدته المثالية ، ونظرته النفاذة للحياة والكون والمرأة ...

اما اسلوب الكتاب فهو اسلوب يتسم بالرصانة والعذوبة والوضوح .. ويتميز بسحر البيان ، وغنى الالفاظ ، وحسن العرض .

والكتاب زاخر بالتعليقات الطريفة والمعلومات الغزيرة ، والاحداث التاريخية الفريدة والوقائع المهمة التي كاد يطويها النسيان .

فنحن نهنىء المؤلف على كتابه القيم ، ونزجي له الحمد على ما بذل من مجهود ضخم ؟

في تحقيق التراث

البخلاء

تأليف : الخطيب البغدادي

تحقيق : احمد مطلوب واحمد ناجي القيسي

مطبعة العاني ـ بغداد ١٩٦٤

عرض ونقد : محمد جبار المعيبد

للبخل والبخلاء حديث قديم في تراثنا العربي ، احتل صفحات منه ، ثم صار الكتب فيما بعد . ونتساءل : ما الذي دعى جمهرة كبيرة من أسلافنا القدماء الى الاهتمام بهذا الجانب من الموضوع فألفوا فيه الكتب كالاصمعي والمدائني وابي عبيدة والجاحظ ثم الخطيب البغدادي ؟ ..

يجيب الدكتور الحاجري « بأن أحاديث البخل والبخلاء كانت تسير في طريقين وتتجه الى غايتين ، وفي احد الطريقين يقوم دعاة الشعوبية الحاقدون فيردون على العرب فخرهم التقليدي بالكرم ، ويقولون ان اكثر هذا الفخر كلام لا يفي به الفعل ونوع من التنفج لا حقيقة له في الواقع .. وفي الطريق الاخرى يقوم دعاة الدولة القائمة ، ومن وضعوا انفسهم في خدمة السلطان ومسايرته في سبيله من العلماء واهل الادب . ومن هؤلاء من ينصر الدعوة العربية ويتعصب لها كالاصمعي ، ومنهم من هو أميل الى الشعوبية كالمدائني ... هذان هما الاتجاهان البارزان في الحديث

عن البخل واقحامه في باب الكتابة والتأليف ٠٠ »(١)

وقد وصلنا عن البخلاء كتابان ، أولهما (بخلاء الجاحظ) الذى عرف في أوائل هذا القرن وطبع عدة طبعات ، كانت طبعة الدكتـور الحاجري أتقنها ٠ وثانيهما كتابنا هذا ، وهو (بخلاء الخطيب البغدادي) الذى طبع لاول مرة في بغداد ٠

وكتاب الجاحظ يختلف عن كتاب البغدادى ، اذ أن الجاحظ نحا في كتابه نحوا أدبيا ، واعتنى ببراعة في وصف الانفعالات والحركات النفسية التي ترتسم على وجوه البخلاء وحركاتهم ، كما غذى كتابه بتصوير ممتع من السخرية منهم ، خالية في الوقت نفسه من روح الكراهية والهجاء ٠

أما منهج البغدادي ، فكان منهجا تاريخيا تسوده طريقة الروايـة والسند ٠ فهو اذا ما روى حادثة أو طريقة عن البخل والبخلاء أسندها بسلسلة من الرواة ، ولعله بهذا يريد أن يبرهن على علمية منهجه وصحة ما يرويه من أحاديث وروايات ٠

وقد قسم الكتاب الى ستة أجزاء ، يؤلف كل جزء منها أخبارا معينة ٠ وقد خص الجزء الاول (ص ٢٣-٥٢) بذكر روايات عن الرسول (ص) وضربه الامثلة بالبخلاء ، وما ورد فيهم من أحاديث نبوية ٠ ثم أعقبه بالجزء الثاني (ص ٥٥-٨٦) فذكر المأثور عن المتقدمين في ذم البخل والبخلاء وما ورد فيه من أشعار عند العرب ٠ ثم يستمر البغدادي في منهجه فيخصص الاجزاء الباقية للحديث عن البخلاء في عصره أو عصر شيوخه ، فـيروى النوادر والملح عن هؤلاء بأحاديث مسندة عن رواة ثقاة كالجوهرى والازهرى والتنوخي وغيرهم ٠

ومؤلف الكتاب هو ابو بكر احمد بن علي بن ثابت الشهير بالخطيب البغدادي ، ولد في غزية في الحجاز سنة ٣٩٢ هـ ، ونشأ في بغداد وسمع من شيوخ البصرةوالكوفة والدينور ٠ وقد تردد على طرابلس وصور وحلب والقدس بعد فتنة البساسيري في بغداد ٠ وعاد الى عاصمة الخلافة سـنة ٤٦٢هـ ، واقام بها الى ان توفى سنة ٤٦٣هـ ٠

وقد ترك وراءه ثروة عظيمة من الكتب في مختلف العلوم والفنون ، ولعل (تاريخ بغداد) اشهر كتبه التي خلدته وعرف بها فيما بعد ، وقد أوصل بعضهم كتبه الى ٨١ كتابا ٠

* * *

أما كتابه (البخلاء) فقد ذكر المحققون انه « محفـوظ في المتحف البريطاني بلندن في ستة أجزاء صغيرة ضمت الى بعضها فكونت مجلدا واحدا ٠٠٠ وقد كتبت المخطوطة قبل سنة ٦٠٠ هـ بخط نسخ جميل جيد وقوبلت على الاصل ، ورقمها (OR. 3137) ٠٠٠ وفي معهد المخطوطـات

بجامعة الدول العربية صورتان من هذه النسخة الفريدة برقم (٧٨) و (٧٩) ، وفي مكتبة جامعة القاهرة صورة أخرى لها برقم (٢٦٠٢٠) ، وعلى مصورة جامعة القاهرة ومصورتي جامعة الدول العربية اعتمدنا في اخراج هذا الكتاب ·

« وذكر كارل بروكلمان نسختين منه في المتحف البريطاني ، الاولى برقم (1132) والثانية برقم (1592) ، وهما كما يبدو النسخة التي اعتمدنا عليها في اخراج البخلاء ·· »(٢) ·

من هذا العرض نفهم أن للكتاب ثلاث مخطوطات ، جميعها في المتحف البريطاني بلندن ، ولاحداها ثلاث مصورات في القاهرة · أما المخطوطتان الاخريتان فلم يرجع المحققون اليهما ، ربما لعدم حصولهم على مصورتيهما· ولكنهم تخلصوا – بالظن – بأن المخطوطتين هما على ما يبدو النسخة التي (اعتمدنا) عليها في اخراج الكتاب · وهذا ليس من التحقيق العلمي بشيء ، كما أن الاعتماد على ثلاث مصورات لمخطوطة واحدة لا يعني الا أن المحققين أرادوا تغطية النقص بعدم اعتمادهم على بقية المخطوطات ، ولو انهم ذكروا وصفا لكل مصورة من المصورات الثلاث لوجدناها لا تختلف في شيء سوى الورق الذي صورت به ·

ورواية الكتاب ، كما هو مذكور في أول كل جزء من الاجزاء الستة ، كانت عن أبي منصور محمد بن عبدالملك بن الحسن بن خيرون ، الذي توفي سنة (٥٣٩ هـ) وله خمس وثمانون سنة ، أي أن ولادته كانت سنة ٤٥٤ هـ · ولما كانت وفاة الخطيب البغدادي سنة ٤٦٣ هـ ، معنى هذا أن ابن خيرون كان عمره تسع سنوات عند وفاة الخطيب ، مما يجعلنا لا نطمئن الى أن صبيا يروي كتابا عن الخطيب في مثل هذا العمر · وهذه الناحية تحتاج الى تحقيق من المحققين ·

والمخطوط الاصل امتلأت حواشيه بكتابات وتعليقات لا ندري مصدرها ، كما لم يذكر المحققون شيئا عنها · ومن الغريب أن هذه الحواشي تحولت الى نص الاصل ودخلت ضمن المخطوط عند طبع الكتاب ، ووضعت في أقواس أشير اليها في الهامش أنها تكملة · ولم يكتفوا بهذا وانما ادخلوا أبياتا شعرية لبعض الشعراء بعذر انها تكمل المعنى ، ولو كان هذا حقا ، لوضع البيت في الهامش وأشير الى انه يكمل معنى الابيات في الاصل · (انظر : ص ١٦٣ ، ١٦٢ ، ١٦٨ ···)

وهذه بعض الملاحظات التي رأينا أن نجملها ، وهي :

١ – في ص ١٠٦ « قال أنشدنا أبو علي الكواكبي لابي الشمقمق » :

يا من يؤمل مبعدا من بين أهل زمانه

والصحيح :

يا مـــن يؤمـــل معبــــدا . . . .

وهو (معبد) المغني ، (انظر : معجم الشعراء ٣١٩) ٠

٢ ـ في ص ١١٣ يروى بيتا لبشار بن برد ، وهو :

ولا تبخلا بخل ابن قرعـة انـه مخافة ان يرجـى نداء حـزين

والصحيح : ابن قزعة (بالزاي) ، وهو ابو يحيى عبيدالله بن قزعة ، انظر : ديوان بشار ص ٢٢٠ جمع السيد بدرالدين العلوي ، كما ينسب البيت ايضا لدعبل الخزاعي ، انظر : ديوانه ٣٥٥ صنعة الدكتور الاشتر ٠

٣ ـ في ص ١١٤ « قال انشدني جحظة البرمكي لنفسه ، وأنا حاضر :

لي صديق عدمتـه من صـديق أبدا يلقني بوجـه صفيـق

قوله ان شدوت : أحسنت ، عندي وبأحسنت لا يبـاع الـدقيق

والصحيح :

قوله ان شدوت : أحسنت ، زدني . . . .

لان الرواية الاولى لا تتلاءم والمعنى المراد في البيت ، وفي ارشـاد الاريب ١/٣٨٤ الرواية الصحيحة للبيت ٠

٤ ـ في ص ١٣٢ ذكر بيتين لابي العتاهية ، وقد علق المحققون عليهما في الهامش بـ (لم نعثر عليهما في ديوانه المطبوع أو في الاغاني) ، والبيتان لبشار في ديوان المعاني ١/١٠٥ وغرر الخصائص ٢٥١ ـ بولاق ، ونهاية الارب ٣/٢١١ ٠

ومثله بيتان آخران لابي العتاهية في نفس الصفحة ، ذكروا انهم لم يعثروا عليهما في ديوانه أو في غير ديوانه ، والبيتان في ديوان المعـاني ١/١٠٥ ، ونهاية الارب ٣/٢١١ ٠ وقد ذكر الاصفهاني في اغانيـه (١٥/٣٨ ـ ساسي) خبرا ينسب فيه هذه الابيات الى ربيعة الرقي ٠

٥ ـ في ص ١٤٨ يروي بيتا لجحظة البرمكي ، هو :

أكلت عصيبا عنـده في مضـيرة فيا لـك من يـوم علي عصيب

والصحيح : أكلت عصيدا ، ٠٠ (انظر : ارشاد الاريب ١/٣٩٣) ٠

٦ ـ في ص ٨٢ « قال : انشدني ابراهيم بن عمر بن حبيب » :

قوم اذا أكلـوا اخفـوا كلامهم واستوثقوا من رتاج الباب والدار

لا يرتجي الجار منهم فضل نائلهم ولا تكف يد عن حـرمة الجـار

وقد نسب المحققون البيتين في الهامش الى دعبل الخزاعي ، والصحيح أن البيتين ينسبان الى عدد من الشعراء ، فهما للاخطل في شرح شواهد المغني ٤٦ـ٤٧ ، ولجرير في العقد الفريد ٦/١٨٧ والغرر والعرر ٣٠٠ ، ولداود بن محمد المهلبي في طبقات الشعراء ٢٨٨ـ٢٨٩ ، بالاضافة الى نسبتهما الى دعبل ٠

والكتاب بعد هذا كله قطعة أدبية جديدة تضاف الى مجموع تراثنا العربي الذي يحتاج الى جهود المخلصين لازالة غبار القرون عنه ٠ ولا أظن هذه الملاحظات ستقلل من قيمة وأهمية هذا الكتاب ، الذي جهد المحققون الاجلاء في اخراجه وتبويبه وصنع فهارسه التي جاءت متقنة وتامة ٠

آراء وتعقيبات

ايضـــاح

وردنا من الدكتور عزالدين فوده استاذ العلوم السياسية المساعد في جامعة القاهرة الايضاح التالي :

السادة اعضاء هيئة التحرير

تحية طيبة وبعد ، فقد اطلعت على الجزء التاسع من السنة الاولى لمجلة الاقلام العراقية وفي صدرها مقال للسيد الدكتور فاضل زكي محمد عن « حقيقة التراث السياسي العربي الاسلامي ــ الجانب الدبلوماسي » ،عرض فيه لتطور الاسلوب الدبلوماسي عند العرب وأغراضه وخصائصه ٠والواقع أن المقال المذكور الذى عزا فيه الكاتب الدكتور الدراسة المنشورة الى تحقيقه وتمحيصه وتحليله (موضحا ذلك بما أفرد من بعض المراجع التي أتت في نهاية المقال) هو تلخيص كامل للفصل السادس من مؤلفنـــا « النظـم الدبلوماسية ــ الكتاب الاول في تطور الدبلوماسية وتقنين قواعدها ــ طبع دار الفكر العربي بالقاهرة سنة ١٩٦١ ٠ » والفصل المذكور بعنـــوان « النظم الدبلوماسية عند العرب » من ص ١١٦ حتى ص ١٥٧ ٠

وفي هذا السبيل أرى لزاما علي أن أشير الى الآتي :

١ ــ ان كاتب المقال حيثما ابتدأ بذكر ما عانته دراسة الدبلوماسيةالاسلامية من اهمال وحيثما انتهى بذكر تقنين الشيباني وأبي يوسف لبعض قواعد الحصانات الدبلوماسية قد ابتدأ من حيث ابتدأنا وانتهـى الى حيث انتهينا في تحليل وتقسيم بحثنا المذكور ، متتبعا خلال ذلك اسلوبنا في التقسيم والتبويب والتحليل كاملا ، ومستعينا في ذلك بألفاظنا وعباراتنا ٠

٢ ــ في ص ٤ من المقال يشير الى نشأة الدبلوماسية العربية كنتيجة طبيعية لحب العرب في الاسفار مطابقا في ذلك ص ١٢٠ من بحثنا ٠

٣ ــ في ص ٤ من المقال يشير الى نصيحة الواقدى في استخدام السـفراء مطابقا في ذلك ما ذكرناه في نفس الصفحة ١٢٠ من بحثنا ٠

٤ ــ في ص ٤ من المقال يشير الى سفارة عبدالمطلب لرد الابل ومتخـذا

مرجعه في ذلك على هامش السيرة لطه حسين الجزء الاول ص ١٤٢ مطابقا في ذلك ما ذكرناه في بحثنا صفحة ١٢١ ٠

٥ ـ في أول ص ٥ من المقال يشير الى دور الدبلوماسية الاسلامية في تنفيذ السياسة الخارجية الاسلامية في عهد الرسول مطابقا في ذلك لفظا ومضمونا ص ١٢١ من بحثنا ٠

٦ ـ في ص٥ من المقال يشير الى دور الدبلوماسية الاسلامية في عهدالرسول والخلفاء الراشدين في نشر الدعوة للاسلام مطابقا في ذلك نصا ومضمونا السطر ٤ من ص ١٢٢ من بحثنا ٠

٧ ـ في ص ٥ من المقال حدد دور الدبلوماسية في العصر الاموي بالدعوة للاسلام ، أو دفع الجزية ، مطابقا في ذلك نصا وموضوعا السطر ٧ من ص ١٢٢ من بحثنا ٠

ثم يشير في هامش ١٢ حول نفس الموضوع الى سفارة قتيبة بن مسلم مطابقا ما ذكرناه في ص ١٢٢ وص ١٥٢ من بحثنا ٠

٨ ـ نرجو مقارنة تفسيره لتطور الدبلوماسية الاسلامية في العصر العباسي في ص ٥ من مقاله بما جاء ببحثنا ص ١٢٤ ، ولاسيما في صدد تعبيره عن اغراض سفارات هذا العصر بتحقيق « التوازن الدولي » (بالسطر ١٣ ص ١٢٥ من بحثنا) ٠

٩ ـ نرجو مقارنة ألفاظ هامش ٦ من المقال بالسطر ١٤ ص ١٢٣ من بحثنا ٠

١٠ ـ نرجو مقارنة أو مطابقة هامش ٨ من المقال حول سفارات شرلمان وهارون الرشيد بالصفحة ١٢٥ من بحثنا ٠

١١ ـ لم يفت الكاتب الدكتور أن ينقل عنوان فصول بحثنا فيما يتعلق باشارته لخصائص الدبلوماسية الاسلامية « ص ٦ من المقال » ، وهو تعبير اصطلحنا عليه في تحليلنا للنظم الدبلوماسية عموما ، وفي ص ١٤٦ من بحثنا حول الدبلوماسية العربية خصوصا ٠

١٢ ـ نرجو مقارنة ما جاء ذكره في ص٧ من المقال حول دار السلام ودار الحرب بما ذكرناه في ص ١١٧ من بحثنا ٠

١٣ ـ نرجو مقارنة آخر ما جاء بالصفحة ٧ من المقال باول ما جاء بالصفحة ١٤٩ من بحثنا ثم الصفحة ١٤٦ و١٤٧

١٤ ـ نرجو مقارنة أول ما جاء بالصفحة ٨ من المقال بالصفحتين ١٥٣ و ١٥٤ من بحثنا ٠

١٥ ـ نرجو مقارنة ما جاء بالصفحتين ٨ و١٠ من المقال حول الحصانات الدبلوماسية والمراجع التي رجع اليها كاتب المقال في هذا الشأن بالصفحات ١٥٤ ـ ١٥٦ من بحثنا ٠

١٦ ـ وأخيرا ـ وليس آخرا ـ لعله تجدر ايضا مقارنة المراجع الافرنجية

التي ادعى الدكتور فاضل زكي الرجوع اليها ولاسيما فيما يتعلق بمقال هانز كروزه بالهامش رقم ٢ بالصفحة ١١٩ من بحثنا ، أو فيما تتعلق بالمقال المنشور بمجلة الموند الدبلوماسية الباريسية عدد يوليه ١٩٥٦ بالهامش رقم ١ ص ١٢٨ من بحثنا ٠ هذا عدا بقية المراجع التي أشار اليها وادعى الاطلاع عليها ٠

السادة اعضاء هيئة التحرير

لقد نسب الدكتور فاضل زكي محمد الى نفسه هذا الجهد وادعى الاطلاع على كافة تلك المراجع دون مؤلفي الذى نقل عنه حرفيا ٠ فقد طلب الي السيد الدكتور فاضل زكي محمد عن طريق الاستاذ يعرب فهمي سعيد لدى زيارة الاخير للقاهرة في ديسمبر سنة ١٩٦٤ نسخة من مؤلفي عن النظم الدبلوماسية ، فأهديته اياه وحمله اليه الاستاذ يعرب ببغداد ٠ كما أهديته بحثا عن نظرية السيادة في الاسلام ، عن طريق الاخ سنان رضا الشبيبي ، فهل يكون قبول الهدية وجزاء المعروف الاستيلاء على جهد الآخرين عنوة واغتصابا في بحث راعيت في وضعه الامانة العلمية الكاملة لدى كل كلمة أو أشارة أو موضع فيه !!

وبعد ، فما كان أغناني عن الكتابة في هذا الشأن تفصيلا الى سيادتكم أن يتم النشر حول هذا الموضوع بقلم أحد الزملاء في صفحات القسم الادبي بالاهرام الغراء ، لولا اني أعلم جيدا وأعرف واثقا أن في بغداد قضاة ٠

واني اذ أتوقع من سيادتكم رداً على كتابي هذا بما يفيد النشر على صفحات مجلة الاقلام الغراء « بان الدكتور فاضل زكي محمد قد عنى بنشره ذلك المقال عرضا وتلخيصا لبحثنا المشار اليه » ، لأرجو ان تتقبلوا فائق الاحترام ٠

١٩–٨–١٩٦٥

وقد أطلعنا الدكتور فاضل زكي على الايضاح اعلاه فوردنا رده عليه ننشره عملا بحرية الرأي :

الى : هيئة تحرير مجلة الاقلام — بغداد
تحية طيبة وبعد ،

فقد اطلعت على البيان الذي صدر عن السيد الدكتور عزالدين فودة حول بحثي الذي ضمه الجزء التاسع في السنة الاولى لمجلة الاقلام العراقية المعنون ب « حقيقة التراث السياسي العربي الاسلامي : الجانب الدبلوماسي» ٠

ان اول ما يلحظه الباحث العلمي في ملاحظات السيد الدكتور عزالدين فوده مخالفته للقواعد العلمية في استخدام المصادر والتقصي والتحليل

فالاستنساخ . ففي كل بحث علمي من الطبيعي ان يقف الباحث على مصادر تتفق في وجهات نظرها ازاء قضية معينة ، وأخرى تختلف فيها . وهـذا مبعثه ، من دون شك ، اجتهاد كل باحث في تكوين رأيه نتيجة استخدامه لمصادره واستقصائه وتحليلاته وخلاصاته الخاصة به .

اما أني لم اشر الى بحث الاستاذ الجليل الدكتور عزالدين فوده ، فلأن مؤلفه وبحثه لم اقف عليه بناء على عدم توفره في حينه ، ولا أظن عدم الاطلاع على مؤلف واحد يجعل الباحث وكأنه قد اقترف ذنبا .

أما ان اتفق أو اختلف في وجهة نظر معينة مع استاذنا صاحب البيان ، فلا اعتقد ان في ذلك ضيرا ، لاني كما قلت ان هذا لامر طبيعي ، لان المراجع الاصيلة يكاد يتفق على اصالتها المتخصصون ويرجع اليها اغلبيتهم .

واذن فليس من العلمية في شيء ان يطلب منا الاستاذ صاحب البيان الى الاشارة الى مصدر لم نطلع عليه . وليس من العلمية كذلك ان نعطيه قصب السبق ، لانه ليس اول من دخل ميدان التأليف . ولا نبالغ اذا قلنا ان من يطلب قصب السبق بنفسه فهو ليس بمتتبع علمي أصيل .

ومن هنا كان طلب السيد الدكتور فوده ، نتيجة لاتفاق وجهة نظري في نقطة معينة مع وجهة نظره بسبب وقوفي على مصدر قد وقف عليه هو أيضا على ما يظهر ، هو طلب مردود واخالفه كل المخالفة . ذلك لاننا لا نعيش في عصر المخطوطات وندرة الكتب ، وانما على العكس فان عصرنا هو عصر انتشار المصادر وتوفرها . واذن فان ما يقع تحت يده يقع تحت يد غيره ايضا .

ولو قدر لي ان ارجع فاكتب بحثي ثانية ، واقف على مؤلفه في هذه المرة ، واجد رأيا ما في مصدر أصيل ، واجد انه هو الآخر قد اقتبس من نفس ذلك المصدر ، فلا اعتقد ان الاصالة العلمية تبيح الاعتماد على الفرع قبـل الاعتماد على الاصل ؛ خاصة اذا كان صاحب المصدر الاصيل من الثقاة في الحقل المعين .

وللحقيقة والتاريخ ، واستميح هنا الاستاذ صاحب البيان عذرا ، لاقول له ان مؤلفي المعنون « الدبلوماسية في النظرية والتطبيق ، طباعة مطبعـة اسعد ببغداد ، لسنة ١٩٦٠ ، عدا عن نفاذه بسرعة وقرار وزارة الخارجية العراقية بتوزيعه على السفارات في الخارج في حينه وانتشاره واحتواء مكتبات مشهورة مثل مكتبة الكونكرس لنسخ منه ، فانه قد صدر قبل مؤلف الاستاذ صاحب البيان بسنة كاملة حيث صدر مؤلفه سنة ١٩٦١ .

وبصدد مؤلفنا هذا ، فاننا بتطبيقنا نفس ما جاء به الدكتور صاحب البيان في بيانه نقول له من الجهة الاخرى ، انه قد اشار الى ما أشرنا اليـه في مؤلفنا الدبلوماسية في النظرية والتطبيق الذي سبق في صدوره وزمنه كتابه الذي يشير اليه وهو النظم الدبلوماسية ، والذي وردنا نسخة منـه

اخيرا مقابلة منه لما ارسلنا اليه من مؤلفاتنا في وقت نشرها ، اقول انه قد اشار في ص (٤٧) السطر (٤) من كتابه حول تطور كلمة الدبلوماسية ، نفس المضمون الذي جئنا به في ص (٧) السطر (٢) من كتابنا الدبلوماسية في النظرية والتطبيق بصدد اصل تسمية الدبلوماسية · حتى انه استخدم نفس المصطلح الاكثر قبولا عند الكتاب وهو Diploma كما أشرنا اليـه في الحاشية (١) من ص (٧) ·

ثم انتقل في الصفحة التالية من كتابه وهي ص (٤٨) ، مثلما انتقلنا في صفحتنا التالية وهي ص (٨) فوقف على نفس المفاهيم للدبلوماسية التي وقفنا عليها ·

كما جاء عند الحديث عن الدبلوماسية لدى الاغريق في ال ص (٩٤) من مؤلفه بنفس المضمون الذي جئنا به في وسط ال ص (١٦) في حديثنا عن اليونانيين ونظرية التمثيل الدبلوماسي فيما له علاقة بالمؤتمرات والمحالفات ، مستخدما نفس المصدر الذي اعتمدنا عليه ونفس الصفحات ·

كما جاء في حديثه عن الدبلوماسية عند الرومان في ال ص (١٠٤) من دون الاشارة الى اي مصدر ، بنفس ما جئنا به في وسط ال ص (١٧) واول ال ص (١٨) ·

بعد كل هذا اذن يمكن ان نقول له انه توصل الى نفس ما توصلنا اليه في البعض من استشهاداته وآرائه ! اي انه ادعى لنفسه عناء البحث والتمحيص دونما اشارة الى مؤلفنا لا من قريب ولا من بعيد ··· وفي الوقت الذي هو جهد غيره ·

على ضوء هذا الاجمال اذن ، ارى لزاما علينا الرد تفصيلا على الاستاذ صاحب البيان مشيرين بالدقة والتسلسل الى ما يأتي : ـ

(١) يقول الاستاذ الدكتور ان الكاتب « قد ابتدأ من حيث ابتـدأنا وانتهـى الى حيث انتهينـا في تحليل وتقسـيم بحثنـا المذكور ، متبعا خلال ذلك اسلوبنا في التقسيم والتبويب والتحليل كاملا ، ومستعينا في ذلك بالفاظنا وعباراتنا » ، هو قول مردود ، لان واقع الحال يشير الى انه قال في بداية بحثه ان المراجع الاجنبية لم تأت الا بالاشارات العابرة عن الدبلوماسية العربية ، وهذا ما لم نأت به اذ ان بداية بحثنا تطرق الى تعريض الاجانب بالتراث العربي الاسلامي وباصالته· وقد دللنا على ذلك باستشهادات ومقتبسات لنماذج من الكتاب الاجانب وهذا أمر لم يتطرق اليه صاحبنـا البتـه ·

أما من حيث التبويب ، فنحن نترك ذلك للقراء ليحكموا ان كان تبويبنا يشبه تبويب الاستاذ صاحب البيان · ونكتفي بالقول ان الحقيقة الواضحة لايمكن اخفاءها ·

بقى لنا أن نرد على قوله باستخدامنا عباراته وألفاظه متسائلين لماذا

لم يذكر لنا في بيانه عن واحدة من تلك العبارات ويشير الى مكانها بالضبط ۰۰۰! اللهم انك أعلم ان هذا قول مختلق ۰

أما من حيث الانتهاء فاننا نشير الى انه اقتبس صفحة كاملة وهي ص (١٥٧) التي ينتهي فيها موضوعه من كاتب ومن صفحتي (٩٥ ، ٩٦) لمؤلف هذا الكاتب ، وقد أشار اليه ؛ والتي يتحدث فيها الكاتب عن الاسلوب الاسلامي في استقبال السفراء ۰۰۰۰ وهذا شيء يختلف عما انتهينا اليه في بحثنا المنشور في مجلة الاقلام الجزء التاسع ، حيث تحدثنا عن احترام الدولة العربية الاسلامية لحرية عبادة الرسل والسفراء التي أشرنا اليها بأنها ميزة عالية من ميزات الدبلوماسية العربية الاسلامية التي يحق فيها للعرب والمسلمين أن يفخروا بمبادئهم التي تقوم على التسامح واحترام الاديان ، مستندين بذلك الى الاستاذ صلاح الدين المنجد : فصول في الدبلوماسية ، الجزء الثاني المتمم لكتاب ابن الفراء رسل الملوك ومن يصلح للرسالة او السفارة الذي حققه الاستاذ نفسه ۰ ان الدكتور الفاضل صاحب البيان لم يتطرق الى شرح هذه النقطة قط ۰

(٢) أما بشأن نشأة الدبلوماسية العربية كنتيجة طبيعية لحب العرب للاسفار ، فان الدكتور صاحب البيان يستشهد ببيت شعري ويبني عليه أحكامه دون أن يقول كما قلنا ان طبيعة العرب في حب الاسفار وما احاط بهم من ظروف اجتماعية واقتصادية وجغرافية هي التي دفعتهم الى ممارسة التجارة والى الاتصال بعضهم ببعض أولا والى الاتصال بالاقوام الاخرى من بعد ذلك ۰

يكفي أن نقول للرد على اللغز الذي جاء به الدكتور صاحب البيان ان طالب المدرسة الابتدائية يدرس ان قائد الدولة العربية الاسلامية محمد (ص) كان محبا للاسفار وكان قد مارس التجارة قبل أن تأتيه الرسالة ۰ فهل هذا يحتاج الى معرفة وهل يوجد كتاب في نشأة الدعوة الاسلامية دون أن يتطرق الى هذا ۰۰۰

(٣) ينتقدنا الدكتور عزالدين فودة اننا أشرنا الى نصيحة الواقدي للسفراء ۰ ونحن نقول له اننا قد اقتبسناها من رسل الملوك ۰۰۰ لابن الفراء وتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ، ومن ص (٢٨) بالذات ۰ وها نحن نجد ان الدكتور سامحه الله قد اقتبسها أيضا ۰ فأي عيب هذا علينا ان تصادف واستخدمنا نفس المصدر وهو الموجود بكثرة في المكتبات والذي أقتني نسخة منه في مكتبي ۰ فهل يعتقد الاستاذ الجليل اننا نعيش في عصر المخطوطات ، وان نسخته الخطية نادرة الوجود لا يستطيع الحصول عليها أحد ۰۰۰ وهل هذا قوله حتى يطلب ثمنا له ۰۰۰!

(٤) يشير الدكتور الفاضل اننا ضربنا أمثلة فذكرنا سفارة عبدالمطلب لرد الابل معتمدين بذلك على كتاب هامش السيرة للدكتور طه حسين ۰۰۰

فأي نقص في هذا ؟ هل خنا الامانة العلمية ؟ اللهم اشهد ·

(٥) قلنا في آخر ص (٤) وأعلى ص(٥) من بحثنا « واذا كانت الدبلوماسية العربية القديمة قد اقتصرت في الاغلب على مفاهيم تجارية وودية في عصر الجاهلية فانها مرت بتطورات جذرية بظهور التعاليم الاسلامية · فكان أول ما عمله الاسلام أن وحد العرب في دولة عربية اسلامية · وقد سبب هذا التحول في حياة العرب السياسية الى أن تنتظم الدبلوماسية في قواعد والى أن تدخل ميدان العلاقات الدولية السياسية وبذلك أصبحت وسيلة فعالة من وسائل تنفيذ السياسة الخارجية للدولة العربية الاسلامية التي وطد دعائمها وأركانها الرسول المؤسس محمد (ص) » ·

الاستاذ الكاتب يعتقد انه الوحيد الذي يعلم ان الرسول وحد العرب في دولة · وان هذه الدولة دخلت ميدان العلاقات والسياسة الخارجية · اننا لا نحتاج الى الرد عليه هنا أكثر من القول كيف يتوقع من استاذ للفكر السياسي العربي الاسلامي انه لا يعلم ان الذي وحد العرب في دولة ورسم لها سياسة خارجية هو الرسول محمد (ص) · وهنا نكتفي بالرد عليه أن يأتينا بمصدر عربي اسلامي واحد يستطيع أن يقول غير هذه الحقائق ·

(٦) قلنا في بحثنا « ان الدبلوماسية في عهد النبي والخلفاء الراشدين أصبحت وسيلة فعالة لنشر تعاليم الاسلام ، وأداة لتنظيم الاجتماعات وعقد المؤتمرات · » ويقول الاستاذ في السطر (٤) الذي أشار اليه « الدعوة الى الدين الجديد ، واعلان الحرب دفاعا عن ذماره ··· »

أي تشابه في اللفظ هذا الذي يدعيه · واذا كنا قد ثبتنا رأينا هذا بمصدر مؤيد له وهو مجموعة الوثائق السياسية ، فهل يمكن له أو لنا أن نجتهد في أن أهداف الدولة التي أنشأها محمد هي نشر تعاليم غير التعاليم الاسلامية !!

(٧) للرد بايجاز على هذه النقطة نقول ان الاستاذ صاحب البيان قد حدد دبلوماسية الدولة الاموية (وسفارة قتيبة بن مسلم بالـذات ، في الدعوة الى الاسلام أو دفع الجزية · أما نحن فقد حددناها في ص (٥) من بحثنا في تثبيت أركان الدولة وفي نشر تعاليم الاسلام (كوسيلة للدخول في دين الله أو دفع الجزية) ، وفي دفع الحرب وعقد المحالفة وتثبيت شروط الهدنة · وهذا واضح من أن حدوده أقل نطاقا من الحدود التي وقفنا عليها · وهو بذاته لا ينطبق على رأيه لا نصا ولا موضوعا ·

(٨) نستميح الاستاذ الناقد عذرا لنقول له انه ليس أول من قال انه من أغراض الدبلوماسية في العصر العباسي كان تحقيق التوازن الدولي· وهذه حقيقة ليست جديدة علينا · ومع هذا ندله الى مطالعة كل من :

فازيليف ، العرب والروم الجزء الاول ـ ترجمة الدكتور محمد عبدالهادي وكتاب المنجد المحقق : رسل الملوك ... ص (١٥٩) تأييدا لقولنا .

(٩) للرد على حضرة الاستاذ المعلق نقول ان قصة العلاقات بين شارلمان وهرون الرشيد أشهر من نار على علم ويدرسها الطالب منذ نعومة أظفاره .

ومع هذا فاننا نحيله الى كتاب صبح الاعشى للقلقشندي ، الجزء السابع ص (٣٤٢) الذي استقى منه معلوماته ويدعي انها ملك له .

(١٠) ان فترة اتصال شارلمان بهرون الرشيد هي فترة معلومة وواضحة في التاريخ العربي الاسلامي والتي يطلق عليها « بالعصر الذهبي » وان كل باحث دقيق متخصص يتذكر انها بدأت تثمر بالسنة ٧٩٧م . أما اذا أراد التفاصيل فاننا نحيله الى كتاب المنجد المحقق : رسل الملوك ... القسم الثاني الرسل والسفراء عند العرب لمراجعته كاملا . وان شاء الموضوع بالذات فليقرأ البحث في هذا الصدد تحت العنوان « المحالفة » .

(١١) نرجو الاستاذ المعترض على بحثنا أن يصحح ما علق بذهنه خطأ من أن العنوان الفرعي في ص (٦) من البحث هو « مقومات الدبلوماسية العربية الاسلامية وخصائصها » .

اما أن يحرم علينا استخدام كلمة خصائص مدعيا أن احدا من أبناء العروبة لم يستخدمها في كتاباته الا هو ، فهذا ما لم نسمع به قط . ملاحظة تستحق الشفقة حقا !

(١٢) لقد قلنا في الصفحة (٦) ما ملخصه ان الرسالة الحضارية العربية الاسلامية الانسانية قد فرضت على الدولة الاسلامية أن تكون سياستها سياسة سلمية مرنة . والدليل على ذلك ما يؤيده لنا التاريخ من معاهدات واتفاقات . أما الحرب فهي في المفهوم العربي الاسلامي تكون شرعية في أحوال معينة . مثل حالة دفع الظلم وحالة القضاء على الفتنة وحالة الدفاع عن النفس وأخيرا وليس آخرا حماية القيم الانسانية والحضارية التي تضمها التعاليم الاسلامية من أي متصد لها . اننا نسأله هل ان البرهان الذي أتينا به وهو قيام فلسفة الدولة على نشر القيم الحضارية الانسانية قد فرض عليها سبيل التعاون مع الدول التي تعمل على نشر هذه القيم حتى ولو كانت غير اسلامية ، قد تطرق اليه أصلا !

(١٣) نشير على الكاتب بالرجوع الى مصدر ابن الفراء الذي سبق وأشرنا اليه . ونرجوه أن لا يمتدح نفسه على اقتباس اقتبسه من هذا المصدر .

(١٤) نشير على الاستاذ صاحب البيان بالرجوع الى :

١ ـ المنتظم لابن الجوزي

٢ ــ الخراج لابي يوسف
٣ ــ شرح السرخسي على السير الكبير للشيباني
٤ ــ فصول في الدبلوماسية للمنجد الجزء الثاني

ونرجوه ثانية أن لا يدعي لنفسه المعرفة · ونوجه عنايته بوجه خاص الى النماذج التي أوردها المنجد تحت باب الهدنة والصلح وعلى الاخص نموذج لخطاب جوابي للمأمون يرد فيه على توفيل صاحب الروم في ص (١٥٢) مبتدئا ب « أما بعد ··· فلقد بلغني كتابك ··· » وكذلك ما جاء برسالة هارون الرشيد الى نقفور ملك الروم المبتدئة في الاعلى بالبسملة (ص٤٢) ؛ وكذلك رد المعتصم الى باسيل بن اليون التي ابتدأها ب « بسم الله الرحمن الرحيم » أما بعد ، فقد قرأت كتابك ، وفهمت خطابك ، والجواب ما ترى لا تسمع به ، وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار » · (ص ٤٤ من المصدر نفسه) ·

(١٥) نرجو أن نشير الى السيد كاتب البيان ، على سبيل المثال ، ان ما جاء في الصفحة المشار اليها قد كثر فيها الاقتباس عن كتاب الخراج لابي يوسف والذي رجعنا اليه علما منا بأهميته وهو متوفر في عدد من مكتبات بغداد ·

(١٦) لا ندري كيف يصبح لاي باحث أن يدعي بأن كتب غيره هي ملكه ولا يجوز استخدامها الا باذن منه · جل ما نقول له ان عصر المخطوطات قد مضى وانقضى · وان كان يريد أن يعلم كيف نقضي وقتنا ونستقي مصادرنا فليسأل مكتبة الكونكرس في واشنطن التي تضم ١٣ مليون كتاب من مختلف لغات العالم وبضمنها العربية ، عن رقم الكرسي الذي احتجزناه فيها لمدة سنة وهي سنة (١٩٦١) · كما ندعوه الى الاطلاع على الكتب العربية الاسلامية في مكتبتنا الخاصة ، فهل لا أستطيع أن أجد مصادري من هذه الاماكن وغيرها ، بعد ما قلناه له ··· أم ننتظره !

◆◆◆

السيد سكرتير مجلة الاقلام الغراء المحترم

تحية طيبة وبعد :

أرجو التفضل بنشر الكلمة التالية في مجلتكم الغراء (الاقلام) خدمة للحقيقة ، ولكم مزيد الشكر :

ان العلامة المحقق الكبير الاستاذ عبدالسلام محمد هارون هو من نعلم في الفضل والادب وطول الباع في التحقيق والتمحيص ، وان خدماته في احياء التراث العربي الاسلامي لما تسطر بمداد الفخر والاعجاب · ولقد اقتنيت قبل أيام كتاب [رسائل الجاحظ] الذي قام بتحقيقه علامتنا المفضال فتصفحته على عجل ، لانشغالي بواجبات أخذت كل وقتي ولم تدعني أفيه

حقه من التدبر والامعان ، بيد أني عثرت (صدفة) في الحاشية رقم (٢) من الصفحة ٢٧٥ من ذلك السفر القيم على تفسير أحسسب انه جانب الصواب ، فلقد فسر استاذنا الفاضل كلمة (ابن هند) ب (عمرو بن هند) والذي اعتقده ان المراد من ذلك (معاوية بن أبي سفيان) لا عمرو بن هند ، وقد كان معاوية يكنى بهذه الكنية ، وأذكر ان الاتليدي - صاحب كتاب : « اعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس » - قد حفظ لنا محاورة جرت بين معاوية وبين الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما كنى فيها معاوية نفسه ب (ابن هند) ، كما كنى الحسن رضي الله عنه نفسه بابن فاطمة الزهراء . وان الجاحظ ، كما يرى القاريء من عبارته ، قد أورد أسماء دهاة العرب في الاسلام المعروفين حسب الترتيب التالي : عمرو ابن العاص ، ومعاوية بن ابي سفيان ، والمغيرة بن شعبة الثقفي ، وزياد ابن ابيه .

كذلك فسر الاستاذ العلامة في الحاشية رقم (٣) من تلك الصفحة كلمة (الثقفي) ب (الحجاج بن يوسف) ، وانما المراد من ذلك (المغيرة بن شعبة الثقفي) للسبب الذي ذكرنا آنفا .

واتماما للفائدة أرى أن أورد عبارة الجاحظ بنصها ليتبين منها للقاريء الكريم وجه الصواب :

« ... وما اخالها الا ستدق على ابن العاص ، وتغمض على ابن هند ، ويكل عنها أخو ثقيف ، ويستسلم لها ابن سمية » - رسائل الجاحظ ص ٥٢٧ - .

هذا وتقبلوا شكري وتحياتي .

احمد حامد الشربتي

اضواء على السياسة العالمية

الوزارة العراقيـة

خلال شهر ايلول استقالت وزارة الفريق طاهر يحيي بعد أن تولت المسؤولية فترة ليست بالقصيرة وجابهت من الصعوبات والمشاكل الشيء الكثير واستطاعت خلالها التغلب على معظمها فشرعت القوانين الاشتراكيـة وتشكل في عهدها الاتحاد الاشتراكي وقامت القيادة السياسية الموحدة بين الجمهورية العراقية والجمهورية العربية المتحدة وقطعت ثورة الثامن عشر من تشرين شوطا بعيدا في تحقيق الاستقرار المنشود في ظل الوزارة آنفة الذكر فاستحقت الشكر والثناء ٠

وقد عهدت المسؤولية بعدها الى وزارة السيد عارف عبدالرزاق فلـم تستمر وزارته في الحكم اكثر من عشرة ايام اعفي بعدها من المسؤولية في ظروف ذكرها البيان الرسمي الذي اصدرته الحكومة حول حركة كـان الغرض منها الاخلال بالامن وسلامة الدولة ونظرا ليقظة المسؤولين والقوات المسلحة فقد احبطت المحاولة بعد فترة قصيرة ومن دون ان تراق قطرة دم وعلى اثر فشل المحاولة فر جل القائمين بها الى خارج العراق والقي القبض على الباقين ، ولعل وزارته تعتبر من اقصر الوزارات عمرا في تاريخ العراق ٠

فالف الاستاذ عبدالرحمن البزاز وزارته الاولى بتاريخ ٢١-٩-١٩٦٥٠ وقد ضمت الوزارة كثيرا من العناصر التي سبق لها ان مارست المسؤوليـة في الوزارات التي الفت بعد ثورة الرابع عشر من رمضان والثامن عشـر من تشرين ٠

وقد احتفظ الاستاذ البزاز الى جانب منصبه في رياسة الوزراء بمنصب وزير الخارجية ٠

وقد اخذت الوزارة منذ اول يوم تسلمت فيه المسؤولية بأشاعـة روح الثقة بين المواطنين والحكومة وهو الامر الذي دعا الاستاذ البزاز الى تحقيقه واعتبره حجر الزاوية في عمله الوزاري وعول عليه كثيرا في تنفيـذ السياسة التي ترغب الحكومة انتهاجها ٠

والحقيقة فان الحكومة ـ بحسب تصريحات رئيسـها والمسؤولـين فيها ـ اظهرت الرغبة الاكيدة في السير في طريق الاشتراكية والوحدة وهو الطريق الذي سارت عليه ثورة الثامن عشر من تشرين مع تلافي الاخطاءالتي حصلت وقد تحصل في المستقبل من التطبيق الاشتراكي دون مساس بجوهر الاشتراكية الذي اصبح امرا يتصل بمكسب من مكاسب الشعب في ثورته

التي قام بها يشاركه فيها جيشه العظيم وقيادته التي حمل الراية فيها قائده الاعلى المشير الركن عبدالسلام محمد عارف ٠

مؤتمر القمة العربي الثالث

انعقد مؤتمر القمة العربي الثالث في الدار البيضاء بالمغرب وقد شارك فيه الملوك والرؤساء العرب جميعهم باستثناء الحبيب بورقيبة رئيس جمهورية تونس ، لقد كان مؤتمر القمة برياسة السيد الرئيس جمال عبدالناصر رئيس الجمهورية العربية المتحدة وقد اشيع قبل انعقاد المؤتمر انه ستكون في طريقه صعوبات قد تجعل منه آخر مؤتمرات القمة العربي ، وكانت هذه الفكرة تراود اذهان بعض المعقبين السياسيين العرب انفسهم ، الا ان الرؤساء العرب خيبوا تلك الظنون ونجح مؤتمر القمة العربي الثالث وحدد مكان انعقاد المؤتمر الرابع بغداد ٠

لقد كان دور الرئيس المشير الركن عبدالسلام محمد عارف في هذا المؤتمر دورا رئيسا في التغلب على المشكلات التي اثيرت والقرارات التي اتخذت وكان للاجتماعات الشخصية التي عقدها خارج قاعة المؤتمر أثرها الملموس في تنقية الجو العربي وخلق الجو الملائم للقرارات التي اتخذها المؤتمر ولعل اهم ما برز في تلك القرار التوقيع على ميثاق التضامن العربي الذى يعد من اسس تدعيم الكفاح العربي المشترك وبه سنسد الثغرة التي ينفذ منها خصوم الامة العربية في تفريق الصف الواحد لابنائها ٠ ان ابناء الامة العربية ينتظرون بعد هذا الميثاق ان تلتزم به الدول العربية فعلا ليخرج من حيز القول الى حيز العمل وهو كذلك يحقق التضامن في معالجة القضايا العربية وبخاصة قضية فلسطين ، ويقرر احترام سيادة كل من الدول العربية بعدم التدخل في شؤونها الداخلية ٠ ويضع قواعد للجوء السياسى وادابه وفقا لمبادىء القانون والعرف الدولى ، ويسخر الطاقات الاعلامية لخدمة القضايا العربية ٠ الخ ذلك من الامور التي تبعد الامة العربية عن مجالات الخصومات الجانبية التي يغذيها الاعداء وينفذون اغراضهم عن طريقها ٠

اما فلسطين فكان نصيبها من المؤتمر النصيب الاوفى وقد اتخذت قرارات حول استغلال مياه الاردن في الاراضى العربية وموضوع منظمة التحرير وبعض الصعوبات التي تواجهها وجيش التحرير ٠

قال كثير من المعلقين ان مؤتمر القمة قد اعاد نفس مقرراته السابقة ٠ والحقيقة ان مؤتمر القمة قد خطا خطوات الى الامام ونحن من المتفائلين بأعمال المؤتمر ونشعر ان متابعة القرارات السابقة واتباعها بمقررات جديدة أمر يدعو الى هذا التفاؤل لانه ينقل الامة من حالة القول الى حالة الفعل

والعمل وينقل العمل من مرحلة الى مرحلة · حقق الله آمالنا في المؤتمرات القادمة فالى مزيد من العمل النافع ان شاء الله ·

السياسة العربية

طلعت الصحف في اليوم السادس والعشرين من شهر ايلول تحمل عناوين الكفاح العربي في الجنوب العربي ، فقد عطلت بريطانيا دستور عدن وفرضت الحكم المباشر من قبل حاكمها في المنطقة ومعنى ذلك ان بريطانيا قد اسفرت عن الوجه الحقيقي الاستعماري الذي تمارسه في هذا الجزء العزيز من الوطن العربي ومعنى ذلك ان بريطانيا تعادي سكان هذه المنطقة بمجموعهم في الوقت الذى كانت تعلن قبل الان انها تعادي منظمة خاصة ، هي جبهة تحرير الجنوب ، وهذا يعني ايضا ان شعب الجنوب العربي كله اليوم يمثل جبهة التحرير ، والا فما الذى يدعو بريطانيا الىهذا الاجراء ··

ان الاضطرابات تسود المنطقة كلها وتنذر بالحرب ضد قوات الاحتلال البريطاني ويبدو ـ في رأي المعقبين السياسيين ـ ان بريطانيا لجأت الى هذه الاجراءات حين توقف القتال في اليمن بين الجمهوريين والملكيين بعد الاتفاق الذي عقده الرئيس جمال عبدالناصر والملك فيصل ، اذ ان اجراءات وقف القتال فى نظر بريطانيا نقل المعركة الى خارج حدود اليمن الى عدن ضد الاعداء الحقيقيين للامة العربية وللشعب العربي وكانت بريطانيا قبل ذلك تمول العمليات الحربية ضد الجمهوريين ·

ان استقالة السيد عبدالقوي مكاوي رئيس وزراء المنطقة واستقالة الوزراء ورفضهم التنديد بالارهاب كان يعنى لدى بريطانيا انذارا بوجوب مغادرة المنطقة والارتحال الى غير رجعة ·

من الغريب حقا ان تصدر بريطانيا بيانا تعلن فيه ان كفاح شعب الجنوب العربي يثبط جهود بريطانيا للسير نحو استقلال جنوب شبه الجزيرة ولذلك فان حكومة صاحبة الجلالة امرت بتعليق دستور عدن واعتبرت ذلك من اجراءات الامن وبذلك حل المجلس التشريعي وصرف الوزراء ومارس الحاكم البريطاني السلطة مباشرة ! وكانت باكورة اعماله منع التجول والاعتقال · الاسلوب الذي سبق للاستعمار ان مارسه في كثير من الاماكن قبل رحيله عنها ·

ان شعب الجنوب مصمم على الكفاح ويطلب من الاستعمار ان يرحل · ان لجنة تصفية الاستعمار في الامم المتحدة اقرت استقلال الجنوب وطلبت بتصفية القواعد فلم يبق لبريطانيا عذر ولابد ان يقدم الشعب ضحاياه في هذا السبيل ولكنه واصل الى مبتغاه لا محالة ·

فشل زيارة الوزير البريطاني هومسن للقاهرة

كان من نتيجة الاجراءات التي اعلنتها بريطانيا في الجنوب العربي ان رفض السيد الرئيس جمال عبدالناصر مقابلة المستر طومسن وزير الدولة البريطاني للشؤون الخارجية في زيارته للجمهورية العربية المتحدة على امل تحسين العلاقات بين الطرفين : بريطانيا والعربية المتحدة • وكان ذلك ردا صريحا لرأي الشعب العربي في اجراءات بريطانيا في هذا الجزء من الوطن العربي الكبير •

السياسة العالمية

الحرب بين الهند وباكستان

بعد قتال مرير قدم فيه الطرفان الهند وباكستان كثيرا من الضحايا والخسائر اعلنت الهدنة بينهما فاستبشر الناس خيرا بوقف الحرب التي اصبح شبحها يثير في نفوس الناس كثيرا من القلق والحزن ، ولكن يبدو ان الحرب لم تنته في نفوس الهنود ونفوس الباكستانيين ، يدل على ذلك خرق الاتفاقية الذي يدعيه كل طرف من قبل الطرف الاخر وليس خافيا ان اعلان الهدنة لايعني تسوية الامور والمشاكل ، فالباكستان يطالب بتطبيق قرار الامم المتحدة في الاستفتاء الذي يجب ان يقوم في كشمير للتعرف على رغبة سكانها المسلمين في غالبيتهم لتقرير مصيرهم ، والهند ترى ان كشمير جزء من القارة الهندية غير مستعدة للقيام بعملية الاستفتاء فيه •

ان هذا الموضوع يحتاج الى معالجة جذرية معالجة موضوع المسلمين في الهند ، فان الاخبار التي ترد من هناك تدل على ان التمييز الديني واضح في القارة الهندية وان تعسفا يجرى ضد المسلمين تثيره وتغذيه جهات اخرى ، ومادام الامر كذلك فلابد من ايجاد حل لموضوع المسلمين في بلاد الهند ذلك ما يطالب به العالم الاسلامي وما ترتفع من اجله اصوات المسلمين في كل مكان •